جامعة الجزائر
معهد اللغـة والأدب
العـربي

الفصاحة اللغوية والبلاغية
في القرن الثالث الهجري

رسـالـة

أعدها الطالب: أبو بكر حفيظي لنيل شهادة الماجستير
تحت اشراف : الدكتور. جعفـر دك البـاب

السنة الجامعية : 1984-1985

بسم الله الرحمان الرحيم

" ... لا قرابة بيني وبين البصريين (وأضيف ولا بيني وبين الكوفيين) لكنها بيني وبين الحق والحمد لله " .

ابن جني ، المحتسب ، 1/ 166_167

" وعندي ... أن مجاراة التطور فريضة وفضيلة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم فنخلق قواعدها وأصولها في طريقنا ، وانما التطور يكون في اللغات التي ليس لها ماض وقواعد وأصول " .

عباس محمود العقاد ، مقدمة كتاب الغربال لميخائيل نعيمة ص ، 10 _ 11

مقدمـــــة

لقد آلت العربية في عصرنا الى وضع لا تحسد عليه : عقوق بعض الأبناء ، ومخالب الأعداء ، والبحث فيها ليس نزهة فكرية أو مغامرة ترفيهية بل هو من القضايا الجوهرية المصيرية لإحياء أمة تحمل غبار قرون من التعثر ، وتشويه عشرات السنين من الاستعمار ، وضياع سنين من التبعية .

وزمن الناس هذا هو زمن الايديولوجيات ، والمذاهب الفكرية ، والتوجهات العلمية ، لذا لا نعجب عندما نرى علماءنا المحدثين يختلفون في معالجة ما أسموه بالمشكلة اللغوية ، وفي وضع سبل الخلاص باختلاف مشاربهم العلميـة ، ومنطلقاتهم الفكرية ،فكان منهم متهم ، وكان منهم رافع دعوى .

وليت الأمر بقي عند هذا الحد دون الامتداد به الى التراث العربي الإسلامي لتسخيره ،وتوظيفه وفق المنطلقات والأهداف والمناهج ، فراح كل دارس أو باحث يفتش عن سند أو تزكية منه . والمؤسف حقا هو غياب الاخلاص حينا وعدم الثقة في التراث والنفس حينا آخر .

فكلما طلع علينا البحث اللساني الحديث بنظرة في اللغة ألفيت كثيرا من الدارسين العرب يتسابقون الى التراث ينقبون فيه ويفتشون عن نظير لما استحدثه اللسانيون المعاصرون ، وكان من ذلك أن تعددت التفسيرات للنص الواحد . واذا كان هذا يزكي قيمة تراثنا الكبيرة ويرفعها دونما حاجة الى تزكيـة المستشرقين والغربيين والشرقيين ، فانه يعني كذلك أننا لم نهتد بعد الى سبيل قويم للاستفادة منه في ايجاد متن للوضع الحضاري الحديث لأمتنا ، بما فيه المشكلة التي تتهدد لغتنا في بيئاتها الاجتماعية على المستوى الثقافي والأدبي خاصة ، وعلى مستوى التخاطب اليومي لقضاء المصالح والحاجات الآنية .

والعربية وان كانت قد نضجت قوانينها واكتملت فان مفرداتها ليست لها نهاية تقف عندها ، وليست لها حدود لا تتجاوزها شريطة أن يراعى فيها نظام العربية وسننها لأن هذه القوانين والسنن التي تحكمها تكاد في نظرنا ترقى الى مستوى القوانين الطبيعية ثباتا وقوة ، وعدم معرفة هذه القوانين لا يعني أنها غير موجودة . واذا كانت مهمة البحث اللغوي في بعض جوانبه هي

البحث عن هذه القوانين والكشف عنها ، فان ذلك ليس سهلا خاصة اذا علمنا أن المجتمع البشري ذو أنظمة معقدة ومتشابكة واللغة أحد هذه الأنظمة .

ولعل خفاء هذه القوانين عن بعض الباحثين أدى بهم الى اعتبار التطور اللغوي لحنا وخطأ وانتهاكا لحرمة اللغة العربية الفصحى . ونحن نرى أن التطور هو التغير الذي يراعي نظام اللغة ويحترم سننها ، ولا يخل بالموروث اللغوي والعلمي ، ومثل هذا التغير ليس لحنا - في نظرنا - لأنه يجري ضمن نظام اللغة العربية . أما التغير الذي يؤدي الى الخروج عن نظام اللغة العربية فلا ننظر اليه على أنه تطور ، بل هو لحن وخطأ نرفضه ونكشف خطورة الآثار التي تترتب عليه كضرب الوحدة اللغوية العربية .

تذكر لنا مصنفات العلماء في القرن الثالث وضعا لغويا شبيها في ظاهره بهذا الذي نعاصره ، فالعامة قد أجرت على ألسنتها استعمالات لغوية تختلف في أبنيتها الصوتية والصرفية ، وأبنيتها النحوية والبلاغية عن العربية الفصحى مما جعل بعض المحدثين يذهب الى الاعتقاد بل الى الجزم بحدوث انفصال جذري بين الفصحى وتلك التي تجري على ألسنة العامة ، فتميزت الخاصة عن العامة باستعمالات فصيحة منتقاة بالرغم من أن الأمة كانت تعيش أزهى عصر حضاري في حياتها .

فقد شهدت تطورا اجتماعيا وعلميا وفكريا وأدبيا هائلا ، كان له أثر بالغ في اللغة وفي الشعر والنثر الفني والعلمي ، بوأها هذا التطور مكانة سامية في المسيرة الحضارية الانسانية ، وجعلها مرمى الحقد والضغينة يوم تخلت عن رسالتها . ففي القرن الثالث نشط بعض العلماء بحسب ما أوتي كل منهم من نبوغ وعلم ونفاذ عقل في دراسة الاعجاز وتبيان وجوه تفوق تعبيرات القرآن البليغة على كل كلام بليغ مما دعاهم الى النظر في بلاغة الشعر حتى أصبحت التعبيرات البليغة ميدانا للبحث في وجوه الفصاحة والبلاغة ، وتفاوت البلغاء فيها ، فنظر العلماء الى الألفاظ مفردة ومركبة ، والى دلالاتها على المعاني والأفكار ، وتشدد بعضهم في دراساته اللغوية فرد بعض القراءات ولحن بعض القراء .

واعتبر العلماء فصاحة القرآن مثالا للفصاحة والبلاغة ، فلم يتوانوا - طلبا لاحتذاء بها - في أن يستنبطوا شروطا للفصاحة والبلاغة ليلتزم بها الشعراء والكتاب ، وليوفروا لأدبهم أقصى ما يمكن من الفنية باختيار الألفاظ والمعاني والصور البلاغية . وأثرت فصاحة القرآن في المبدعين فحقق الشعراء على اختلاف قدراتهم ومواهبهم أقصى ما استطاعوا من الفنية والجمال والجودة ، فجاء شعرهم متميزا في شكله ومضمونه ليبقى نبراسا على مر العصور . وانعكس التطور الذي شهدته الأمة بالدرجة الأولى على النثر العلمي والفني ، فكان ذلك العصر ورشة عمل متعددة الاختصاصات ، فتعددت العلوم والمعارف وكثرت الصناعات ونمت مفردات اللغة وتطورت .

وفي هذا القرن الثالث ألفت كتب كثيرة فيما اصطلح عليه بلحن العامة ، نبها فيها أصحابها الى عدم استعمال ما يجري على ألسنة العامة بدعوى أنه متغير عن أصله ووضعه الأول وفي حركات اعرابه ، وفي أبنيته الصوتية والصرفية ، وأبنيته التركيبية النحوية والبلاغية . والذي يعود الى كتب العلماء الأدبية واللغوية يشعر وكأنه أصبح للعامة استعمالات لغوية خاصة تختلف عن استعمالات الخاصة وهذا - على ما يبدو لنا - هو الذي دعا بعض العلماء كيوهان فك[1] الى اعتبار القرن الثالث مرحلة القطيعة بين العربية الفصحى ولغة العامة الدارجة ، ومن ذلك الحين سارت العامية والفصحى التي أمست لغة أدباء وكتاب فقط في خطين متقابلين عبر القرون حتى وصلت الفرقة بينهما الى ما هي عليه الآن .

ولقد كان هناك شبه إجماع بين العلماء المحدثين على أن علماء القرن الثالث وقفوا بدراساتهم للغة العامة في وجه التطور اللغوي للعربية ، وأنهم كانوا يردون استعمالات العامة لجهلهم بسنن هذا التطور ، وأنهم كانوا يسعون الى تنقية اللغة من غير الفصيح الذي نطق به العربي في بيئة الاحتجاج .

ونحن نرى أن خلط العلماء المحدثين بين غاية علماء القرن الثالث التعليمية وبين غاية العالم اللغوي العلمية الشاملة أوقعهم فيما أوقعهم .

---

(1) العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فك ، / 149

ألف بعض العلماء المحدثين كتبا - ومقالات وفصولا في كتبهم في بعض جوانب الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث ، وفق مناهج وتصورات مختلفة ولعل أبرز من تناول ظاهرة اللحن[1] رمضان عبد التواب في مؤلفه "لحن العامة والتطور اللغوي" وعبد العزيز مطر في أطروحته "لحن العامة على ضوء الدراسات اللغوية الحديثة" واستهدف عبد التواب التأريخ لظاهرة اللحن وللتأليف فيها ، فدرس الظاهرة دراسة وصفية محاولا تقرير الواقع اللغوي في عصوره المتتالية ، والكشف عن السر الذي يكمن وراء هذا الواقع قال في مقدمة الكتاب : " ... وانما يعني بحثنا اياها (يعني لغة العامة) الاجابة عن هذا التساؤل : كيف تكونت العامية ؟ ولماذا تكونت ؟ وماذا يعنى بكلمة العامية ؟ وماذا يعني بكلمة الفصحى ؟ وما المقاييس التي تخضع أحكامنا لها في الحالتين ؟ وهل يتحدث العامة بكلامهم كيفما اتفق دون قاعدة أو قانون ؟ وما السر في انحرافهم عن الفصحى ؟ ... وذلك لمعرفة خط سيرها وتطورها ، والظروف التي يمكن أن تساعد على نموها وانتشارها في بقاع الأرض المختلفة" (2)

وبدأ عبد العزيز مطر أطروحته بقوله : " في علم العربية لون من ألوان التأليف يمثل اتجاها قويا للمحافظة على سلامة اللغة ، وتنقيتها مما شاع على ألسنة الناطقين بها من كلام دخيل مختلف عن سنن الكلام العربي ، في الأصوات أو الصيغ ، أو نظام الجمل أو حركة الاعراب ، أو دلالة الألفاظ ، فتذكر هذه المؤلفات الخطأ المستعمل ، والصواب الذي يجب أن يجري به الاستعمال[3] . وحصر غاية بحثه في الاجابة عن الأسئلة التالية : هل يمكن استنباط ظواهر لغوية عامة من هذه الكلمات المتناثرة في كتب اللحن ، بحيث يمكن أن تعد هذه الكتب سجلا للهجات الخطاب ، ويمكن الافادة منها في دراسة التطور اللغوي ؟ ثم كيف يفسر حدوث اللحن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثه ، وما النظرة العلمية الخالصة اليه ؟ ثم لا بد بعد ذلك ـ أو قبل ذلك ـ من تحديد مفهوم اللحن ، ومفهوم العامة والخاصة ، وتحديد

---

(1) انظر قائمة الكتب والمقالات التي تناولت موضوع اللحن في أطروحة عبد العزيز مطر ، 9 ـ 10 .
(2) لحن العامة والتطور اللغوي ، رمضان عبد التواب ، / 4 ـ 5 .
(3) لحن العامة على ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، عبد العزيز مطر ، / 7 .

المقياس الصوابي الذي يجري على أساسه الحكم بأن هذا خطأ وذاك صواب[1]
واقتصر بحث عبد العزيز مطر على ثلاثة كتب هي : تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكي الصقلي ، ولحن العامة للزبيدي الاشبيلي ، وكتاب تقويم اللسان لعبد الرحمن بن الجوزي .

واستهدفنا من بحثنا ما يلي :

1 - اعطاء صورة وصفية تحليلية للفصاحة في القرن الثالث الهجري .

2 - بيان : هل كانت لغة العامة خارجة عن سنن العربية ؟ والى أي مدى ؟

3 - استخلاص نتائج يمكن الاستفادة منها للاسهام في البحث عن سبيل قويم لعلاج الوضعية اللغوية المعاصرة لأمتنا ، حيث كاد يتفرد كل قطر من أقطار الأمة بلهجة خاصة به ، وانحصرت الفصحى في نظر الناس في الابداع والكتابة ، وتعمق الشرخ بين اللهجات العامية والفصحى واتسع الشق حتى غدا العامي وحتى بعض الأدباء والمثقفين يشعرون وكأن العامية لا تمت بصلة الى الفصحى بصلة ، وأصبح الاتصال بين أبناء الأمة في المشرق والمغرب بغير اللغة الأدبية صعبا ، وتعالت صيحات مرضى النفوس باتهام العربية بالتخلف ، وبعدم القدرة على استيعاب المفاهيم الحضارية المعاصرة ، ونادوا بالتخلي عن الفصحى ، والاكتفاء باللهجات لأنها أقرب الى الواقع ، وأبعد عن التكلف والتمحل الذي تقتضيه الفصحى في قواعدها وقوانينها ، ونشط المخلصون ينودون عن حياض العربية ، ويدافعون عنها ، ويعللون هذه الوضعية الشاذة ، ويقترحون الحلول العاجلة والآجلة ، ويثبتون قدرة العربية على مواكبة التحضر وعلى احتواء الحضارة والتكنولوجيا .

وبرغم الصعوبات التي اعترضت الباحث : تنقلاته القسرية المستمرة بين الأحياء الجامعية ، يحط رحاله في غرفة ليشده الى أخرى ، وفترة الفراغ التي مر بها بعد وفاة المرحوم الأستاذ الخلوي المشرف الأول ، قلت برغم هذا فقد استدعى البحث أن أقف على الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث

---

(1) نفسه ، / 11 .

مرتبطة بالجو الثقافي والاجتماعي ، واصفا ومحللا ومناقشا ضاما الى هذا كلـه الجوانب التاريخية كلما استدعى البحث ذلك ، آخذا في الاعتبار التميز بيـن غاية العلماء العلمية وغايتهم التعليمية ، وانبنت خطة البحث على مقدمـة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة : فسأتعرض فيها لدوافع البحث وحوافزه ، وأهميته ، وخطته .

التمهيـد : سأتعرض فيه الى الفصاحة اللغوية والبلاغية في بيئة الاحتجاج والى العوامـل والأطر التي ساهمت متضافرة في تحقيق فصاحة عاليـة ، واستخلص في آخره نتائجه الهامـة .

الباب الأول: الفصاحة البيانية واللغوية وضوابطها في القرن الثالث ، ويشتمل على ثلاثة فصول هي التالية :

الفصل الأول : مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحا ، سأتعرض فيه لمعـنى الفصاحة لغة واصطلاحا ، وللفصاحة الخالصة من اللكنة والخطأ واللحـن ، والفصاحة الخالصة من تنافر الحروف والكلمات ، والابتذال ، والغرابة ، ومـن مخالفة القياس .

الفصل الثاني : الاعـراب ، سأتعرض فيه الى مكانة الاعراب ،وأهميته في الفصاحة والبيان ، وفي توليد الدلالات والتراكيب ، وسأناقش دعوة التخـلي عن الحركات الاعرابية ، والاقلال من أهميتها .

الفصل الثالث : القياس والتوليد ، سأتعرض فيه الى الفرق بين القياس عند العربي الفصيح ، والقياس عند النحاة ، وسأبين أهمية القياس والتوليد في الاشتقاق والتعريب ، وسأناقش بعض القضايا المتعلقة بالمعرب والتعريب . وسأختم الباب بذكر نتائجـه .

الباب الثاني : مستويات الفصاحة في القرن الثالث : ويشتمل على ثلاثـة فصول هي التالية :

الفصل الأول : فصاحة القرآن الكريم : سأتعرض فيه الى رأي العلماء في نزول القرآن بلغات العرب كلها ، والى موقف العرب الفصحاء من القـرآن وعجزهم عن معارضته رغم تحديه لهم ، والى آراء العلماء في الاعجاز بالصرفة ،

وآراء العلماء في الاعجاز بالنظم والفصاحة ، والى حديث الأحرف السبعة ، واختلاف القراءات ومواقف علماء القرن الثالث في رد بعضها وتلحين بعض القراء .

الفصل الثاني : الشعر في القرن الثالث : سأتعرض فيه الى آراء العلماء في الشعر ، ومواقفهم من الشعر المولد ، والى اقتدار المولدين على قول الشعر ، والى بعض ما جاءوا به جديدا مبتكرا ، والى خصائص الشعر في هذا القرن الثالث ، والى بعض السمات العامة التي تميز بها البحتري ، وابن الرومي ، وأبو تمام ، بالاضافة الى وقفة قصيرة مع أبي تمام في بعض توليداته .

الفصل الثالث : النثر العلمي والفني في القرن الثالث : سأتعرض فيه الى ما اقتضته الحياة الجديدة من اشتقاق ألفاظ ومصطلحات لمعان جديدة، حتى أصبح لكل علم أو صناعة معجم لغوي خاص يعرف به ، وسأتعرض الى خصائص النثر في القرن الثالث ، والى بعض العلماء الذين يصحفون ويلحنون فيما يروون أو يقولون ، ولا يلتزمون بما يأمرون به الناس ، وسأقف قليلا عند الجاحظ لابراز بعض خصائصه الفنية ، وسأشير الى لغات أهل الصناعات الحرفية ، وأذيل هذا الباب بذكر النتائج التي توصل اليها بحثنا فيه .

الباب الثالث : لغة العامة في القرن الثالث : ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول :

التمهيد : سأتعرض فيه الى تحديد مفهوم العامة ، والى ظاهرة اللحن من بدايتها الى القرن الثالث .

الفصل الأول : مستوى البنية الصوتية والصرفية للمفردات : سأتعرض فيه الى خصائص استعمالات العامة في هذا المستوى ، وسأتبعها في بعض الكتب والمعاجم العربية ، وسأقف على مستوى فصاحتها فيما ورد عن العرب وعلى مدى موافقتها لسنن العربية ، وسأكشف خلفيات العلماء وغاياتهم من تصنيف تلك المختصرات .

الفصل الثاني : مستوى البنية الافرادية الدلالية : سأتعرض فيه الى أنواع الدلالات الحقيقية والمجازية ، والى استعمالات العامة الدلالية للمفردات ، وسأبين مدى موافقتها لقانون التطور اللغوي الدلالي العام

وسأقف على غاية العلماء من اشاراتهم الى استعمالات العامة ، ومدى فهمهم لسنن التطور اللغوي ، لنرد عنهم ما اتهمهم به كثير من الباحثين المحدثين .

الفصل الثالث : مستوى البنية التركيبية النحوية والبلاغية : سأتعرض فيه الى استعمالات العامة في هذا المستوى ، وسأتتبعها في بعض كتب النحويين ، والبلاغيين لأقف على مدى موافقتها لسنن العربية في منظومتهنا النحوية والبلاغية ، ولقوانين التطور واللغوي عموما .

وسأعرض في ختام هذا الباب نتائجه التي توصل اليها البحث

وفي الخاتمة سألخص نتائج الأبواب ، وسأبرز ما يمكن أن يسهم به بحثنا والمنهج الذي اعتمدناه في معالجة وضعنا اللغوي المعاصر ، وسأردف ملحقا ، اضمنه جداول لبعض استعمالات العامة ، ووصف العلماء لها في المصادر اللغوية وغيرها . وسأنهي البحث بفهرس للمصادر والمراجع وبفهرس للمحتويات .

وقد يلاحظ على خطة بحثنا خلوها من فصل في فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي فصاحة الحديث النبوي الشريف فنقول : لم نغفل هذا في الخطة الأولية ، وعندما رجعنا الى المصادر اللغوية والأدبية ، ومصنفات الحديث وعلومه وجمعنا مادة الفصل تبين لنا أن العلماء مختلفون في جواز الاستشهاد بالحديث الشريف[1] ففئة ترى عدم جواز الاستشهاد به ، وعلة ذلك عندها أن الحديث روي بالمعنى ، وجل رواته أعاجم لا يتقنون العربية ، ومن هذه الفئة أبو حيان النحوي . وفئة ثانية ترى جواز الاستشهاد به بغير تحفظ ، لأن القرنين هما زمن الاحتجاج ، وأن رواة الحديث كانوا حريصين على ضبطه فدونوه ونبهوا الى الأحاديث الموضوعة وحذروا من الرواة المشبوهين ويمثل هذه الفئة ابن مالك . وترى فئة ثالثة ويمثلها الشاطبي جواز الاحتجاج بالأحاديث التي اعتنى بنقل ألفاظها المقصودة خاصة ، ولم ترتض الاحتجاج بالأحاديث التي اعتنى ناقلها بمعناها دون لفظها . فالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ككتابه لهمذان ، وكتابه لوائل بن حجر ، والأمثال النبوية وأحاديث العبادات والشؤون اليومية يجوز الاحتجاج

---

(1) انظر : الإقتراح للسيوطي ، 19ـ21 . همع الهوامع ، 1/ 105 خزانة الأدب 1، / 23 ـ 26 .

بها لأنها أحيطت بصيانة خاصة وعناية ودقة لمكانتها الدينية ولبلاغتها ووضعت للرواية شروط خاصة ، ثم ان من المحدثين من كان فصيحا ، ومنهم من كان عالما باللغة ، حجة فيها ، قال أبو عمرو الجرمي : " ما رأيت فقيها قط أفصح من عبد الوارث ، وكان حماد بن سلمة أفصح منه ".[1] وحماد هذا كان يقول : " من لحن في حديثي فقد كذب علي ".[2] وقال يونس : منه تعلمت العربية ".[3] و " كان اماما في العربية ، فصيحا مفوها ، مقرئا ، فقيها ، شديدا على المبتدعة ".[4] وكان الشافعي عالما باللغة ، رحل الى البادية وبقي فيها سبع عشرة سنة يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم و " كلامه في اللغة حجة ".[5] ورد الحديث لا يثبت أمام النقد العلمي لأن الرواة من العرب المقدمين الذين يجوز الاحتجاج بكلامهم الذي أنشأوه ، وعليه فان الاحتجاج بكلامهم الذي نسبوه الى النبي أو بالألفاظ التي نقلوا بها المعنى الذي فهموه عن النبي من باب أولى ، وعلى فرض أن بعضهم كانوا عجما فمن الأعاجم فصحاء وعلماء في اللغة والنحو لا يضارعون . وألفينا علماء القرنين الأولين يستشهدون بالحديث النبوي الشريف في اللغة والنحو ففي معجم " العين " للخليل[6] و " الكتاب " لسيبويه[7] و " معاني القرآن ".[8] للفراء أحاديث كثيرة . وجاء في قرار مجمع اللغة العربية في مصر ، بشأن الاحتجاج بالحديث الشريف ما يلي : " اختلف علماء العربية في الاحتجاج بالأحاديث النبوية لجواز روايتها بالمعنى ولكثرة الأعاجم في رواتها ، وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعضها في أحوال خاصة مبينة فيما يلي :[9]

1 — لا يحتج في العربية بحديث لا يوجد في الكتب المدونة في الصدر الأول كالكتب الصحاح الست فما قبلها .

---

(1) + (2) + (3) + (4) : أخبار النحويين / 43 ، ومعجم الأدباء 10/ 255 ، 257 .

(5) معجم الأدباء 17/ 284 ، والاقتراح / 24 .

(6) العين 1/ 62 ، 67 ، 72 ، 80 ، 105 ، 112 ، 119 ، 121 ، 122 ، 153 ، 166 ، 167 ، 182 ، 184 ، 185 ، 187 ، 298 ، 329 ، 348 .

(7) الكتاب 1/ 327 ، و 2/ 32 ، 393 ، و 3/ 258 ، و 4/ 116 .

(8) معاني القرآن 1/ 115 ، 116 ، 123 ، 280 ، 321 ، 416 ، 468 ...

(9) مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، مج 4/ 7 ، 1937 . وانظر مدرسة البصرة عبد الرحمن احمد / 259 ، وقارن دراسات في العربية وتاريخها ، محمد الخضر حسين / 35—36 وفي أصول النحو سعيد الافغاني / 42— 47 .

2 - يحتج بالحديث المدون في هذه الكتب الآنفة الذكر على الوجـــه الآتـــــي :

أ - الأحاديث المتواترة والمشهورة .

ب - الأحاديث التي تستعمل ألفاظها في العبادات .

جـ - الأحاديث التي تعد من جوامع الكلم .

د - كتب النبي صلى الله عليه وسلم .

هـ - الأحاديث المروية لبيان أنه كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كـــل قوم بلغتهم .

و - الأحاديث التي دونها من نشأ بين العرب الفصحاء .

ز - الأحاديث التي عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وابن سيرين .

3 - الأحاديث المروية من طرق متعددة وألفاظها واحدة .

والملاحظ أنه في القرن الثالث ظهرت الطبقة الثالثة من مدوني الحديـــث هذه الطبقة التي صنفت المصنفات الكثيرة ، وبلغت الغاية في جمع الأحاديث ، ففي ذلك القرن ظهرت المسانيد والكتب الستة المعروفة ، ولم يكن العلمـــاء يختلفون في أن الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، ويرون أن اللـــه أودع فيه الاقتدار على البيان والفصاحة ، ويرون أن فصاحته ، وبلاغته من ميزات نبوته فكلامه " هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجـــل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام ، وقلة عـــدد الكلام مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، ولم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمـــــه خطيب .... ولا يبطيء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع النـــاس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم " (1) .

---

(1) البيان والتبيين ، 2 / 17 - 18 .

وعقب المبرد على أحد الأحاديث النبوية بقوله : " وهذا كلام حسن ومعنى حسن "(1) . وقال يونس بن حبيب : " ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "(2) . وقال الجاحظ : " وسنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد ، مما صار مستعملا ومثلا سائرا ...."(3) ثم قال : " والذي يدلك على أن الله عزوجل قد خصه بالايجاز وقلة عدد اللفظ ، مع كثرة المعاني ، قوله صلى الله عليه وسلم " نصرت بالصبا ، وأعطيت جوامع الكلم "(4) . وعلى هذا المعنى حمل قوله صلى الله عليه وسلم : " نحن معاشر الأنبياء فينا بكء " أي قلة كلام وايجاز فيه . فقد بعثه الله في قوم يقادون من ألسنتهم ولهم المقامات المشهورة المقدمة في البيان والفصاحة ، وهذا يقتضي أن يكون لسان الذي يريد أن ينقادوا له ويخضعوا أفصح من ألسنتهم ، وكلامه أبلغ من كلامهم ، وقد استشهد علماء القرن الثالث بالحديث النبوي في اللغة وفي النحو والبلاغة(5) . وألفوا في غريب الحديث كتبا كثيرة (6) وألف المحدثون كثيرا في الكتب وكتبوا كثيرا من الفصول والمقالات في مسألة الاحتجاج بالحديث وفي بلاغته وأدبه(7) تغنينا عن الاطالة والزيادة .

---

(1) الكامل للمبرد ، 1/ 207 .
(2) البيان والتبيين ، 2 / 18 .
(3) نفسه 2 / 15 .
(4) البيان ، 2 / 28 ، والقرطين ، 1 / 67 ، 186 .
(5) الالفاظ لابن السكيت ، / 672 ، واصلاح المنطق ، / 11 ، 154 ، 161 ، 168 ، 169 ، 264 ، 303 ، 304 ، 351 ، 364 ، 423 ، القرطين 1 / 38 ، 60 ، 67 ، 81 ، 83 ، 89 ، 103 ، 186 ، 219 ، 226 . البيان والتبيين ، 2 / 15 — 28 . الكامل للمبرد ، 1/ 111 . وكان الجاحظ يقول : " خطب الرسول صلى الله عليه وسلم مدونة محفوظة ، مخلدة مشهورة ، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم " . البيان ، 1 / 201 .
(6) النهاية في غريب الحديث ، 1 / 3 وما بعدها
(7) دراسات في كتاب سيبويه ، 48 — 68 . أبو حيان النحوي ، 430 — 436 ، دراسات في العربية وتاريخها ، 166 — 180 ، المنطلقات التأسيسية ، 109 — 112 ، أصول النحو العربي ، 49 — 53 أدب الحديث النبوي ، والقرآن والحديث (علم الحديث والدراسات الأدبية)

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الا أن أدعو لأستاذي المرحوم : سيد شكري الخلوي الذي تولى رعاية البحث وتوجيهه حتى كاد يبلغ محلـــه بالرحمة ، والمغفرة ، وأن اعترف ما وسعتني الكلمات بالجميل والفضل الكبيريــن اللذين غمرني بهما أستاذي الدكتور جعفر بابك الباب الذي لم يأل جهــدا منذ أن حل بيننا في تقديم عونه وتوجيهه القيمين رغم كثرة انشغالاته بأعبـاء البحث والتدريس ، والاشراف . فله مني جزيل الشكر وجميل العرفان ، وهـــو كل ما أملك ، كما أتوجه بالشكر الجزيل الى كل من مد لي يد العـــون بالكلمة أو بالعمل ليخرج البحث على هذه الصورة التي أتمنى أنها حققــت ما صبوت اليــه .

ومـن اللـه التوفيـــق

- تمهيـــــد -

((الفصاحة اللغوية والبلاغية في بيئـة الاحتجـاج))

" ... كل عربي لم تتغير لغته فصيح
على مذهب قومه ، وانما يقال :
بنو فلان أفصح من بني فلان ، أي
أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش
على أن القرآن نزل بكل لغات العرب "

المفاضل ، المبرد ، / 113

اللغة هي اللسن ، وحدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.[1] هي تلك السلسلة الصوتية التي تتكون من الأصوات والمقاطع ، تنشأ عنها الكلمات فالجمل فالفقرات فالنصوص الخطابية العادية والأدبية ، بها ينقل بنو الانسان مشاعرهم وخواطرهم ، وتجاربهم وأفكارهم ، وبها يحققون غايا تهم وانسانيتهم ، وبها أبان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان ، ولولاها لوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها "[2] ، ولضاعت تجارب الأمم السالفة ، ولما كان حديث عن تقدم وتأخر أو تطور وتخلف .

والمتأمل في هذه الظاهرة العجيبة ، يجدها عبارة عن نظام أو مجموعة من القواعد التي تحدد في كل لغة استعمال الأصوات ، والأبنية اللفظية ، ووسائل التعبير النحوية والبلاغية ، فتشكل بذلك نوعا من التجريد المقرر في الذهن ، هو الأساس في عملية الاتصال ، والتواصل بين بني الانسان ، لهذا يتوجب أن يمتلك كل فرد هذا النظام - نظام لغة المجموعة اللغوية التي ينتمي اليها - حتى يستطيع فهم الآخرين وافهامهم أفكاره ، ونقل مشاعره اليهم . وهي بالتالي ملكة كسائر الملكات الفكرية والحرفية يمكن تحصيلها " لأن الملكة انما تحصل بالتعلم "[3] ، ينطبع عليها الفرد منذ طفولته ، وخلال مراحل نموه اللغوي واكتسابه لها عن طريق الاختبار ، فتكون لديه قدرة على العمل ، قدرة كامنة لا شعورية تحل ممكنات لم تتحقق قط كان من الممكن تحققها اذا واتتها الظروف والملابسات[4] وتجسد العملية الآنية التي يؤديها المتكلم ، بهدف صياغة جمله وتعابيره ، وتتجلى بشكل واضح في قدرة المتكلم على انتاج ، و فهم عدد غير متناه من الجمل لم يسبق له أن حققها ، ولا أن حققها غيره .

---

(1) الخصائص ابن جني ، 1 / 33 ، وانظر اللسان ابن منظور ، 15/ 252

(2) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ، 1

(3) المقدمة ابن خلدون / 1079

(4) منهج البحث في اللغة ، ماييه / 139 - 140

وعملية الاتصال لا يمكن أن تتحقق بغير عناصر ، أبرزها : خبر ، ومخبر ، ومخبَر ، وأداة الخبار هي اللغة .

ولغتنا العربية ليست بدعا بين لغات العالم في هذه الخصائص ، وقد شرفها الله تعالى بأن خصها بنزول خاتم الكتب السماوية بها : القرآن الكريم ، الذي أخذ الله عهدا على نفسه بحفظه فقال : " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (1) ، فقد قويت به ، وحكم عليها أن تبقى ما بقي ، وتكون أينما يكون بها بتلاء ، وبها يفهم ، وقد احتفظت بخصائصها المميزة لها حتى من أخواتها الساميات ، طوال تاريخها قبل الاسلام ، وأصبحت بعد ظهوره لغة عالمية مقدسة ، حتى عند غير العرب . واللغة العربية — كما قال أحد علمائنا — : " هي عبارة عما حفظ من كلام العرب ، ونقل عنهم من الألفاظ الدالة على المعاني " (2) . فهذا القول يحدد مصدرها باعتبار الأساليب والألفاظ الدالة على المعاني المحكية عن العرب الفصحاء ، بالاضافة الى ما قيس عليها ، وجرى على قوانينها وأساليبها في المخاطبات اليومية ، وفي الأدب من كلام العرب الذين جاءوا بعد صدر الاسلام ، وبعد الفتوحات ، ويأخذ حكم كلام العرب ويدخل فيه لأنه من الممكن تحققه واتت الظروف والملابسات فتحقق .

وعلى هذا الأساس يكون الكلام العربي الفصيح من حيث أبنيته الصوتية والصرفية وأبنيته النحوية والدلالية قسمين :

الأول : الكلام العربي المسموع : وهو الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح ، سواء منه الخارج عن حد القلة الى الكثرة ، أم الخارج عن حد الكثرة الى حد القلة . فالقرآن ذو أسانيد متواترة صحيحة ، والشعر الجاهلي والاسلامي يسمع من أفواه الفصحاء أو الرواة الثقات ، والأمثال يتداولها الناس كما رويت عن أعراب البادية الموثوق بهم (3) .

الثاني : كلام المولدين والمحدثين : وهو الذي قيس على القسم الأول ، فكل كلام لا يوصف بالفصاحة ما لم يكن موافقا للمسموع المحكي من كلام العرب

---

(1) الحجر الآية / 9 .
(2) شرح ديباجة القاموس للهوريني نصر الدين 1/16 .
(3) أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني ، / 31 .

الفصحاء ، في ألفاظه وأساليبه التركيبية والتعبيرية ، في أبنيته الصوتية والصرفية وقواعد النحو والبلاغة ، أما المعاني والاغراض فان لكل عصر سماته الفكرية والثقافية ، وليس السالف بأقدر من الخالف في التعبير عن حياته ومشكلاته، وتوجهاته الفكرية ، ومقاصده العلمية والأدبية ، اذا أتقن الوسيلة التبليغية اتقانا جيدا بل ان هذه السمات تمنح الأعمال الأدبية ، والعلمية خصوصيات أسلوبية تتميز بها عن غيرها .

ولقد بلغ العرب شأوا بعيدا في الفصاحة والبيان ، تفردوا فيه عن جميع الأمم في تلك الفترة ، مما جعل كل من جاء بعدهم يتوسم فيهم الأنموذجية، وقصب السبق الذي لا يدرك . قال خالد بن صفوان وهو ما هو في البلاغة : " كيف نجاريهم ، وانما نحكيهم ؟ أم كيف نسابقهم ، وانما نجري على ما سبق الينا من أعراقهم ؟ " ... لأن " ذلك لهم — على حد قول الجاحظ شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ،والسبك ، والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك الا في اليسير والشيء القليل " (1) . فكان تحدى القرآن لهم من جهة الفصاحة والبلاغة مبررا كما سنرى في قابل البحث .

ولقد انقادت اللغة لهم واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة ولفقد الخطأ من جميع الأمم (2) .
ويبدو لنا أن الخصال التي اجتمعت لها تتجلى في أربعة أطر متضافرة كلية ، كانت هي المعتمد الأساسي في الاستشهاد وفي التقعيد اللغوي للعربية من جهة ، وفي تعليل الاعجاز القرآني في تلك المرحلة من جهة أخرى ، وهذه الأطر هي :

1— الاطار الطبيعي النفسي .
2— الاطار الجغرافي (المكاني) .
3— الاطار التاريخي (الزماني) .
4— الاطار الذوقي البياني .

---

(1) الرسالة الشافية، للجرجاني (ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز) ، / 118 .
(2) البيان والتبيين، للجاحظ 1، / 163 .

وفيما يلي نفصل الحديث في هذه الأطر :

1 — **الاطار الطبيعي النفسي** : ونقصد به الملكة أو السليقة اللغوية .

فما هي السليقة في مفهوم القدامى ؟

بالرجوع الى بعض المعاجم، والكتب اللغوية العربية القديمة في مادة "سلق" نقرأ : " فلان يقرأ بسليقته أي بطبيعته لا عن تعليم ، ويقال للطبيعـــة : السليقة . والبدوي يقرأ بسليقته أي بطبعه ، ولغته ولم يتبع سنة القراءة . ومن قيل : فلان يقرأ بالسليقة أي بالفصاحة ، بطبعه الذي نشأ عليه ولغته ، والسليقي من الكلام ما لا يتعاهد اعرابه ، وهو في ذلك فصيح بليغ ، وهو يتكلم به البدوى بطبعه وان كان غيره من الكلام آثر وأحسن " (1)

ونقرأ : " الخليقة والطبيعة، والغريزة ، والنحيزة ، والسجية ، والسليقة ، وغيرها ، بمعنى واحد لأنها كلها ، على حد قول ابن جنى : " رياضــات تدريب واعتمادات وتهذيب " (2) .

فاللغة العربية كغيرها من اللغات في العالم تكتسب في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ، يولد الطفل مزودا بقدرة على امتلاك أي نظام لغوي أي مجمع يربى فيه ، ويتم اكتسابه للغته بالتدريب والمران خلال مراحل نموه الطبيعي ، وعبر تعرضه للغة محيطه بصورة من غير معلم ، كما يكتســب نظام من نظم الظواهر الاجتماعية لقومه .

يتعود الطفل النطق بحروف قومه، وألفاظهم الكائنة عنها ، وأقاويلهم المؤلفة عن ألفاظهم ، فلا يتعدى اعتيادهم، ولا ينطق لسانه بشيء غير ما تعـــودوا استعماله. فيمكن ذلك اعتياده له في نفسه ، وعلى لسانه حتى لا يعرف غيره ، وحتى يحفو لسانه عن كل لفظ سواها ، وعن كل أبنية لتلك الألفاظ غير الأبنية التي تمكنت فيه ، وعن كل تراكيب للعبارات والأقاويل سوى ما اعتاده بيـــن قومه ، فلا يطاوعه لسانه على أن ينطق بغير الفصيح من ألفاظ قومه . ثم يحفظ ما قد عمل به سلفه من الخطب والأشعار ، وما فيها من الأخبار . وهــذه

---

(1) انظر أدب الكاتب، ابن قتيبة ، / 312 . وكتاب الألفاظ، لابن السكيت ، / 98 . تهذيب اللغة، الأزهري 8/403— 404 . معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب ، / 245 . واللسان مادة سلق .

(2) الخصائص، ابن جنى ، 1/113—118 .

التي تمكنت على لسانه وفي نفسه ، كما تمكنت على ألسنة أفراد مجتمعه وفي أنفسهم بالعادة على الحال التي أخذها فيها من بيئته، ومن أفراد مجتمعه الذين أخذوا ذلك عمن سلف منهم ، وأولئك أيضا عمن سلف على الأحوال التي يسمعها الخلف عن السلف ، فيأخذها ويتعودها مع من نشأه عليها [1]. وذلك أن يراه بحال ما في كلامه فيتشبه به في ذلك ، ويفعل فعله، فتحصل له القوة على الكلام بالتقليد والمران ، أي أنه يسمع أفراد قومه يتكلمون بأصوات وألفاظ وتراكيب ، فتعود منها للذات صفة ، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد ، ويتكرر في كل لحظة وحين ، واستعماله لها يتكرر كذلك ، فتكون حالا ، ثم يزيد التكرار وارشاد من حوله حتى تتضح معالمها، وتكتمل في ذهنه فتكون قدرة كامنة لا شعورية وصفة راسخة وهيئة قارة عفوية وكلية وابداعية ، تظهر في المواقف الخطابية اليومية ، وفي أشعاره — اذا كان شاعرا — مجسدة ، ولا يكون المعبر عن مقصده بلفظ فصيح صحيح فصيحا الا اذا كانت القدرة على تحريك آليات التعبير اللاشعورية كذلك [2]. أي الا اذا كانت معرفة ضمنية ثابتة ينتج ، ويفهم بها عددا غير متناه من الجمل والعبارات . لأن مدار كلامه على معاني النحو، وهي محدودة ومضبوطة ، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون في الكلام ، وهذه " الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية تجد لها ازديادا بعدها " [3] . وعند تحريك تلك الآليات يأتي الكلام جيدا جميلا حينا، ويأتي قبيحا حينا آخر ، غير متعهد اعرابه وجماله ، يلقي به على عواهنه ، وتكون تلك الألفاظ التي يسمعها من أفراد قومه هي لغتهم ، وما خالف ذلك فهو الأعجمي واللحن من ألفاظهم ويكون غير فصيح ، وعن ذلك اللسان العربي الأصلي أبعد [4] .

وفي هذه الحال يستنكف من سماع أو اجراء غير لغته على لسانه ، وتتسم لغته بالأصالة وبالنقاء من الدخيل، والطارئ مما يجعلها أصلح مادة يمكن اعتمادها في التقعيد اللغوي ، وعلى هذه الصورة تتناقلها الأجيال خلفا عن

(1) الحروف للفارابي ، / 142 ، وانظر المقدمة، ابن خلدون ، / 1056—1077 .

(2) المقدمة، ابن خلدون ، / 1072 ، ومجلة اللسانيات / مجلد، 1، 1 / 7 ، ودلالة الألفاظ، ابراهيم أنيس، / 49 ، وفي فلسفة اللغة، كمال الحاج ، / 136 ، والألسنة مبادؤها وأعلامها ، ميشال زكريا، / 30، 48، 61، 26—262 ، وأثر النحاة في البحث البلاغي عبد القادر حسين، / 13 .

(3) دلائل الاعجاز، الجرجاني ، / 69 . (4) الحروف، للفارابي ، / 141—145 .

سلف. و " ليس أحد من العرب الفصحاء الا يقول أنه يحكي كلام أبيه وسلفه. ويتوارثونه آخر عن أول وتابع عن متبع (1) " يصونه المجتمع والبيئة المتواجد فيهما من الانحراف والزيغ ، بتنبيهه الى الخطأ كلما أخل بألفاظ لغته وأساليب التعبير فيها . فهذا ابن جني قد حضر جماعة من العرب فحدث أحدهم ، فذكر في كلامه فلاة واسعة ، فقال : يحير فيها الطرف فأخذ أحدهم يلقنه سرا من الجماعة بينه وبينه ، فيقول له : يحار ، يحار " ثم عقب ابن جني على هذا بقوله : " ألا ترى الى هداية بعضهم لبعض وتنبيهه اياه على الصواب " (2) .

ولم يكن العلماء الأقدمون يعتقدون أن الفصاحة العربية يرثها العربي في لبان أمه ، وفي دمه ، أو أنها مرتبطة بالبداوة كما ادعى عليهم بعض المحدثين (3) . اذ لا شيء يثبت علميا أن هناك علاقة سببية بين العرق واللسان . فكل ولد يستطيع أن يكتسب لسان أي قوم حتى يصبح هذا اللسان لغة له ، شريطة أن يكون ذلك فور ولادته وأن يعيش فيهم طويلا . قال الجاحظ : " ان السندي صاحب الخربة اذا صار الى البدو ، وهو طفل خرج أفصح من ابن مهدية ومن أبي مطرف الغنوي " (4) . أما اذا صار المرء وقد تمكنت على لسانه لغة أخرى ، فان ذلك المرء لا يستطيع أن يجري اللغة الجديدة دون أن تظهر آثار اللغة الأولى على لسانه ، وفي منطقه . " ألا ترى أن السندي اذا جلب كبيرا فانه لا يستطيع الا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام في عليا تميم ، وفي سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاما (5) .

فلا مجال للشك والحال هذه في أن البادية — من حيث هي موطن هذا العربي السليقي لا من حيث هي بادية — كانت مرتعا للسليقة العربية ، ومنبعا ثرا للفصاحة السليمة مما قد يشوبها من الخارج ، يرتوي منه الناشيء فيها وبين أهلها ، فاذا هي تجري على لسانه ، بغير أن يراعي اعرابها ولا أن يتكلف

---

(1) الخصائص ، ابن جني ، 2/ 29 ، وانظر الصاحبي ، ابن فارس ، 78 .
(2) الخصائص ، ابن جني ، 2/ 27 ، (3) انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ، تمام حسان/ 69 و 82 ، من أسرار العربية ، 20/ 21 ، ودلالة الألفاظ ، ابراهيم أنيس / 75 ، ونظرية النظم عند عبد القادر الجرجاني ، درويش الجندي / 65 ، تقويم الفكر النحوي أبو المكارم علي / 159 ، والمنطلقات التاسيسية والفنية للنحو العربي ، عفيف دمشقية / 13
(4) الحيوان ، الجاحظ 3/ 434 ، (5) نفسه 1/ 70 .

فيها التحسين والتدبيج . فاذا قدر له أن غادر ذلك الوسط ، وخالط غير الفصحاء في لغته أسرعت اليه العجمة والخطأ ، وذهبت سليقيته ، وكان لسانه مطاوعا له على النطق بأي حرف، وبأي لفظ ،وبأي قول شاء سوى حروف وألفاظ وأقاويل لغته الأولى ، ومن لا يؤمن عليه أن يُجري على لسانه ما هو خلن عن عادات مجتمعه المتمكنة فيه يكون جديرا بأن لا تؤخذ منه اللغة .

يعبر السليقي عن أغراضه وخواطره في استرسال كلامه يرمي به على عواهنه جيده على رديئه من غير تعمد اعراب ولا تجنب لحن وفي غير تفريط ، وتخليط يحتاط ويقتاس [1] . قال عمار الكلبي وقد عيب عليه بيت من شعره ، فامتعض لذلك وتهجم على العلماء والمتكلفين للاعراب :

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على اعرابهم طبعوا

وقال آخر :

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب [2]

فشتان بين المتكلف الذي يتعلم النحو والصرف خشية الوقوع في الزلل واللحن ، والسليقي الذي يقيه طبعه ذلك .

والمتأمل فيما سقناه حول السليقة يدرك ارتباط هذه الأخيرة بالعزلة الثقافية والاجتماعية ، وحتى الاقتصادية التي كان العرب يحيونها في شبه جزيرتهم الواسعة ، قبل الاسلام ، بعيدين عن التأثيرات الأجنبية في شتى أشكالها وضروبها ، وعن الأمم والشعوب المجاورة . هذه العزلة التي حفظت الفصاحة السليقية مدة طويلة يتوارثها الابن عن الأب ، والأب عن أبيه ، وهكذا .

وهذا الربط الوثيق بين العزلة ،والسليقة هو الذي انطلق منه علماؤنا اللغويون الأسبقون كأساس من أسسهم العلمية في التحريات الميدانية .

فقد ثبت لديهم أن هذه العزلة الطويلة سبب سلامة الفطرة العربية ، وفصاحة العرب . وقد حاول الغزاة الطامعون اقتحام جزيرتهم والتوغل فيها ،

---

(1) الخصائص،ابن جني ، 1/ 24 و 244

(2) اللسان مادة سلق. والجزانة ، 1/ 112 .وانظر معجم الأدباء ، الحموي ، 12/ 103 ـ 104.

واخضاعهم للنفوذ ، فلم يفلحوا لطبيعة بيئتهم الصعبة ، وشح عطائها ، ووعورة مسالكها ، وعسرة السير في فلواتها وفيافيها ، فضلا عن ذود أهلها عنها ، وعن اعتزازهم بأصالتهم ، وقوميتهم ومثلهم العليا . والى هذه العزلة وهذا الاحساس يرجع عدم انتشار الكتابة بينهم فـ " لم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم الا أهل الحيرة ومن تعلم منهم [1] ".

ولم يزل العرب ينطقون على سجيتهم وسليقتهم قبل الاسلام ، وفي صدره لتوفر العوامل البيئية والنفسية السابقة ، وكان اللسان العربي محروسا ، لا يتداخله الخلل ، ولا يتطرق اليه اللحن والزلل ينطق العربي لغته سليمة فصيحة دون معرفة هذه القواعد الجافة التي استحدثت لضبط النطق ، ولتعليل الظواهر اللغوية فيما بعد ، يلجأ اليها غير الفصحاء لتقويم ألسنتهم حين انتشر الاسلام واختلط العرب بغيرهم ، وقل الاهتمام باللغة ، والشعر فسرى على الألسنة الخطأ والتحريف .

وامتلاك الفصحاء هذه القدرة الجبلية لا يدعونا الى التسوية بينهم في الكلام من حيث الجودة ، والافصاح عن مكنونات أنفسهم والا تساوى الشاعر المفلق والخطيب المصقع بالبسيط العادي وبالعي الألكن ، والا ما كان لتحدي القرآن الكريم لهم مغزى فقد نزل بلسان العرب : أصواته ، ومقاطعه ، وكلماته ، وتراكيبه ، واعرابه ، وقوانين بلاغته بأفصح الكيفيات الأدائية ، وأبينها ، وأجمعها لصفات الفصاحة ، وقوة البيان حتى انتهى الى حيث انقطعت الأطماع ، وحسرت الظنون ، وسقطت القوى ، واستوت الأقدام في العجز ، وحتى قهر من البلغاء الفصحاء القوي والقدر ، وقيد الخواطر والفكر [2] .

2 — الاطار الجغرافي (المكاني) : لقد كان العرب — كما قلنا — معتزين بقوميتهم ، وأصالتهم ، يبدون مقاومة عنيفة لكل طارئ بغية المحافظة على كيانهم متماسكين ، يحترم صغيرهم وكبيرهم الأعراف المجتمعية التي يتلقاها الخلف عن السلف . فهذا ابن المهدي قيل له : كيف تقول : ليس الطيبُ الا المسكُ (بالرفع) ؟ فقال لممتحنيه : أتأمرني بالكذب على كبرة سني ؟

---

(1) نقد النثر ، ابن وهب (المنسوب لقدامة بن جعفر) ص/ 79 .
(2) دلائل الاعجاز ، الجرجاني / ص ص 29 ، 32 .

فأين الجادي ؟ وأين كذا ؟ وأين نبتة الابل الصادرة ؟ فقيل له : ليس الشراب الا العسل ، فقال : فما يصنع سودان هجر ؟ما لهم شراب غير هذا التمر ، فعوين من جهة أخرى ، فقيل له : ليس ملاك الأمر الا طاعة الله والعمل بها ، فقال : ليس هذا لحني ولا لحن قومي (أي الرفع) . وهذا أبو المنتجع عوين في النصب في : ليس الطيب الا المسك . وجوهد فيه ، فلم ينصب وأبى الا الرفع (1) . ثم ان أهل جبلي عكاد باقون على اللغة العربية الفصيحة الى القرن السابع ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحتهم ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ، ولا يخرجون منه ، وأنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفا على لسانهم (2) .

لهذه الاعتبارات السالفة الذكر تحرى اللغويون العرب ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، أن يأخذوا اللغة العربية ، الأصيلة السليمة ألفاظها ، وأبنيتها اللفظية ، وأساليبها التعبيرية الا عمن توسموا فيه هذه الخصائص النفسية والبيئية ، الا عن الأعراب الأقحاح الذين يسكنون البوادي : كبوادي نجد وتهامةوالحجاز . وهم قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل ، فان هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب ، وأما الباقون فلم يؤخذ علهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم المطيفة بهم من الحبشة ، والهند ، والفرس ، والسريانيين ، وأهل الشام ، وأهل مصر (3) .

فهذا الحرص الشديد والحيطة المتناهية جعلا العلماء اللغويين لا يأخذون عن كل من أحسوا فيهم اختلاطا بالأمم الأخرى أو تغييرا في لغتهم ، ومع هذا فان هذه الدقة لم تلق قبولا عند بعض اللغويين التاليين ، فوسعوا

---

1) انظر الخصائص ابن جني 1/ 239 وذيل الأمالي للقالي 3/ 39 ومعجم الأدباء للحموي 12/ 103 .

2) معجم البلدان للحموي 3/ 707 وتاج العروس للزبيدي 2/ 429 .

3) الحروف للفارابي / 147 والمزهر للسيوطي 1/ 211 - 212 والاقتراح له أيضا 19 ، 23 - 24 . وذكر السيوطي أن "الألفاظ والحروف" كتاب واحد وقد حقق محسن مهدي : الالفاظ المستعملة في المنطق " مستقلا عن كتاب " الحروف " ويبدو أنهما كانا كتابا واحدا ثم فصل بينهما الرواة كما غيروا في النص المذكور . وقد عزاه د . صبحي الصالح (دراسات في فقه اللغة / 112) الى اللغوي المشهور الجوهري صاحب الصحاح " . وهذا وهم منه لأن كتابي " الحروف " و " الالفاظ " فلسفيان ، ولم ينسب للجوهري مثل هذه المصنفات .

دائرة الأخذ لتشمل غير هذه القبائل . فهذا ابن مالك يستشهد بلخم ، وخزاعة ، وغسان ، ويستنكر أبو حيان الأندلسي هذا الصنيع فيقول : " ليس ذلك في عادة أئمة هذا الشأن "(1) .

وهذا التوسيع والتضييق في الاطار الجغرافي هدى ابن خلدون الى نظرة تكاد تكون شاملة في الموروث اللغوي وفي آراء العلماء في لغات العرب ، فجمع شتاتها في عبارة أكثر حصانة ، وأقرب الى الوضوح . فكانت صياغته لها كالتالي : " كانت قريش أفصح اللغات العربية ، وأحرصها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم مااكتنفهم من ثقيف وهذيل ، وخزاعة ، وبني كنانة ، وغطفان ، وبني أسد ، وبني تميم ، وأما ما بعد عنهم من ربيعة ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، واياد ، وقضاعة ، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس ، والروم ، والحبشة . فلم تكن لغتهم تامة الملكة لمخالطتهم الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم عن قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية "(2) .

فقد تأمل العلماء الأسبقون شبه جزيرة العرب فرأوا فيها سكان بوادي (أهل البادية) وفيها سكان الأمصار (الحضر والمدن) فتعلموا لغتهم ، والفصيح منها من سكان البوادي منهم دون أهل الحضر والمدر ، ثم من سكان البوادي من كان أوسط بلادهم ، ومن أشدهم توحشا وجفاء ، وأبعدهم اذعانا للغير وانقيادا وتسليما للدخيل ، وأكثرهم تمثيلا للعادات والتقاليد المتوارثة أبا عن جد ، فأخذوا من الوسط معظم اللغة ، ثم من سكان البوادي ممن يلي الوسط بعضها ، ولم يأخذوا ممن كان مجاورا للأعاجم مختلطا بهم ، لعدم محافظته على اللغة صحيحة كما تلقاها الأسلاف ، ولو لم يكن فيهم سكان البوادي (أي كانوا حضرا كلهم) ، لأخذت اللغة من أوسطهم مسكنا تماشيا مع منهجهم الذي يقتضي أن كل ظاهرة أصيلة تكون عنيفة بارزة في الوسط باعتباره أبعد عن التأثيرات الطارئة .

وعليه فان اللغويين العرب لم يربطوا الفصاحة والسليقة الصحيحة بالبادية ،

---

(1) الاقتراح / 20 .
(2) المقدمة ابن خلدون / 1072 .

وبالبدو ذاتهم كما ادعا بعض المحدثين (1) لأنه لا شك في عروبة القبائل التي ضرب عنها صفحا ، فهي عربية العرق والدم ، الا أن مجاورتها للأعاجم جرت عليها ذلك . وكلما كان العربي — على هذا الأساس — ألصق بالبادية كانت فصاحته أسلم . وكلما كان أبعد عن التأثيرات الأجنبية كانت ملكته أو سليقته أفصح ، وأصح ، وكان موضع ثقة وموردا صحيحا .

وفي صدر الاسلام ، وفي عهد الفتوحات اختلط العرب في الأمصار ، والحواضر العربية بغيرهم من الأمم الداخلة في الاسلام اختلاطا واسعا حتى عدت بعض القبائل التي كانت تتمثل فيها الفصاحة مثار شك وتحفظ . فهذه قريش وقد كانت لها أفصح اللغات العربية ، وأحصنها لبعدها عن بلاد العجم لم تؤخذ منها اللغة لأن اللغويين صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (2) ولو كان في نفوسهم ميل أو تعاطف مع لغة دون أخرى — كما ادعا بعض المحدثين (3) — بغير اعتبار الأفصح ، وبغير اعتماد البعد والعزلة لكانت لغة قريش أحرى بأن تؤخذ منها اللغة ، اذ فيها كان مولد محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيها تربى وترعرع ، وبين ظهرانيها بعث رسولا .

وزيد بن كثوة قد كان فصيحا ثقة يحتج بلغته في أهله ، فقدم البصرة فتغيرت فصاحته ، فبينه يوم قدم ، وبينه يوم مات بون بعيد على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة ، وأول موضع العجمة ، وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين ، ولم يعد يوثق به ولا بلغته (4) ولهذا كان اللغويون اذا وجدوا المرء يفهم العجمة والخطأ بهزجوه ولم يأخذوا عنه اللغة .

واللغة العربية التي يتكلمها جمهور العرب ومعظمهم كانت لغة واحدة متفقا على أصولها ، اتفقت فيها اللغة اليمنية الشمالية مع العدنانية الجنوبية في نظام لغوي واحد مما جعلها مفهومة لدى جميع العرب مجسدة في التخاطب اليومي لتبادل منافع الحياة ، وفي الشعر والخطب والأمثال ، وفي لغة قريش

---

(1) انظر من أسرار العربية / 27 وفي اللهجات العربية 224 ابراهيم أنيس . ونظرية عبد القاهر في النظم ، درويش الجندي / 65 ، وأصول النحو لسعيد الافغاني / 18. واللهجات العربية في التراث/ احمد علم الدين الجندي 1 / 181 .

(2) الاقتراح / 24 والمزهر 1 / 212 للسيوطي . (3) اللهجات العربية في التراث ، احمد علم الدين الجندي 1 / 117 . (4) البيان والتبيين الجاحظ 1 / 163 .

قال الأزهري : " وجعل الله عزوجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم عربيا لأنه نسبه الى العرب الذين أنزله بلسانهم وصفة كلامهم الذي نشأوا عليه ، وجبلوا على النطق به ، وهم النبي والمهاجرين والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب في باديتها وقراها "[1] ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته .

سقنا هذا الكلام في هذا الموضع ,لأننا رأينا أسطورة اللغة المشتركة التي حبكتها معامل المستشرقين قد دبجتها أبحاث بعض العرب المحدثين فانتشرت فيهم[2] .

فلغة القرآن وان كانت من مصدر الهي فانها جاءت " بلسان عربي مبين" أي أن أحرفه وألفاظه وأبنيته الصوتية والصرفية ، وأبنيته النحوية والبلاغية ليست خارجة عن المتعارف بين العرب. و " لم يقل الله قرشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل (قريش، عدنان ، وقحطان ، وربيعة ، ومضر ...) تناولا واحدا[3]. وهذا لا يعني أن لهجات العرب متساوية من حيث القدرة على البيان والافصاح ، أو أنها ما دام القرآن نزل بلسانها في درجة واحدة في استعمال الأفصح وفي القدرة على البيان . ولا يعني كذلك انتفاء مظاهر السلامة اللغوية على أي قبيلة عربية لم تتأثر بالأجانب ولم تتغير لغتها ، ولا اعتبار لاعتماد اللغويين الأقدمين ما استطاعوا الأفصح والأشهر من اللغات الا في التقعيد اللغوي - كما سنرى في فصل القياس والتوليد من الباب الأول - على أن يعدوا ما خرج عن هذا لغات ضيقة الاطار الجغرافي وغير شائعة في استعمالات الكافة . قيل لعيسى بن عمر الثقفي بعد أن ألف أحد كتبه : أخبرنا عن هذا الذي وضعت أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا ، فقيل له : فمن تكلم بخلافك واحتذى ما كانت العرب تتكلم به ، أو تراه مخطئا ؟ قال : لا ، أسمي ما خالفني وشذ

---

(1) تهذيب اللغة الأزهري 2/ 361 .
(2) انظر تاريخ الادب العربي ، بلاشير 1/ 36 . المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، 8/ 627 واللغة فندريس / 341 ، والتعريب وتنسيقه ، الصيادي / 522-523 ، البحث اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث / 330 - 331 . (3) الجامع لاحكام القرآن القرطبي 1/ 44 وأنظر اللسان العربي المبين د . جعفر دك الباب مجلة التراث اللغوي ، ع 4 ، س 3 ، 1403 ، ص 150

عن الأكثر لغات [1].

وعليه فكل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه [2]. ويزيدنا تمسكا بهذا ذلك الباب الذي عقده ابن جني في خصائصه بعنوان: " باب اختلاف اللغات وكلها حجة " [3] اذا ثبت أنها من لغات العرب الخلص الموثوق بهم، وبعربيتهم، الذين لم يسر على ألسنتهم الانحراف، ولم يتأثروا بغيرهم من الأمم الأعجمية، وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب، وغير مخطئ، وان كان غير ما جاء به خيرا منه، بغير اعتماد قلته أو كثرته وشيوعه.

فاذا نحن نظرنا في كتاب سيبويه، وهو ما هو في النحو واللغة، قدوة النحويين، وشواهده تعتبر من أصح الشواهد وأوثقها فانا نجد فيه أسماء شعراء استشهد بأشعارهم وهم من قبائل قيل انها لم تؤخذ عنها اللغة مثل [4]: الأخطل، وابن الأيهم، وعمير بن الأشبيم القطامي من تغلب بن وائل، وعدي بن الرقاع من قضاعة، وأبي دواد الايادي من اياد الذي قال فيه وفي عدي بن زيد، الأصمعي: " والعرب لا تروي شعر أبي دواد وعدي بن زيد، وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية "، وقد كان عدي يتقن الفارسية ويعمل كاتبا في ديوان كسرى [5]. ونجد في كتاب سيبويه أيضا مثل قوله: " وقال رجل من خثعم " و" قال رجل من بجيلة " و" مثله قول رجل من عمان " وهذه من القبائل التي قيل: انها لم تؤخذ منها بل نجده استشهد في أكثر من موضع في كتابه بأشعار عدى بن زيد العبادي وهو أوضح نموذج لمخالطة غير العرب.

وهذا يدلنا على أن اللغة انما أخذت من المناطق البعيدة عن التأثيرات الأجنبية في شبه جزيرة العرب، وان كل من سلمت لغته وكان ثقة فصيحا

---

1) أخبار النحويين السيرافي / 26، وطبقات النحويين الزبيدي / 39، 45، وأنباه الرواة القفطي 2/ 375، ونزهة الألباء الانباري / 59.

(2) الفاضل للمبرد / 113. (3) الخصائص ابن جني 2/ 10 وما بعدها.

(4) الكتاب لسيبويه 1/ 140، 198، و2/ 312، 318، و3/ 74، 121، و4/ 359 وكذا فعل الخليل قبله في العين 1/ 63، 84، 194

(5) انظر طبقات فحول الشعراء ابن سلام 1/ 140 والشعر والشعراء ابن قتيبة / 34.

أخذت عنه اللغة وهذا واضح من عبارات سيبويه في كتابه ، مثل : "وسمعنا الثقة من العرب ... " (1) . " والعرب الموثوق بهم " (2) . و " لم يسمعه من ثقة " (3) ومن عبارات الخليل في معجمه كذلك (4) . وانما معظم القبائل التي كثر الأخذ عنها اعتبرت أفصح وأسلم لاقامة جمهورها في بوادي الجزيرة، وصحرائها التي كانت مقصد اللغويين لجمع اللغة من ساكنيها ، وممن يقرب منهم أو يدخل فيهم . وهذا ما يشير اليه قول الفارابي السابق بصريح العبارة : " فان هؤلاء هم معظم من نقل عنهم لسان العرب " وليس هم المقتصر عليهم ، ويدعمه ما نجده في القرآن الكريم ،وفي الكتب النحوية واللغوية من لغات ، وشواهد كثيرة لقبائل وشعراء آخرين ، فضلا عن شبه التناقض بين نصي الفارابي وابن خلدون ، فثقيف من القبائل المضروب عنها في نص الأول، ومن المعتمد عليها في الثاني ، وهو المرجح لقول الفارابي الآنف الذكر ، ولقول التهانوي : " واللغات السبع المعروفة بفصاحتها هي لغات : قريش، وطئ ، وهوازن ، وأهل يمن ، وثقيف ، وهذيل ، وبني تميم " (5) . وذكر ابن خلدون خزاعة ، ولم يذكرها الفارابي وقد قيل : ان القرآن نزل بلسان الكعبيين : كعب بن لؤى جد قريش ، وكعب بن عمر جد خزاعة ، لأن دارهما كانت واحدة بأنجاد مكة قريبة من قريش ، وقد ردها أبو حيان على ابن مالك كما رأينا سابقا (6) .

ومهما يكن هذا الاختلاف فانه لم يثبت أن اللغويين تركوا قبيلة أو لغة لم يرووها خلافا لما ذهب اليه بعض المحدثين (7) وكل ما هنالك أنه كثر ذكرهم لهذه القبائل السابقة ، وقل ذكرهم لباقي القبائل . فجمعوا كل ما

---

1) الكتاب سيبويه 1/ 331 (2) نفسه 1/ 369 (3) نفسه 1/ 231 .
4) العين الخليل 1/ 54 . (5) كشاف اصطلاحات الفنون التهانوي / 124.
6) ص من هذا البحث.وانظر ما أحصاه الدكتور أحمد علم الدين الجندي في بحثه : اللهجات العربية في التراث 1/ 165-173من قبائل عربية ذكرت في شرح السيرافي على كتاب سيبويه . وفي الكتاب لسيبويه ،وكتاب النوادر لابن دريد ، وشرح المفصل لابن يعيش وجزانة الادب للبغدادي ،واصلاح المنطق لابن السكيت ،ولسان العرب لابن منظور، ومختصر شواذ القراءات لابن خالوية ،والمحتسب لابن جنى ،وابراز المعاني لابي شامة والامالي للقالي.
(7) اللهجات العربية في التراث 1/ 58 ، والبحث اللغوي عند العرب حتي القرن الثالث ،آل يلسين ، / 335 .

استطاعوا جمعه ونصوا — حسب منهجهم وما وصل اليهم علمهم واحاطتهم ، وما توجبه مقاييس كلام العرب الكلية — على الفصيح الشائع ، على ألسنة الكافة فقبلوه ، وبنوا عليه ، وعلى الضعيف القليل المخالف للكثرة في بابه فحفظوه ، ورأوه حجة في ذاته لا يقاس عليه غيره ، لأنه لم يرق الى مستوى الاستشهاد لبناء القاعدة عليه ، واستشهد به بعضهم على شذوذه وقلته كابن مالك .

وقد أهمل اللغويون في التقعيد لغة عدن لأنها كانت " مولدة وفي بعضهم لوك وحماقلا الا من تأدب " (1). وكذا " مدينة صنعاء ، لأنها كانت مختلفة اللغات ، واللهجات لكل بقعة منها لغة ، ومن يصاقب شعوبا يخالف الجميع " (2) ولم تؤخذ اللغة من اليمنيين الجنوبيين لأن لغتهم بعيدة من لغة ابن نزار ، ومخالفة لها في نحوها لأنها لغة قديمة وليست لهم فصاحة القبائل العربية الأخرى . فثب بالحميرية تعني : اجلس ، وعند غيرهم تعني : اقفز ، ويقفون على الهاء في آخر الاسم بالتاء فالعربية ينطقونها : عربيت (3) . ومن ثم قال أبو عمرو بن العلاء في هذا الشأن : " ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا " (4) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " كان الشعر علم القوم ، ولم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت ، والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب كثيره ... وقال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .. وقد روي في هذا المعنى كثير (5) .

---

(1) صفة جزيرة العرب ، الهمذاني ص/ 134 .
(2) نفسه ص/ 135 — 136 .
(3) الخصائص ابن جني 1/ 385 — 390 و 2/ 28 .
(4) طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام 1/ 11
(5) نفسه 1/ 24 — 25 ، والخصائص 1/ 386 — 387 .

فاللغويون هم الذين نقلوا هذا، ورووه وتناقلوه وشعروا به ، وأعلمونا اياه ، وهو خارج عن اراداتهم ، وليسوا مكلفين بالبحث عنه ما داموا أيسوا من وجـــوده، وعن وجود من يعلمه ، ودلت عليه كلمات وأساليب لا يجدون لها تفسيرا (1).
وقد روي عن ابراهيم : أن المسيح : هو الصديق ،قال أبو بكر : واللغويون لا يعرفون هذا ، قال : ولعل هذا كان مستعملا في بعض الأزمان فدرس فيما درس من الكلام ، وقال الكسائي : قد درس من كلام العرب شيء كثير (2)

فنحن نستطيع أن نقول : ان ألفاظ هذه العبارة أو تلك يعرفهـــا العرب اذا صحت عندنا عبارة أو بيت شعر أو مثال من الأمثال ، ولا نستطيع أن ننفي عن العرب معرفة هذا اللفظ أو ذاك،ولا هذا المعنى أو ذاك اذا لم نجد ، لأنه قد يكون لغة قديمة جرت على لسان الفصيح الثقة،أو أن فصاحته ولغته جادت وقويت فارتجل أو ولد ، ولو لم يذكر لنا اللغويون هذه القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة لما احتججنا عليهم الآن ، ولما كنا نلومهم باهمالها ، والاعراض عنها . لكن سعيهم نحو الحقيقة والتثبت من أســـاليبهم الاستقرائية ، والتقعيدية لكلام العرب هداهم الى ذكر تلك القبائل ليدللـــوا ويعللوا لمنهجهم ، فتركوا لنا تراثا لغويا كبيرا من المفردات واللغات القبليـة المختلفة ، والأصول اللغوية العامة والقواعد النحوية الضابطة تعج بها بطـون معاجمنا اللغوية،ومصادرنا العلمية بما فيها كتب القراءات والكتب الفقهية .

3 — الاطار التاريخي (الزماني) : كان سريان الألفاظ الدخيلة الـى اللغة ،وعدم اتقان الداخلين في الاسلام لها ايذانا خطيرا بتقهقر الفصاحـة السليقية ، وبداية انحسارها على الألسنة ،وأخذ الخطأ والتحريف يتفشيـان حتى انعدمت السليقة أو كادت،بحيث لم يعد من الميسور مقابلة فصيح يستأنس به للاستشهاد اللغوي ، واستمرت البادية في المقاومة الى أن نفدت وسائـــل دفاعها في أواخر القرن الرابع الهجري على أبعد تقدير . فهال هذا التحول والتدهور المهولين العلماء فهبوا الى استنباط علم يضبطون قواعد اللغة ليسهل تعلمها على غير أهل السليقة العربية ، وليسهل الرجوع اليها متى دعت الحاجة

---

(1) أصالة اللغة العربية وعلومها . د أحمد رفيدة مجلة الفكر المعاصر ، ع 26، س 4 ، 1982 ص 18
(2) تهذيب اللغة الأزهري 4/ 347 .

الى ذلك. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين الى سنة مائتين للهجرة . وكان الذين تولوا ذلك من بين أمصار العرب أهل الكوفة والبصرة وبذلك حددت فترة الاحتجاج مما دعا الى تصنيف الشعراء أو الأدباء الذين عاشوا هذه الفترة، وما بعدها باعتبار الفصاحة السليقية والمحافظة عليها الى أربع طبقات [1] :

الأولى : وتضم الشعراء الجاهليين .

الثانية : وتضم الشعراء المخضرمين .

الثالثة : وتضم شعراء صدر الاسلام الذين لم يدركوا الجاهلية .

الرابعة : وتضم الشعراء المحدثين أو المولدين .

والطبقتان الأوليان لا خلاف في الاستشهاد بشعرهما وكلامهما، وتبنى عليهما قواعد النحو والصرف كما تبنى عليهما قواعد البلاغة العربية بدون تحفظ.

والطبقة الثالثة ، ذهب اللغويون الى صحة الاستشهاد بشعرها وكلامها الا من شذ عنهم ، وذلك لعلمه بما دخل الكلام في الزمان المتأخر من الخلل والاستحالة عن سمته ، ونجره الأول ، وعن سنخ طبعه الأقدم ، فاختل منه أشياء كثيرة . فقد كان أبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبي اسحاق ، والحسن البصري ، وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق ، والكميت ، وذا الرمة وأضرابهم ، وكانوا يعدونهم من المولدين لمعاصرتهم ، والمعاصرة حجاب . فنعتوهم بالمولدين والمحدثين، ووصفوا كلامهم وشعرهم بهذه النعوت ، رغم أنهم بلغوا في بعض انتاجهم جدا بعيدا باللغة والبيان ، فأحيوا دارسها ، وميتها حتى قيل : ان الفرزدق أحيا ثلثي اللغة الى ما هنالك من غزل رقيق، ووصف جيد في شعرهم ، والى ما أحيوه من الأساليب الأدبية الرصينة العالية ، زيادة على أنها آنست المجتمع اللغوي ببعض الألفاظ الغريبة بصقلها في الاستعمال ، بغض النظر عما أشاعوه من تجاوز لحدود الأدب والأخلاق والعرض والشرع [2]. قال يونس : لولا الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس [3]. وحتى أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو المتشدد الضارب على هذا المحدث صفحا

---

(1) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وبيان اعجاز القرآن ، للخطابي/ 46، والعمدة ابن رشيق 1/ ، والخزانة للبغدادي،1/ 20 — 21 .

(2) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية والاسلام، محمد محمد حسين،/ 66 .

(3) البيان والتبيين ، الجاحظ ، 1/ 321 .

وصفاقا غليظا كان يقول : " لقد حسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ، يعني شعر جرير والفرزدق [1]. " لأنه كان لا يعد الشعر الا متقدما ، وقد جلس الأصمعي اليه ثماني حجج فما سمعه يحتج ببيت اسلامي، وقد كان مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي ، كل في أهل عصره لقلة ثقتهم فيما يأتي به المولدون [2].

ومن حسن طالع هذه اللغة المقدسة أن قيض الله لها علماء لم ينتهجوا هذا الطريق المتشدد ، ولم يكتب له الانتشار والتوسع ، لأنه كان نابعا من موقف حيطة ، وحذر من كل معاصر وجديد . دعا اليه حب العربية والاخلاص لها ، وصيانتها خشية بناء علومها على أسس غير متينة وواهية، أو على كلام غير عربي أصيل فصيح ، اختلط أهله بغير العرب الفصحاء . وبفضل هذه الفئة المعتدلة كان كلام وشعر هذه الطبقة الثالثة معينا ثرا زخرت به كل المآثر اللغوية القديمة والحديثة . ونظرة فاحصة ، احصائية في كتاب سيبويه أو كتاب العين للخليل تنتهي بنا الى أن ما في الكتاب وحده من شواهد شعرية للفرزدق وجرير يفوق ما ذكر للنابغة الذبياني وامرئ القيس وهما ما هما في الشعر الجاهلي والعربي عموما [3].

فشعر جرير – حسب رأي أولئك – لا يحتج به، وأهل البادية به أعجب [4]. وشعر ذي الرمة يعجب به أهل البادية والعلماء يتمثلون فيه الحسن والفصاحة . وهذه شهادة حماد الراوية في ذي الرمة : " قدم علينا ذو الرمة الكوفة ، فلم أر أحسن ولا أفصح ولا أعلم بغريب منه [5].

وقد أثبتت التحريات الميدانية ، والاختبارات المباشرة التي كان يقوم بها بعض العلماء استمرار السليقة العربية، والسلامة اللغوية من التأثيرات الأجنبية

---

(1) الشعر والشعراء ابن قتيبة ، 2/ ، والعمدة ، ابن رشيق 1/ 90 ، وانظر يونس البصري أحمد مكي الأنصاري ، 325 .

(2) انظر نماذج من هذا في الخصائص ، ابن جني 3/ 293-294 ، والموشح ، 195 . الصناعتين ، 51 . وأخبار أبي تمام الصولي ، 175 ، وديوان أبي تمام 1/ 271 والاغاني للاصفهاني 5/ 143 . الأمالي للقالي 1/ 194

(3) استشهد بشعر الفرزدق 55 مرة ، وبشعر جرير 37 مرة ، وبشعر ذي الرمة 30 مرة ، وبشعر النابغة الذبياني 24 مرة ، وبشعر امرئ القيس 20...

(4) الموشح للمرزباني ، 115 .

(5) الأغاني 1/ 33 .

ومن الخطأ في البادية بالشكل الذي ورثه الأبناء عن الآباء حتى أواخر القرن الرابع [1] وأبرز من يمثل هذه التحريات في هذا الزمن المتأخر اللغويان المشهوران : أبو منصور الأزهري (ت 370 هـ)، وأبو الفتح ابن جني (ت 382 هـ) اللذان ذكرا بعض الأخبار عن صلتهما بالأعراب ، وعن مشافهتهما ، واختبارهما لهم لما لمساه فيهم من محافظة على سلامة سلائقهم وبقاء نحائزهم [2] . يؤكد ذلك ترديد أبي منصور بين الفينة والأخرى عبارات [3] : " وسمعت العرب تقول " و " سمعت من العرب " .

وما دامت الحال هكذا في أواخر القرن الرابع فلا شك عندنا أن الفترة السابقة ، وبالتحديد القرن الثالث كانت فيها فصاحة البدو أسلم وأصح ، وبالتالي يجوز الاحتجاج بها واعتمادها في تقعيد اللغة ، ويزيدنا ايمانا بهذا أن ابن السكيت — مثلا — كان قد شافه الأعراب وأخذ عنهم اللغة وذكر ذلك في غير موضع من كتابيه " الألفاظ " و " اصلاح المنطق " [4] خلافا لما ذهب اليه الدكتور رمضان عبد التواب [5] . قال الأزهري في معرض حديثه عن ابن السكيت : " ... وكان يروي مع ذلك عن فصحاء الأعراب الذين لقيهم في بغداد [6] " .

وبعد هذه الوقفة الطويلة عند الطبقات الثلاث نجد أنفسنا أمام الطبقة الرابعة التي يمثلها : بشار بن برد ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وجعفر البرمكي ، والجاحظ ، وأحمد بن يوسف ، وغيرهم خلق كثير الى زماننا هذا ، ويقال لهم المحدثون أو المولدون . والعلماء على اتفاق تام على عدم الاستشهاد بشعرهم ، وكلامهم في الفصاحة لبناء قواعد النحو والصرف مطلقا ، لأنهم من سكان الأمصار يجرى عليهم حكم سكانها العرب

---

(1) مجلة المجمع اللغوي العلمي بالقاهرة مجلد 1/ 202 .
(2) تهذيب اللغة 1/ 6-7 ، والخصائص 2/ 5-12 ، والمحتسب 1/ 84-85 .
(3) تهذيب اللغة 2/ 372، 373، 391، 397 و7/ 69، 84، 85 .
(4) ذكر في الاصلاح مثلا عددا كبيرا من الأعراب انظر/ 10، 47، 65، 70، 97، 110، 118، 122، 123، 127، 238، 310، 311، 350، 351، 352، 353، 379، 381، 382، 383، 387، 388، 389، 390، 426، 428، 434، 442، 475
(5) لحن العامة والتطور اللغوي ، عبد التواب ص/ 60 — 62 .
(6) تهذيب اللغة 1/ 23 .

الذين لا يحتج بكلامهم بعد أواخر القرن الثاني، لعدم توفر شروط السلامة اللغوية فيهم التي تلقاها العربي الفصيح عن مجتمعه ومحيطه بدون معلم ولا ولا حلقات درس ومذاكرة .

فهؤلاء المولدون لا يعتبرون على هذا الأساس فصحاء سليقيين ، وبالتالي لا تؤخذ لغتهم دليلا، وقياسا تبنى عليه الأحكام اللغوية ، وقد شذ عن اجماع اللغويين والنحويين الزمخشري في تفسيره " الكشاف ". فاستشهد بشعر أبي تمام في عدة مواضع لبعض القضايا اللغوية معللا ذلك بقوله : " وهو (يعني أبا تمام) وان كان محدثا لايستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ". (1) وقد رد عليه العلماء هذا بعنف، لأن قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق، واعتبار القول مبني على معرفة أوضاع اللغة والاحاطة بقوانينها . واتقان الرواية يستلزم اتقان الدراية وعليه لا يمكن الاعتداد بمذهب الزمخشري، لأن المعرفة العلمية ليست كالمعرفة العملية . والعربي الأول لم يكن عارفا بعلوم اللغة معرفة نظرية ، انما كان ممارسا لها ، ولأن علوم اللغة والصرف والنحو انما يستشهد فيها بكلام العرب الفصحاء، وبشعرهم، وبأمثالهم، وبالقرآن الكريم ، أما الفصاحة البلاغية، وعلومها فانه يستشهد فيها بكلامهم وبكلام غيرهم (2) من المولدين أو المحدثين على حد سواء ، لأنهما راجعة الى المعاني والصور ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم بل لا فرق في ذلك بين العرب والعجم ، ثم ان العرب أنفسهم يتفاضلون في ذلك فيما بينهم ، وقد يستشهد بالمولدين دون العرب الفصحاء اذا فاقوهم في معانيهم وصورهم البلاغية .

4 ـ <u>الاطار الذوقي والبياني</u> : ونعني به أن بعض القبائل توفر لهما الذوق والقوة على البيان واختيار الألفاظ ، ونظمها بأفصح الكيفيات الأدائية للغة العرب ، ولا يعني هذا أن هذه القبائل هي أسلم لغة وأثبت في الأصالة من غيرها ، اذ أن كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه ، وانما يقال : بنو فلان أفصح من بني فلان ، أي أشبه بلغة القرآن ولغة

---

(1) الكشاف، للزمخشري 1/ 65ـ66 وانظر الجزانة 1/ 21 . البحر المحيط ، أبو حيان ، 1/ 91 .

(2) الخزانة للبغدادي ، 1/ 20 ـ 22.

قريش [1] . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر كثيرا من الأحكام التي كان يصدرها اللغويون والنحويون القدامى بشأن أي القبائل أفصح .

لقد كانت قريش أجود القبائل انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان ، عند النطق وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عن النفس . اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم فصاروا بذلك أفصح العرب وكانت نحائزهم وسلائقهم طبيعية كسائر العرب تجري الفصاحة على ألسنتهم بغير كلفة ، و لا تحفظ، لأنهم جمعوا الذوق الرفيع والطبع السليم غير المشوبين بكثرة الوحشي والغريب من الألفاظ والأساليب العربية الى قوة بيانهم واقتدارهم على اختيار اللغة وأوضاعها وصياغة معانيهم في أحسن الهيئات المعنوية واللفظية ، فحازوا بذلك قصب السبق في البيان [2]

نقرأ في كتب اللغويين والنحويين من حين لآخر هذه الأحكام :

1- ويقال : " من ترك عنعنة تميم ، وكسكسة ربيعة فهم الفصحاء [3]" .

2- وقال الخليل : أفصح الناس أزد السراة [4] .

3- ويقال : أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر [5] .

4- وقال أبو عمرو بن العلاء : أفصح الناس سافلة قيس وعالية تميم . (يعني عجز هوازن) [6] .

5- وقال : وكنا نسمع أصحابنا (يعني البصريين) يقولون : أفصح الناس تميم ، وقيس ، وأزد السراة ، وبنو عذرة [7] .

6- وقال أبو عمرو بن العلاء : " أفصح الشعراء لسانا وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث : الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن فأولها هذيل ، وهي التي تلي السهل من تهامة ثم بجيلة ، السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف

---

(1) الفاضل ، للمبرد ، /113

(2) الصاحبي في فقه اللغة ، ابن فارس / 52 . المقدمة ، ابن خلدون ، / 1072 . المزهر ، للسيوطي 1/ 211 والاقتراح / 22 .

(3) العين ، الخليل 1/ 91 .

(4) الفاضل ، للمبرد ، / 113 .

(5) العين ، الخليل 1/ 169 .

(6) الفاضل ، للمبرد ، /113 . والعمدة ، ابن رشيق ، 1/ 89 .

(7) الفاضل نفسه .

في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث بن كعب بن نصر بن الأزد (1) .

7- وقال الشافعي رضي الله عنه : وكانت هذيل أفصح العرب (2).

8- وقال على بن القاسم الهاشمي : رأيت قوما من أزد السراة لم أر أفصح منهم ، وكانوا يلبسون الثياب المصبغة (3)

9- وقال أبو قلابة الجرمي : رأيت قوما من بني الحارث بن كعب لم أر أفصح منهم (4) .

10- وقال الهمذاني : أفصح القبائل ،كندة ،وهمذان ،وبعض الصدق : سرو مذحج ومأرب ، وبيجان ،وحريب فصحاء وردىء اللغة منهم قليل سرو حمير (5)

11- وقال الهمذاني : وجعدة ليسوا بفصحاء ،وفي كلامهم شيء من التحمير، ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون : يا ابن مّقم في يا ابن العم ، وسمع (بكسر السين وفتح الميم) في اسمع (6) .

12- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يملين في فصاحتنا الا غلمان : قريش وثقيف (7).

13- وقال ثعلب : ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء .. (8) .

14- وقال معاوية يوما : من أفصح الناس؟ فقال رجل : قوم ارتفعوا عن فراتية العراق (اللخلخانية) ، وتيامنوا عن عنعنة تميم ،وتياسروا عن كسكسة بكر ليست لهم غمغمة قضاعة ،ولا طمطمانية حمير ، فقال معاوية : من هم ؟ قال : قريش ، قال: ممن أنت؟ قال : من جرم . وقال الأصمعي : وجرم من أفصح النـــاس (9) .

اذا تأملنا هذه القائمة الطويلة من الأحكام ، والتقييمات المختلفة ، للأفصح وقارنا بينها ، فاننا لا شك سنهتدى الى تنزيه اللغويين من الاختلاف بل من الاختلاف والاضطراب الشديدين ، ونرد بالتالي عنهم ذلك الحكم الجائر في حقهم

---

(1) العمدة ابن رشيق 1/ 88-89 .
(2) معجم الأدباء الحموي 17/ 284، (3) + (4) الفاضل نفسه .
(5) صفة جزيرة العرب الهمذاني / 134 . (6) نفسه .
(7) الصاحبي في فقه اللغة ابن فارس 88 .
(8) الخصائص ابن جني 2/ 11 وسر صناعة الاعراب له 1/ 234 .
(9) الكامل للمبرد 1/ 371 وانظر البيان والتبيين للجاحظ 3/ 212 - 213 ودرة الغواص الهمذاني 183 .

- الذي أصدره الدكتور أحمد علم الدين الجندي في أطروحته (1) .
علمنا أن اللغويين عندما أرادوا جمع اللغة حددوا بتأملهم وملاحظاتهم منطلقات جغرافية — اصطلحنا عليها بالاطار الجغرافي — رأوا أنها تمثل ألفاظ اللغة الفصيحة فاعتمدوها في تقعيد العربية . لذا لا نعجب اذا سمعناهم يقولون : أفصح الناس أو أفصح العرب تميم أو قيس أو أزد السراة أو بنو عذرة أو أهل السروات أو نصر قعين أو قعين نصر ...

فهذه الأحكام تعود في مجملها الى اعتبار موقعها في شبه الجزيرة العربية ، ثم ان هذه الأحكام ، لم يلف أصحابها فيها عن بقية القبائل عروبتها ، ولا فصاحتها اذا لم تتأثر بالأجانب، ولم يختل نطقها .

فلو قابلنا بعض هذه الأحكام ، بعضها بالبعض الآخر — رغم أنها جاءت مفصولة عن سياقاتها الكلامية، ومقاماتها التي لا نشك أنها لو ذكرت لسهلت علينا كثيرا من العناء في تفسير، أو تأويل هذه الأحكام — لاهتدينا الى حل قيم .

فاذا نظرنا الى (1) من جهة و (4) من جهة، تبين لنا أن الأول روعيت فيه الكيفيات الأدائية : العنعنة والكسكسة والثاني روعي فيه الاطار الجغرافي .

واذا نظرنا الى (3) و (5) من جهة و (6) من جهة، تبين لنا أن (أفصح الشعراء لسانا وأعذبهم) لا يرجع الى النظام اللغوي ولا الى الكيفيات الأدائية بمفردها انما يرجع الى عوامل فنية ، تختلف من شخص الى آخر ، ومن قبيلة الى أخرى ، ويكفي أنه ذكر الشعراء ، ولم يذكر عامة الناس ، والشعر له ميزاته وخصائصه الأسلوبية التي تميزه من الكلام العادي أو النثر الفني فضلا عن اختيار الألفاظ والتعبيرات العذبة ، في حين روعي في (3) و (6) الموقع الجغرافي في الجزيرة .

واذا نظرنا الى (8) من جهة و (11) من جهة، تبين لنا أن سبب تقديم أزد السراة هو نقاء لغتهم من الدخيل وصفاؤها من الغريب المعرب والا لما ذكر لبسهم الثياب المصبغة ، فهم محافظون على بداوتهم ، في كلامهم، وفي لباسهم ومعاملاتهم كما ورثوها عن سلفهم ، وسبب نفيهم هذه الصفة عن جعدة

---

(1) اللهجات العربية في التراث أحمد علم الدين 1/ 184—185 .

يرجع الى الذوق والبيان، والى عدم اقتدارهم على الابانة، وابلاغ أغراضهم ، فهم أهل تحمير، ويجرون في كلامهم ويجذفون .

وبلد سفيان بن أزحب فصحاء الا في قولهم : أم رجل بدل الرجل ، وقيد بميراك ، ورأيت أخواك بدل قيد بمييك ، ورأيت أخويك ، ولا أحد ينكر عربية هؤلاء القوم ولا أحد ينكر فصاحتهم السليقية . ولكن مراعاة للكافة والعامة العربية، والأشيع المتداول بين العرب الفصحاء في كلامهم جعل غيرهم أفضل منهم ، من هذه الجهة لأنه لا يمكن تقعيد اللغة — كما سلف القول — على الشاذ اذا كان الشائع ، وكل عربي لم تتبدل لغته فهو فصيح في لغة قومه .

لقد كانت القبائل العربية تختلف فيما بينها في التأدية والنطق للسان العرب في ظروف طبيعية واجتماعية مختلفة من قبيلة الى أخرى، فكانت فيهـا العنعنة والكسكسة والكشكشة والعجرفية والعجعجة واللخلخانية والغمغمة والطمطمانية والتحمير والسرعة ... فكان العالم إذا سئل : أي القبائل أفصح ؟ لا يتردد في تقديم القبيلة التي لغتها أقرب الى لغة القرآن ، وينظر الى أبينها وأفصحها عن مكنونات الضمائر والأنفس ، وارتفاعها عن العنعنة ، والكسكسة والكشكشة ، والتضجع ، والتلتلة ... وغيرها من الكيفيات السالفة ، وينظـر الى أقدرها على التعبير عن المعاني المختلفة بأبين الطرق وبأحسن الأساليب وأوقعها في القلب والنفس ، وأكثرها اقناعا ، فكانت قريش بذلك كله أبين القبائل وأفصحها جميعا ، وكانت لغتها أفصح اللغات وأبينها .

ولعل أحدا يرد علينا ما ادعيناه للغة قريش ، بما جاء في تاج العروس: " والغمغمة أصوات الثورة أو الثيران ، عند الذعر، وأصوات الأبطال في الوغى ، والجمع الغماغم ، وأيضا الكلام الذي لا يبين ، ومنه صفة قريش فيهم غمغمة (1) " . وقال المبرد : " والغمغمة أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع الحروف وقد تكون في الكلام وغيره " (2) فالغمغمة عيب يعترض المتكلم في جهازه الصوتي أثناء الكلام . وقد رأينا قبل قليل تخير قريش للأفصح ، وارتفاعها عن كل الكيفيات الأدائية المعيبة بما فيها الغمغمة المنسوبة الى

(1) تاج العروس الزبيدي ، 9/ 6 .
(2) الكامل للمبرد 1، 369—370 .

قضاعة ، فكيف عزاها الزبيدي الى قريش أيضا ؟

ان عبارة الزبيدي توحي بالتحفظ والحيطة في نسبة الغمغمة الى قريش فقال : ومنه صفة قريش فيهم غمغمة بخلاف الكيفيات الأخرى مثل الكسكسة والعجعجة ينسبها مباشرة الى القبائل التي عرفت بها لأنها مؤكدة النسبة اليها وشائعة فيها وملتصقة بها. فيقول العلماء : عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء ، ولخلخانية العراق ، وغمغمة قضاعة ...

ومعلوم أن قضاعة أول من نزح من قبائل معد فتفرقت بطونها في جزيرة العرب على نجد والبحرين ومشارف الشام ، فجائز أن يكون بطن منها قد جاور قريشا فاختلط بها فاعتقد بعض العلماء حين سمعها من هؤلاء أنها في قريش وقد نفى العلماء الغمغمة عن قريش وقدموا الأدلة على ذلك [1] .

ومحافظة بنو قضاعة — رغم تفرقهم — على الغمغمة يؤكد العلاقة اللهجية بين السلف والخلف عبر القرون ، ويؤكد أن تلك الكيفيات الأدائية ليست طارئا على لغات العرب وانما هي أصيلة فيها وتمثل مراحل تطورية في العربية ، وارتفاع قريش عنها بوأها مكانة سامية بين قبائل العرب وبين اللغويين حتى اعتبروها أفصح اللغات وأبينها واعتبروا قريشا أفصح القبائل كذلك .

ولم يتلق بعض العلماء المحدثين هذا الحكم دون الشك فيه، وفي موضوعيته خاصة وأن قريشا سكنت مكة، وما حولها وهم أهل مدر وحضر ، وأهل تجارة ، والتجارة تفسد اللغة لاختلاط أهلها بغيرهم من الأمم ، واحتكاكهم بهم ، وهذا ما دعا اللغويين الأولين الى عدم الأخذ من لغة اليمن الجنوبية ، ثم ان الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ في بني سعد بن بكر بن هوازن ، واسترضع فيهم ، وتعلم الفصاحة منهم ، وان كثيرا من غلمان قريش كان يرسل الى بني سعد لتعلم اللغة والفصاحة السليقية ، وهذا في اعتقاد هؤلاء الشاكين كاف للطعن في هذا الرأي وفي رمي رواته بالوضع [2] .

---

(1) اللهجات العربية في التراث أحمد علم الدين 1/ 384 — 385 .
(2) قاموس " لين " (...) نقله أحمد أمين في فجر الاسلام 6/ 247 .

والذي يتأمل ما سبق ذكره أدنى تأمل يدرك ولا شك أن سلامة اللغة من الدخيل والمعرب أمر غير الفصاحة البيانية، وأن سلامة اللغة ربما كانت في بني سعد، وسائر القبائل العربية الفصيحة خيرا منها في قريش، لأنهم أهل وبر وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالأجانب، وعلى العكس من ذلك قريش فهم أهل مدر وكثير منهم كان يرحل الى الشام، ومصر، وغيرهما للتجارة يسمع لغتهم ويفهمها ثم ان النحاة واللغويين لم يأخذوا عنهم اللغة لأنهم صادفوهم قد اختلطوا بغيرهم في صدر الاسلام وعهد الفتوحات، فهم من جهة سلامة اللغة ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم ممن خالط الأمم الأخرى، ولكنهم من ناحية الفصاحة والابانة فصحاء وأبيناء، أي مقتدرون على التعبير عما في نفوسهم بألفاظ فصيحة بينة وتعابير جيدة جميلة ومقنعة .

وعليه فانه اذا امتازت قريش بالفصاحة البيانية فقد امتازت بنو سعد وغيرها ممن نقلت عنهم اللغة بسلامة اللغة، وهذا ما يمكن أن يحمل عليه قول الرسول : " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واني نشأت في بني سعد بن بكر ابن هوازن "(1) .

والقبائل الأخرى وان لم تسلم كلها من هذه الكيفيات الأدائية المستهجنة ذوقيا وطبعا، وان لم تكن متساوية في الاقتدار على اصابة المعنى، وعلى اختيار الأوضاع اللغوية، فانها فصيحة من حيث السلامة اللغوية لأن لغاتها لم تتغير ولم تخرج عن لسان العرب فبلد سفيان بن أرحب فصحاء الا في مثل قولهم : أم رجل، وقيد بعيراك، ورأيت أخواك، يبدلون لام التعريف ميما، وينصبون المفعول به المثنى بالألف .

وفصاحة القرآن لم تخرج عما اعتاده العرب وألفوه الا في نظمه، فقد كانوا على درجة كبيرة من الفصاحة والبيان، وصيغة كلامهم واحدة في البوادي والقرى، يحبرون كلامهم، ويعرفون أوجه البلاغة والبراعة والبيان، وهي عندهم أثمن مطلبا، وأعز مغنما، ولو لم يكونوا على هذه الحال لما تذوقوا سحر بيان القرآن، وسمو بلاغته ومعانيه، ولولا أنهم حين سمعوا القرآن، وحين

---

(1) اللسان 3/ 98، والفاضل للمبرد، 113/

تحدوا الى معارضته سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريبا منه لكان محالا أن يدعوا معارضته، وقد تحدوا اليه ، وقرعوا فيه وطولبوا به ..لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقول الرسول وأفسد لأمره وأسرع الى تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج واقتحام موارد الموت (1) .

(1) الدلائل ، الجرجاني ، / 32 . والخصائص الكبرى ، للسيوطي ، 1/ 289 . وانظر سر الفصاحة ، للخفاجي / 92 .

نتائج الفصل التمهيدي

1 ـ تكتسب ملكة لغة العرب كسائر لغات الدنيا بالدربة والمران في ظروف خاصة وبيئة خاصة وذلك بأن ينشأ المرء بين العرب المحتج بلغتهم في بيئتهم . واللغة العربية هي ما نقله اللغويون نقلا صحيحا من كلام وشعر وأمثال العرب بالإضافة الى القرآن الكريم . وهي كذلك ما قيس على المنقول ، ولقد تهيأت للعرب عوامل ذاتية وبيئية تضافرت وتفاعلت حتى بلغوا الصدارة في الفصاحة ، والبيان ، وكانوا يتبارون فيهما . فقد عاش العرب ردحا طويلا من الزمن في عزلة شديدة عن التأثيرات الخارجية ، ومخالطة الأمم المحيطة بهم ، ذلك ما جعل لغتهم في باديتهم صافية نقية من الدخيل ومن تأثيرات الأعاجم ينتظمها نظام موحد تؤديه قبائل العرب الفصيحة بكيفيات مختلفة لاعتبارات نفسية ، وبيئية وتطورية ، وهذا يعني تهافت الرأي القائل باللغة الأدبية المشتركة .

2 ـ ان البحث اللغوي عند العلماء العرب قديما وعند العلماء المحدثين عربا كانوا أم غير عرب ينفي وجود علاقة بين العرق (أو الجنس) واللغة أو بين اللغة والبيئة الجغرافية من حيث أنها بيئة فقط ، ولذا فان ما ذهب اليه بعض العلماء المحدثين من أن العلماء العرب القدماء ربطوا الفصحى بالدم والوراثة وبالبادية تنقضه عليهم نصوص قديمة في تراثنا اللغوي .

3 ـ كل ظاهرة أصيلة تكون في الوسط أقوى منها في الأطراف المتاخمة لظواهر غريبة ، وعليه فكلما كان العربي أبعد عن التأثيرات الأجنبية وعن الاختلاط بالأمم المطيفة بقومه كانت لغته أصفى وأسلم وكانت أصلح مادة لغوية للتقعيد اللغوي ، ولم يغب هذا المنطلق عن الرعيل الأول من علمائنا اللغويين فحددوا بيئة الاحتجاج ، وجمعوا اللغة واستقرأوها وصنفوها ووصفوها وتركوا لنا تراثا ضخما ذكروا فيه كل ما توصلت اليه أيديهم ، قل أو كثر ، شذ أو اطرد ، ونصوا على كل ما نطق به العربي واعتبروه حجة ، واقتضت أسسهم العلمية وغايتهم التعليمية أن يركزوا في التقعيد على الكثير المطرد وينبهوا الى غير ذلك .

4 - واذا كانت قواعد العربية وخصائصها قد نضجت واكتملت قبل نـزول القرآن فان استنباط هذه القواعد أو السنن لا يمكن أن يعتمد فيه الكـلام المولد أو المحدث لأن هذا مقيس على ما قبله ، والاقتصار في التقعيد على القديم لا يعني رد تلك الصور البيانية والبلاغية التي ولدها المحدثون والتي هي بأهل عصرهم أشكل وبثقافتهم أقرب ، ولكل جيل أو عصر ثقافته وتصوراتـه الفنية والفكرية ، وليس العربي القديم أقدر في التعبير عن حياته وتجاربه الحسية والذهنية من المحدث بل ربما فاق المولد القديم . وكتب النقد والأدب والبلاغة تعج بالنماذج والأمثلـة .

5 - ولم يكن العرب الفصحاء متساوين في الاقتدار على البيان والفصاحة ، ولم يكونوا على جانب واحد في أذواقهم وطباعهم ، وفي بيئاتهم الجغرافيـة ، مما جعلهم يختلفون في تأدية ونطق العربية ، فكانوا يتفاوتون في الكيفيـات الأدائية التي تعكس مراحل تطورية فشاعت في قوم العجعجة ، وكثرت فـي قوم الكسكسة ، واطردت في آخرين الكشكشة ، .... وتسامت قريش عـن مثل هذه الكيفيات حيث كانت تنتخب من لغات العرب أحسن الألفاظ وأجـود التعابير فاجتمعت لها هذه الصفات الى اقتدارها على الابانة عما في النفوس والضائـر .

6 - ولم يكن العلماء الأولون يختلفون في أن لغات القبائل التي لـم تتأثر بالأجانب ، ولم تختلط بالأمم الأخرى فصيحة سليمة بغض النظر الـى كيفيتها الأدائية ، وكل ناطق على لغة قومه فصيح إذا لم يتأثر بالأجنبـي ، ومع هذا فقد فاضلوا بين لغات العرب لاعتبارات تطورية وذوقية وبيئيـة ، فيقولون - مثلا - بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه بلغة القـرآن التي ارتفعت عن الكيفيات الأدائية التي لا يستسيغها السمع والذوق ..

الباب الأول

الفصاحة اللغوية والبلاغية وضوابطهما في القرن الثالث الهجري

"... ان الكلام موضوع للابانة عن الأغراض التي في النفوس ، واذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح في الابانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع بتعويص معناه عن الابانة ويجب أن يتنكب ما كان عامي اللفظ مبتذل العبارة ركيك المعنى سفسافي الوضع ..."

اعجاز القرآن ، 117

الفصل الأول

مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحا

بالرجوع الى المعاجم والكتب اللغوية العربية للوقوف على مدلول مادة " فصح " نجد أن الفصيح خلوص الشيء مما يشوبه ، وأصله في اللبن ، يقال: أفصح وفصح اللبن (بالتشديد) اذا تعرى من الرغوة وانجلت عنه ، ولبن فصيح خالص من الفصوحة قال الشاعر :

ولم يخشوا مصالته عليهم　　　وتحت الرغوة اللبن الفصيح

أفصحت الشاة ، اذا انقطع لبؤها ، وخلص لبنها ، وأفصح كل شيء اذا بدا ووضح ، ومنه قيل : أفصح الصبي في منطقه افصاحا اذا فهمت ما يقول أول ما يتكلم ، وأفصح الأغتم اذا فهمت كلامه بعد غتمته ، وأفصح الأعجمي اذا تكلم بالعربية . وفصح (بالضم) الأعجمي أو اللحان اذا جادت لغته ، وحسنت حتى لا يلحن ، وحتى يزول فساد كلامه ، ويقال : كل ناطق فصيح ، وما لا ينطق فهو أعجم ، وسمي الكلام الفصيح فصيحا ، كأنهم سموه بيانا ، ولاعرابه عما عبر به عنه ، واظهاره له اظهارا جليا ، ولهذا يقال للعربي : أفصح لي ان كنت صادقا ، أي ابن لي كلامك ، وافصح لي يا فلان ولا تجمجم ، ويقال: أعرب بحجته أي أفصح بها ، ولم يتق أحدا ، ومنه قيل : فصح الرجل فصاحة اذا جادت لغته وهو البين في اللسان ، والبلاغة ، وأفصح تكلم بالعربية ، ورجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ ، ولسان فصيح أي طلق (1) .

وباستقرائنا لهذه التحديدات المختلفة لمادة فصح اللغوية حقيقة ومجازا نستخلص الحقائق التالية :

1 — ان الفصاحة في أصل وضعها اللغوي تعني الصفاء والنقاء والخلوص مما يشوب الشيء كالرغوة أو اللحن أو اللكنة أو الدخيل .

2 — ان الفصاحة يقصد بها : (أ) — أداة أو امكانية توصيل الغرض

---

(1) انظر أدب الكاتب ابن قتيبة ، / 274 ، وفصيح ثعلب ، / 22 واصلاح المنطق ، / 254 ، الحيوان 3/ 5 ، تهذيب اللغة الأزهري ، 2/ 361 و4/ 253 ، والصحاح 1/ 391 ، والصناعتين ، / 13 ، سر الفصاحة ، / 49 ، مختار الصحاح ، / 504 ، شرح أدب الكاتب الجواليقي ، / 102—103 ، المخصص 3/ 112—113 ، اللسان 2/ 544 .

من طرف الى طرف آخر ، بشكل تلقائي بكلام بعيد عن التحسين ، والتدبير .
(ب) — أو بغير كلام كامكانية توصيل الطفل طلبه في أول عهده بتمرين أجهزته النطقية أو أول ما يتكلم تقليدا لما يسمعه من البالغين فيستخدم ألفاظا خاصة يطلقها على مدلولات معينة فيرمز مثلا للكلب بـ " واواو " وللأم بـ " ماءما " ويفهم عنه غرضه . (جـ) — أو كامكانية الأغتم الافصاح عن غرضه بعد غتمته فتفهم عنه حاجته . (د) — أو كامكانية الأعجمي التعبير عن غرضه باستخدام العربية ولو بلكنة على جهة الصواب دون الخطأ واللحن . (هـ) — أو كامكانية كل ناطق لنقل مراده بخلاف غير الناطق ، أي غير الانسان .

3 — ان الفصاحة تعني : (أ) — الاعراب والتبيان عما يعبر عنه واظهاره في اللسان والبلاغة . (ب) — تجويد وتحسين اللغة والافهام وحكمة الابلاغ باختيار المعاني والألفاظ . (جـ) — سلامة اللسان وطلاقته من غير تجمجم وتبلبل حال عملية الكلام ، أي عند تجسيد الملكة آنيا . (د) اجراء الكلام مجرى كلام العرب من حيث الأصوات والألفاظ والأساليب النحوية وطرق التعبير الفني . (هـ) — تخلص الأعجمي من لكنته فيعرب عن أغراضه بكلام فصيح . (و) — البلاغة من حيث أن الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف أصلاهما / ف ، ص ، ح / و / ب ، ل ، غ / لأن كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى واظهاره .

فالفصيح من الكلام من خلال (د) في 3 هو ما وافق لغة العرب ، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب ، وحق من نشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم ولم يخرج عن جملة ألفاظهم في افرادها وتركيبها ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلحنوه [1] فاذا سار المتكلم في كلامه وفق نظام وسنن لغة العرب فهو فصيح ، والا فهو خاطيء لاحن ، لأن اللحن ما خالف سنن العربية ، وخرج عن استعمالات أهلها ، وما بني عليه اعرابها . والكلام وجوه كثيرة منها : الجد والهزل ، والحسن والقبيح ، والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، والبليغ والعي ، والعي ضد البلاغة [2] والعي هو العجز الذي يلحق من تولى الأمر والكلام ، ومنه عيي في منطقه عيا فهو عيي ،

(1) نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ، / 142 .
(2) نقد النثر ، / 137 — 145 وانظر النكت للرماني ، / 78 — 79 —

أي عاجز (1) ومنه قيل : والايجاز والاطناب بلاغة ، والتقصير والتطويل عي ، قال الجاحظ : " فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا (2) " واللكنة هي عجمة تعترض في اللسان على كل كلام المتكلم ، بأن يدخل بعض حروف العجم ، في حروف العرب ، أو بأن لا يقيم العربية من عجمة في لسانه (3) . ومن هنا نخلص الى المتقابلات التالية :

أ ـ الفصاحة ≠ اللحن .
الخطأ .
اللكنة .

ب ـ البلاغة ≠ العي .
الاغلاق .

فلكي يكون كلام المرء فصيحا صحيحا يجب أن يكون موافقا لنظام العربية وسننها من حيث تأدية أصواته وأبنيته ، ومن حيث اعرابه وصوابه ، واذا ما أخل بذلك كان خطأ ولحنا ولكنة ، ولتصحيح الخطأ واللحن استنبطت قواعد النحو والصرف ، وللاحاطة بمفردات اللغة وضعت الكتب في اللغة ، وذكر المستعمل منها ، والشاذ والمهمل (4) واللحن كما قيل يتولد في الأمم والنواحي بحسب ... والسير (5) وعلى هذا الأساس حدد العلماء بيئة الاحتجاج كما بينا في الفصل التمهيدي .

والبلاغة هي : " القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام ، وفصاحة اللسان . (6) " في وضوح الدلالة وصواب الاشارة وتصحيح الأقسام وحسن التركيب ، والنظام ، والابداع في طريقة التشبيه والتمثيل والاجماع ثم التفصيل ووضع الفصل والوصل موضعها وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شرطها وما الى ذلك (7) .

(1) معجم مفردات ألفاظ القرآن / 368 . (2) البيان والتبيين 1/ 162 ، وانظر اللسان 13/ 379 ـ 381 . (3) البيان والتبيين 1/ 39 ـ 40 ، 71 و 2/ 213 والحيوان 3/ 292 واللسان 13/ 390 . (4) نقد النثر / 142 . (5) ذيل فصيح ثعلب / 2 . (6) نقد النثر / 76 .
(7) دلائل الاعجاز / 47 .

ومما سبق نستلخص أن للغة مستويين للتعبير :

1 — المستوى الأدنى الذي يتحقق في الكلام العادي وهو الذي لا يراعى فيه سوى خلوص الكلام مما هو خارج عن نظام اللسان العربي ، وألفاظه التي ورثها الخلف عن السلف ، ويظهر بشكل جلي في ما يجري على ألسنة العرب الفصحاء فيما بينهم بما فيهم الشعراء والخطباء في مخاطباتهم اليومية لقضاء الحاجة وفي سعة الكلام وانبساطه . فالفرد العربي اذا امتلك ناصية اللغة ، وأصبحت لديه سليقية ، يكون مقتدرا على التعبير عن أغراضه بطلاقة لسانه ، بأصوات وألفاظ وأبنية ألفاظ وتراكيب لغته على جهة الصواب والوضوح بغير لكنة ولا اخلال بها ، بعيدة عن التحسين والتدبيج وخلوة من الشحنات الوجدانية والانفعالية والصور البلاغية ، يعتمد فيه صاحبه أسلوب الاقناع ونقل الحقائق نقلا تقريريا وصفيا ، وهذا المستوى طبقات أعلاها ما يمكن تسميته بالمستوى العلمي ، أو الأسلوب العلمي .

2 — وهو ما يمكن تسميته بالمستوى الفني البليغ ، ويتسم بالتجويد والجمالية والوجدانية ، وفيه يلجأ الأدباء والشعراء لنقل معانيهم وتجاربهم الى اعمال الفكر والروية والذوق والخيال والعاطفة في اختيار المعاني والألفاظ والتراكيب والصور الفنية البلاغية المعبرة عن الغرض في نظم خاص مقصود يتحقق به الاقناع والتأثير في المتلقي . واذا كان المستوى الأول يتساوى فيه الفرد العربي الفصيح العادي بالشاعر الفصيح ويتساوى فيه كل العرب الفصحاء الموثق بعربيتهم ، فان هذا المستوى الثاني طبقات تتفاوت في الحسن والجمال وفي المعاني والألفاظ ، أعلاها طبقة القرآن المعجزة ، ودون هذه الطبقة يتفاوت الشعراء في شعرهم ويتفاضلون فيما بينهم .

ولتحقيق هذا المستوى على صورة مقبولة وضع العلماء حدودا وشروطا (1) في اللفظة المفردة وفي التركيب وفي المتكلم ، فرأوا وجوب سلامة جهاز النطق من العيوب ، واستعمال الألفاظ الحلوة الخفيفة السلسة على اللسان والأسماع ، والابتعاد عن الوحشي الغريب ، وعن الابتذال ، مع الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب ، واصابة عيون المعاني في سحر وايجاز ، ومع البعد عما يكره من

(1) البيان والتبيين 1/ 65—69 ، 136 ، 144 ، 378 — 380 ، والحيوان ج/ 207 ، 208 . أدب الكاتب / 13—14 ، والشعر والشعراء / 15 وانظر النكت الرماني / 77—78 . الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ، / 72 — 82 . المزهر 1/

مظاهر مذمومة في البيان والبلاغة مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وميسمه فيه ، ومع مسايرة للحركة الفكرية العامة في بيئته ، ومع الاستفادة من تراث أمته ، فتظهر خصوصيات الأديب ، وخصوصيات العصر في كلامه .

اشترط الرضي الاستراباذي في الفصيح " أن يكون على ألسنة الفصحاء الموثوق بعربيتهم أدور واستعمالهم له أكثر "(1) فمدار فصاحة الكلمة على كثرة استعمال العرب لها ، وعلى هذا الأساس عول علماء القرن الثالث في اختياراتهم ومختصراتهم ، وعلى هذا الأساس أيضا قسم حازم القرطاجني الألفاظ الى تسعة أقسام فنظر اليها من جهة الابتذال والغرابة والقبح والحسن وكثرة استعمال الخاصة أو العامة من العرب الفصحاء أو المولدين ، ثم قال : " اعلم أن الابتذال في الألفاظ وما تدل عليه ليس وصفا ذاتيا ، ولا عرضا لازقا بل لاحقا من اللواحق المتعلقة بالاستعمال في زمان دون زمان وصقع دون صقع "(2) والمعول عليه في الاستعمال هو الذوق والمزاج والمعاني والأغراض .

والغريب من الألفاظ هو ما قل استعماله ودورانه على ألسنة الكافة من العرب الفصحاء ، والحكم على الألفاظ بالغرابة نسبي لأنها كثيرة جدا في كلام العرب ،وهي وان كانت غريبة عند قوم فهي واضحة عند غيرهم ، وليس كل العرب يعرفون اللغة كلها ، ولا يحيطون بها ، غريبها وواضحها، مستعملها وشاذها ،انما هم في ذلك طبقات يتفاضلون فيها ، كما أنه ليس كلهم يقول الشعر فهو في بعض دون بعض . وأما اللغة الواضحة المستعملة سوى الشاذ والنادر فهم فيها شرع واحد(3) .

والغريب في اللغة هو ما خالف الشائع الكثير المألوف الواضح ، وتباعد عنه ، وقيل كل متباعد غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير غريب(4) . والغريب كل ما قل تداوله في كتاب الله ، وما يجري في ألفاظ

---

(1) المزهر 1/ 187،وانظر الايضاح في علوم البلاغة ، 74 .
(2) المزهر 1/ 191 .
(3) الايضاح في علل النحو ، / 92 .
(4) معجم مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب ، / 371 .

الفقهاء ، والمتكلمين ، وسائر محاورات الناس (1) ، وكل كلمة غير واضحة الدلالة غريبة ، كذلك الكلمة الخشنة المستغربة التي لا يستعملها الا العالم المبرز والاعرابي القح غريبة . فألفاظ المتكلمين ، وألفاظ اللغويين النحويين ، وألفاظ الفلاسفة ، وألفاظ الفقهاء ، وألفاظ الأطباء ، وألفاظ أصحاب الحرف والصنائع وغيرها ، كلها غريبة على غير أهلها وعلى من لم يحصل نصيبا من العلم بها .

والغريب في اصطلاح البلاغيين هو الحوشي أو الوحشي الذي لا يظهر معناه الا بالتنقير والبحث عنه في القواميس والمعاجم اللغوية العربية الكبيرة يقول القزويني في ايضاحه : " والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة " (2) فصفة الغرابة خارجة عن اللفظة أي ليست أصيلة ومتأصلة فيها ، والاستعمال هو الذي يكسبها اياها أو يسحبها منها . ومما لا شك فيه أن الألفاظ الغريبة عربية صحيحة في أبنيتها الصوتية والصرفية .

يروى أن رجلا قال لأحد العلماء : أسألك عن شيء من الغريب ، فقال العالم : هو كلام القوم ، وانما أنت وأمثالك الغرباء " (3) . وفسر الأصمعي شعر أبي حزام العكلي ، فقال الرشيد : يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب " (4) . فما بدا للرشيد غريبا هو بالنسبة للأصمعي غير غريب . ويشير الجاحظ إلى أن كل أديب أو شاعر يختار معجمه اللغوي من معين العربية الواسع العميق ، يديره ويكثر منه في شعره أو كتابته قال : ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون ، فلا بد أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها يديرها في كلامه ، وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير الألفاظ (5) .
فثقافة المرء وسعة اطلاعه على كلام العرب هي التي تتحدد من خلالها غرابة الألفاظ أو وضوحها بالنسبة له ، والذي أثبته العلماء في هذا المجال مرده الى معايير وعوامل ذاتية نفسية ، والعلماء في بيئة الاحتجاج اعتمدوا

---

(1) الفروق اللغوية للعسكري ، 9-10 . (2) الايضاح في علوم البلاغة ، 73 .
(3) الفاضل للمبرد ، 5 . (4) الصاحبي ، 44 . (5) الحيوان 3 / 366 .

ي الفصاحة اللغوية السلامة والصفاء من الدخيل والتحريف الذي قد يمس
اللغة في جوهرها من الأصوات أو الدلالات . والفصيح من الكلام — عندهم —
ا وافق لغة العرب ، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب .

وقد كان قوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع
غريبه والمعاني ، مثل أبي عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، والأصمعي[1] .

وبما أن مفردات اللغة لا يمكن أن يحيط امرؤ بها ، ولا يمكن أن تجتمع
قبيلة من القبائل فلا نعجب أن نرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ممـا
هو في عصره في الفصاحة لا يعرف معنى كلمة " الأب " في الآية الكريمة :
" وفاكهة وأبا "[2] . وكان ابن عباس رحمه الله وهو ترجمان القرآن ووارث
مه يقول : لا أعرف " حنانا " و " غسلين " ولا " الرقيم " . وقال
ت لا أدري ما " الفتاح " حتى سمعت ابنة ذي يزن ، تقول لخصم لها :
لي فاتحني ، أي حاكمني ، فعلمت أن الحاكم هو الفتاح[3] . وكل فرد من
ن القبيلة ، أو تلك يختار لنفسه مجموعة من الألفاظ يجريها في كلامه ، وفي
طبه لغيره ، فيتلاقى أفراد القبيلة في مجموعة كبيرة من الألفاظ ويختلفون
الكلم ببعض آخر ، كما تتفق القبائل في العلم بألفاظ ، وتختلف في بعض
عتبارات سبق ذكرها .

وعليه فانه يجب النظر الى اللفظة الغريبة بالنسبة للعرب العرباء ، لا
نسبة لاستعمال الناس لها في القرن الثالث أو في أي قرن آخر ، والا قطعنا
ن جميع ما في كتب الغريب غير فصيح ثم ان الأديب أو الشاعر الفذ الواسع
علم باللغة قد يضطره المعنى أو الغرض الى أن يستعمل ألفاظا تبـدو
بة لغيره ، ولكنها متمكنة في مواضعها ، ولا يمكن أن تؤدي ألفاظ واضحة
يفة الألفاظ الغريبة ، فاذا ما استبدل هذه الأخيرة بالأولى تغيرت المعاني
ذهبت ميزتها وفضلها .

---

1) العين للخليل 1/ 54 ، واعجاز القرآن للباقلاني / 113 ، 116 .
2) عبس ، الاية ، / 31 .
3) الفاضل للمبرد ، / 113 — 114 ، وبيان اعجاز القرآن للخطابي ، / 36 . تفسير القرطبي 19 / 223 .

بعد هذا نستخلص ما يلي :

1 — إن وصف اللفظة بالغرابة ، يبقى حكما نسبيا خاضعا لتغيـــرات الزمان والمكان ، وطباع الناس ومستويات الثقافية والحضارية .

2 — إن المفردة الغريبة لا يشترط فيها أن تكون حروفها متنافرة أو أن تكون متجانسة ومتلائمة ، لأن صفة الغرابة ترجع الى عدم وضوح الدلالــة أو المعنى .

3 — إن قلة الاستعمال هي معيار الغرابة ، فكلما قلت الحاجة الــى مدلول الكلمة قل استعمالها ، ووصفت بالغرابة ولو كانت حسنة وأضحة جاريـــة على ألسنة العرب الفصحاء والعلماء المبرزين .

4 — إن الكلمة الغريبة اذا جاءت على لسان عربي مأمون الجانب مــــن التأثيرات الأجنبية والاختلاط بغير الفصحاء احتج بها في اللغة وان كـــان غيرها أعرف وأشهر .

5 — إن كثرة استعمال الكلمة على ألسنة الكافة (كافة العرب الفصحاء) معيار فصاحتها ، وميل العرب اليها ، فالكلمة التي تدور كثيرا على ألسنتهم تكون أفصح ، وغيرها يكون فصيحا ، والكلمة التي تدور كثيرا على ألسنة عامـــــة المولدين تكون مبتذلة ساقطة .

6 — إن الانتخاب من المتن اللغوي يخضع لطبع المرء وذوقه وطبيعـــة الجيل وأمزجته وقيمه الفنية فنجد في المتن الألفاظ الرقيقة ، والصلبــــة ، والسلسة ، والوعرة ، والغريبة ، والواضحة ، ومن ثم يسهل لفظ هذا المتكلم ، ويتوعر لفظ ذاك ، ويغمض لفظ هذا الأديب ويتضح لفظ ذاك . وانما ذلـك بحسب الطبائع وتركيب الخلق ، فان سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر سلاســـة ودماثة الخلقة ، ومن شأن البيئة أن تحدث مثل هذا ، ولأجله قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " من بدا جفا " ، فنجد مثلا شعر عدي بن زيـــد وهو شاعر جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما إسلاميان لملازمة عدي الحاضرة وبعده جلافة البدو ، وجفاء الأعراب وقال الجاحظ: " وكــــلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل ، والسخيف ، والمليح ، والحسن ، والقبيح ، والسمج ، والخفيف ، والثقيل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ،

وبكل قد تمادحوا وتعايبوا " (1) .

7 - إن الكلمة الموضوعة أو الدخيلة أو المولدة حديثا في القرن الثالث أو في غيره لا تكتسب صفة الفصاحة حتى يكتب لها الاستعمال ، ولا تتصف بالوضوح حتى تشيع ويتسع مجال استعمالها ويألفها الناس ، أما اذا كانت مخزونة في ذاكرة قليل من العلماء أو في مستندات المجامع اللغوية أو في طيات الكتب والمعاجم فانها تبقى محفوفة بالغرابة الى أن يكتب لها الشيوع والذيوع أو تسقط في غيابات الزمن .

ومن هنا يمكننا أن نقسم الغريب الى قسمين :

1 - غريب أصيل موروث عن العرب الفصحاء .

2 - غريب مولد أو دخيل أو موضوع طارئ على اللغة وأهلها كالمعرب، وكألفاظ أهل الصناعات في القرن الثالث .

فقد كان اذا في لغة العرب الواضح والغريب ، كما كانت ألفاظ العلوم المستحدثة في القرن الثالث غريبة بالنسبة لعامة الناس وبالنسبة لمن لم يأخذ نفسه بمعرفتها . وقد تأمل العلماء فصاحة القرآن وتطور الحياة العربية، واتخذوا فصاحة القرآن مثالا يقيسون عليها غيرها ، فنادوا باختيار الألفاظ ، والأساليب ، وبالتوسط في التعبير بين أسلوب الحضر في رقته وسلاسته ولينه، وبين أسلوب البادية في قوته وجزالته ورصانته، ليتخلص المولدون من الغريب والوحشي ، ويتحاشوا ما عيب على الاعراب، ويرتفعوا عن سفاسف العامة والسوقة وليونتهم ، ولئلا يتكلفوا مجاراة القدامى في ألفاظهم الغريبة، وتعابيرهم الرصينة المجولة. لأن الاستعانة بالغريب عجز ، ولأن الاعرابي تكلم مبتدئا ، والمولد تابعا مقتديا ، وليس المبتدئ كالتابع ، فالأول معرض للخطأ والغرابة ، والثاني مطالب بتفادي ذلك لأنه أدركه ووعاه وسهل له العلماء طريقه ومداه ، قال ابن رشيق : " وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقا سفسافا ولا أعرابيا جافيا ، ولكن حال بين حال بين حالين ... فامرؤ القيس والنابغة والأعشى لم يتقدموا الا بحلاوة الكلام وطلاوته، مع البعد عن السخف والركاكة ، وعلى أنهم لو أغربوا لكان محمولا عنهم إذ هو طبع من طباعهم " (2) .

---

(1) البيان والتبيين 1/ 144 ، (2) العمدة 1/ 93 وقال الخطابي في بيان اعجاز القران : ص/ 37 : " ويكثر وحشي الغريب في كلام الاوحاش من الناس، والاجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية " .

واعتاد البلاغيون يمثلون لتنافر حروف الكلمة بكلمة " الهعخع " ذهب الخليل الى أنه اذا وردت كلمة متنافرة الحروف عن العرب الموثوق بهم قبلت : " هعثق " و " نعثج " و " دعثج " . لا ينسب الى العربية ، ولو جاءت عن ثقة لم تنكر ولم يسمع بها واذا كان هذا حال هذه الألفاظ الثلاثة فان الهعخع ذكر بعض العرب أنها اسم خاص ، وان لم يكن بالمعروف عن غيرهم وعند أهل البصر والعلم ولا مطعن في عربيته وأصالته ولو كان من الحكاية (حكاية لصوت طبيعي) لجاز في قياس تأليف العرب ، وان كانت حروفه متقاربة المخارج ، لأن الحكاية تحتمل من بناء التأليف ما لا يحتمل سواها بما يريدون من بيان المحكي (1) ، ومع هذا التفسير الخليلي فقد ذهب بعض المحدثين الى أن هذا اللفظ من وضع العلماء للتمثيل (2) ، والخليل صرح بوضع الألفاظ الثلاثة ، ولم يتردد في ذكر مصدر هذه اللفظة من قبل عارفوها (أقصد لفظة الهعخع) .

وبالنسبة لانسجام أصوات الكلمات وتآلفها فان حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملبسا ولينة المعاطف سهلة ولينة رطبة ، مواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة . مثل الجاحظ لتنافر أصوات الكلمات بالبيت التالي : (3)

وقبر حرب بمكان قفر ولیس قرب قبر حرب قبر

فهذا البيت مختلف الأجزاء ، والأحرف متنافرة متباينة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده لا يستطيع المرء قراءة هذا البيت ثلاث مرات دون أن يتلجلج ويتمتم .

ويبدو هذا البيت متكلفا ويكفي أنهم نسبوه لبعض الجن ، ثم ان معنى الفصاحة البلاغية ليس مقصورا على تلاؤم الحروف وانسجام أصواتها في الكلام ، وتكون بذلك سمة اللفظ مما يثقل على اللسان عاملا من عوامل المفاضلة بين الكلامين ، والا فان تخرج الفصاحة من حيز البلاغة ، ودون أن تكون نظيرة لها . قال عبد القاهر الجرجاني : واذا فعلنا ذلك لم نخل من أحد أمرين : (أ) : اما أن نجعله عمدة في المفاضلة بين العبارتين ، ولا نعرج على غيره ، وهذا يؤدي الى

---

(1) العين ، الخليل ، 1/ 53 — 54 ، وانظر اللسان 3/ 40 —
(2) المنطلقات التأسيسية والفنية ... عفيف دمشقية ، 26 .
(3) البيان والتبيين 1/ 65 — 67 ، وانظر دلائل الاعجاز ، 45—46 .

أن لا يكون المعاني التي ذكروها في حدود البلاغة ... مدخل فيما له كان القرآن معجزا حتى ندعي أنه لم يكن معجزا من حيث هو بليغ ... وذلك أنه لا تعلق لشيء من هذه المعاني بتلاؤم الحروف . (ب) : وأما أن نجعله أحدا ما نفاضل به ووجها من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام على الجملة ، لم يكن لهذا الخلاف ضرر علينا لأنه ليس بأكثر من أن يعمد الى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان ، وأن تكون نظيرة لهما ، وفي عداد ما هو شبههما من البراعة ، والجزالة ، وأشباه ذلك مما ينبيء عن شرف النظم (1)

وفيما يتعلق بمخالفة القياس ، نجد كثيرا من البلاغيين يمثلون لذلك بكلمة " الأجلل " في بيت أبي النجم العجلي : (2)

الحمد لله العلي الأجلل   مبارك الاسم أغر اللقب

قالوا القياس الادغام أي " الأجل " .

وظاهرتا الادغام وفك الادغام شائعتان في الفصيح من الكلام ، فقد وردت نماذج كثيرة لهما في كلام العرب الفصحاء وفي أشعارهم وفي القرآن الكريم ، ورد الفك في " الأجلل " مردود ما دام له ما يسوغه في لغة العرب ، وربما كان الفك هو الأصل قال ابن جني : " ألا ترى أنا نقول في الأمر من المضاعف من التميمية نحو : شد ، وضن ، وفر ، واستعد ، واصطب يا رجل ، واطمئن يا غلام ، ان الأصل : اشدد ، واضنن ، وافرر ، واستعدد ، واصطبب ، واطمأنن ، ومع هذا فهكذا لغة أهل الحجاز وهي اللغة الفصحى القدمى " (3) . وكذلك قال العرب ، محبب بغير ادغام ، قال الخطيبي في شرح التلخيص " : " اذا كانت مخالفة القياس لدليل فلا يخرج عن كونه فصيحا كما في سرر فان القياس في سرير أن يجمع على " أفعلة " و " فعلان " مثل " أرغفة " و " رغفان " قال الشيخ بهاء الدين : ان عنى بالدليل ورود السماع فذلك شرط لجواز الاستعمال اللغوي لا الفصاحة ، وان عنى دليلا يصيره فصيحا ، وان كان مخالفا للقياس فلا دليل في سرر على

---

1) دلائل الاعجاز ، 45/ـ 47 . (2) الايضاح في علوم البلاغة ، 74/ ، انظر تلخيص المفتاح (ضمن صناعة الكتابة) ، 468/ .

3) الخصائص ، 256/1 وما بعدها .

لفصاحة الا وروده في القرآن فينبغي حينئذ أن يقال : إن مخالفة القياس نما تخل بالفصاحة حيث لم يقع في القرآن " لأن ما خالف القياس وكثر في لاستعمال فورد في القرآن ، فانه فصيح مثل استحوذ قياسه استحاذ (3) العرب يجعلون في كلامهم الشيء في موضع على غير حاله في كل شيء في سائر كلامهم إما لكثرة الإستعمال أو لتنبيه على أصل أو غير ذلك مما سنرى في صل القياس والتوليد في قابل هذا الباب .

وفي مستوى الفصاحة البلاغية يتبارى الشعراء والأدباء ، وتتفاوت قدراتهم لتعبيرية والبيانية والذوقية لتفاوت طبائعهم وأخيلتهم وذكائهم وتفاعلهم مع للغة، وتتمايز مقدراتهم على اختيار مفردات اللغة وأوضاعها وعلى صياغة لتجارب التي يعيشونها والمواقف الشعورية والنفسية مما يجري حولهم ، فلا نظر الى :

- الألفاظ مفردة ومقطوعة عن الكلام الذي تدرج فيه (2) .
- معاني الألفاظ مفردة عن معنى الكلام المقصود ،لأنه لا يعقل أن كون لفظة " رجل " مثلا أدل على معناها من لفظة " فرس " على ما سمي بها (3) .
- الاعراب ، لأن التفاضل فيه في هذا المستوى محال ، فلا يتصور أن كون للرفع ،والنصب ، في كلام مزية وفضل عليهما في كلام آخر (4)
- الألفاظ من حيث هي أصوات ونطق لسان لأنها لا تتزايد وتتفاضل ي الفصاحة والبيان من هذه الجهة .

وقد تستحسن من جهة كثرة الاستعمال فلا تكون وحشية أو عامية سخيفة زالتها العامة عن موضوع اللغة ، ومن جهة خفة حروفها وحسن امتزاجها (5) ي كما قال الجاحظ : سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنها بأسرها حرف واحد (6) .

وفي حقيقة الأمر نجد أن المعنى والغرض من الكلام هما اللذان يقضيان أن تستعمل كلمة دون أخرى أو صيغة دون أخرى ، ألا ترى أن الله تعالى م يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع

---

1) المزهر 1، 188/ . (2) دلائل الاعجاز ،/ 308-309 . (3) نفسه ، 35 – 36 . (4) نفسه ،/ 306 . (5) نفسه ،/ 36 ،وأسرار البلاغة ، 3 . (6) البيان والتبيين ،1 / 67 .

والعجز الظاهر . والمطر لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام .
والغيث في موضع الرحمة ، واذا ذكر الأبصار ذكر معها السمع مفردا البتة .
واذا أضاف السماوات الى السبع لم يجمع الأرض البتة (1) .

نقول هذا لأن معنى الفصاحة في أصل اللغة — كما رأينا — هو الابانة عن المعنى بكلام بريء من اللحن سلم في النطق بألفاظه من اللكنة ومما قد يشوبه من العيوب والتحريف ، ولأن معنى الفصاحة في الألفاظ مفردة انما هو الأصالة والثبوت في اللغة والشيوع في استعمال الفصحاء وانما هو من غير ما تخطيء فيه العامة ، ومن الواضح في اللغة ، وهذا طريقه العلم باللغة وبأنفس الكلم المفردة عن طريق الحفظ فقط ، أو مما هو أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعها اللغويون .

فنحن نرى لفظة في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا نهاية له من المواضع وقد عدمت صفة أبسط درجات الفصاحة ، وعلى هذا فان الحسن أو الجودة يحدثان بعد عدم ويتجلى ذلك في الكلم من بعد أن يدخلها النظم بفكر وروية ونظر . فان نحن طلبنا هذا الحسن في الكلم أفرادا مفصولة ومقطوعة لم نحل بشيء بل طلبنا محالا ، وان نحن طلبنا ذلك في سلامة اللفظ مما يكد اللسان ومما يستكره في حروفه فان كلام الناس في كتبهم ومحاوراتهم لا نكاد نجد فيه هذا الاستكراه لأنه شيء يعرض للمتكلف والمتحمل فاما المرسل نفسه على سجيتها فلا يعرض له ذلك .
والفصاحة بهذا المعنى لا تعبأ بالغرابة ولا تعمل بها شيئا ولا تعمل بالإعراب نفسه لأن العرب تشترك في العلم به وانما تعمل بالوصف الموجب للاعراب، واذا كان الأمر كذلك وجب أن تعلم قطعا وضرورة ان تلك المزية والحسن والفضل في المعنى دون اللفظ، وان العلماء وان كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ ، فانهم لم يجعلوها عبارة عن مزية أفادها المتكلم لأنها به البتة وليست لأوضاع اللغة على ما وضعت عليه ولما لم ترد إفادته في اللفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام شيئا لم يبق الا أن تكون عبارة عن مزية في المعنى ، توجب لها موصولة بغيرها متعلقا معناها بما يليها وما يسبقها (2) .

---

1) البيان والتبيين 1/ 20 .
2) دلائل الاعجاز ص/ 35 ، 36 ، 48 ، 49 ، 301—309 ، 352—353 .

صفة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى عند التركيب وتكون عندها ـ رادفة للبلاغة ، لأن الألفاظ لا توصف بالفصاحة ما لم تفد " ولا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب ، الترتيب بتوخي معنى من معاني النحو وحكما من أحكامه فيما يبين معـاني لكلم وضم بعضها الى بعض على طريقة مخصوصة وعلى وجه تظهر بـــ لفائدة (1) .

ومعيار الفصاحة البلاغية هو مدى ما تتركه في المخاطب (بفتح الطاء) ن أثر حسن وأريحية نادرة ، ومدى اقناعها بما تنقله ، فقد يكون الكـلام ستقيم الألفاظ صحيح المعاني ولا يكون له رونق ورواء . واذا اجتمع أحسن لألفاظ لأصح المعاني في أدق النظوم وأرفعها ، فذلك هو المعجز . أتى لوليد بن عقبة النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يقرأ عليه من القرآن قرأ " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء المنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون " (2) فقال الوليد : أعد ، فأعـاد ، فقال " والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه مثمر وما يقول هذا بشر " (3) .

وتذكر لنا الكتب الأدبية والبلاغية أن العلماء عندما أرادوا توضيـح تعليل الجهة التي يكون بها الكلام فصيحا بليغا اختلفوا في ذلك لاختلاف ذواتهم وقدراتهم العقلية ومعرفتهم الدامية والعملية للغة .

فمنهم من قال : إنها راجعة الى الألفاظ دون المعاني واحتجوا بأن لناس يقولون : هذا لفظ فصيح ، وهذه الألفاظ فصيحة .

ومنهم من قال : إنها راجعة الى المعاني ، ولا يكادون يفرقون بين لفصاحة والبلاغة وهم أكثر البلغاء (4) ومنهم عبد القاهر .

1) دلائل الاعجاز ص/ 30، 300، 301 . وأسرار البلاغة ص/ 3 . وانظر سـر الفصاحة ص/ 85 و 97 .
2) النحل ، الآية ص/ 90 .
3) الرسالة الشافية ص/ 125، وبيان اعجاز القرآن ص/ 28 .
4) المستطرف ، 1 / 51 .

الفصل الثاني

القياس والتوليد

وإذا كانت اللغة ناتجة عن نشاط فكري وعضوي ، وتعبيرا عن التجربة الانسانية المعيشة في وحدات ، وهيئت مضمونا دلاليا وشكلا صوتيا تتمثل في وحدات الصوتية . وكانت ابلاغ ما يكنه المرء الى غيره ، فانها لا تكسب المرء سلطة جديدة على الأشياء ، وعلى الواقع الموضوعي فقط بل انها تملكه سيطرة جديدة على ذاته .

واذا كانت اللغة بمثابة النظام التعبيري الشامل الذي استخدم وسيلة ادراك ضمن مجموعة بشرية معينة ـ كالعرب في شبه جزيرتهم ـ وبمثابة الملك مشاع بين أفراد المجتمع ، بل بمثابة الملكة الخاصة المشتركة بين كل أفراد مجموعة اللغوية الواحدة ، يرثها الخلف عن السلف آليا في حياته اليومية بطرته وبما جبل عليه منذ طفولته حتى تصبح لديه طبعا وسليقة ، أي قدرة ابداعية لا شعورية تؤهله الى توليد ما لا نهاية من الجمل والى ادراك ما لا يحصى من الجمل في كل سياق كلامي يتواجد فيه ،كما تؤهله الى توليد وتفريع كلمات جديدة كلما دعت الظروف والملابسات الى ذلك . وكل هذا يجري في ذهن المرء لا شعوريا .

فالقياس هو عملية نفسية تجري في ذهن المتكلم الفصيح ، وهو ينبع من التفاعل القائم بين الذهن الانساني ، وتجدد الحاجات التي تتطلب جملا جديدة وصيغا لغوية وتعبيرية جديدة يولدها بملكته وسليقته ، التي تتشكل من نماذج لغوية مختزنة في أذهان العرب الفصحاء ، يقيسون عليها أشياء جديدة وهذا يفسر لنا ما نجده في مصنفات النحويين الأوائل أمثال : الخليل ،وسيبويه ، وابن جني ، من نسبة القياس الى العرب أنفسهم لأنه ليس من عمل النحويين في شيء .

وتجدر الاشارة الى أن العربي في عهد السليقة لم يكن يسلم في كلامه من سوء التصرف فيه لاشتباه الشيئين عليه فيخلط في الكلام بينهما أو لتوهمه صحة في ذلك (1) . وانما يجوز هذا عند العرب لما يستهويهم من الشبه

1) انظر الكتاب سيبويه 3/ 302 ،الاشتقاق لابن دريد 4/ 354 .الصحاح للجوهري 1/ 165 . الخصائص لابن جني 1/ 356،359 و 3/ 277 . والمحتسب 1/ 97 . منهاج البلغاء 4/ 189 . والمزهر للسيوطي 1/ 249 .

بدون قياس صحيح ، فيخلدون الى طبائعهم فيستحسنون الشيء علته ضعيفة غير مستحكمة ، كتركهم الأخف الى الأثقل من غير ضرورة ، ونطقهم بالشيء وفي نفسهم غيره ، أو نطقهم بالشيء غيره أقوى وأعرب منه استلانة وتخفيفا (1) .

واللغويون الأولون عندما جمعوا اللغة العربية: ألفاظها المفردة، الغريب المشهور منها، وألفاظها المركبة كلها من الأشعار والخطب، كان عليهم أن تأملوا هذه المادة اللغوية الضخمة فيسلكون مسلكا يجعلها ميسورة لتحقيق رضها التعليمي والوقائي لحفظ الألسنة من الزلل والتحريف ولتكون عونا للعلماء المتعلمين على فهم كتاب الله المنزل وكلام نبيه المرسل ومعرفة ما أمر به و نهى عنه الثقلان منهما . فتأملوا ما كان متشابها من المفردة منها وعند لتركيب فأخذوا أصناف المتشابهات منها وبماذا تتشابه في صنف صنف منها فبوبوها ي مجموعات لجوامع بينها وجعلوها أصولا لهذه الأصناف والظواهر وأخذوا لذي يلحق كل صنف منها فألحقوه بالأصول ونصوا عليه فكانت تلك الجوامع بين صناف صنف من الأصناف الكلية مقاييس عامة وقواعد جامعة يقاس عليها غيرها لتي تقع اليد عليه ، اذا أتقنها المرء وفقه أسرارها ، وحفظ كثيرا من أقوال، شعار العرب الفصحاء حصل له نوع من الملكة يحصن بها نطقه من العيب، كلامه من الفساد واللحن والتصحيف فتحدث هذه الكليات والقوانين العامة لألفاظ والتراكيب أثرا في النفس ، وفي النطق بعد التعود عليها ، فيقيس ليها كلامه وكلام غيره ويكون قادرا على الفهم والافهام .

وقد تنبه العلماء الى أن كلام العرب على ضربين : (2)

أحدهما : ما لا بد من تقبله كهيئته وهو الذي لا يحتاج فيه الى بيئة، ولا الى تنبيه عليه كالأسماء الجامدة نحو : دار ، وباب ، وبستان ، بع ...

ثانيهما : ما يتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه على الناس ، (وهو لمشتقات وما يعتوره التغير كالممدود والمقصور ...) فقننوه وفصلوه بحسب ما ستطاعوا .

---

1) المنصف لابن جني 1/ 310 ـ 311 ، ومعجم الأدباء الحموي 12/ 106 .
2) الخصائص ، ابن جني ، 2/ 42 ـ 43 .

وعليه فكل ملفوظ يتاح للباحث ملاحظته في نفسه هو أو في نفس غيره ليس الا مظهرا خارجيا لحقيقة اللغة لكنه لا يمثل قط صورة تامة لها وفي كل مرة تعطيه الملابسات الخاصة والظروف الطارئة هيئة ذاتية، لأن اللغة في جوهرها تحل ممكنات لم تتحقق قط وان كان من الممكن تحققها وانجازها اذا واتتها الملابسات [1] ومعنى هذا أن العربي لو سمع ، ظرف ولم يسمع يظرف ، هل يتوقف عن أن يقول : يظرف ؟ قياسا على غيره راكبا له غير مستحي منه . وكذلك لو سمع ، سلم، ولم يسمع مضارعه ، أكان يرتدع أن يقول: يسلم قياسا على سواه [2] ؟ واذا سمع قام زيد ، أجاز لنفسه هو أن يقول: ظرف خالد ، وحمق بشر ، وكان ما قاسه عربيا كالذي قاس عليه وفرع منه ، لأنه لم يسمع — ولا سمع أي عربي — اسم كل فاعل ومفعول ، وانما سمع بعضا فجعله أصلا قاس عليه ما لم يسمع بمقارنة كلمات بكلمات أو جمل بجمل بغية في التوسع اللغوي وحرصا على اطراد الظواهر اللغوية [3] .

وفي دائرتي عمليتي القياس والسماع راح العلماء يصفون اللغة ويصنفون ظواهرها اللغوية ، ويقعدون لها ، معتمدين في ذلك كله ما ورد عن العربي الفصيح . فاذا وافقت ظاهرة لغوية القياس ألحقوها بشبيهاتها وصنفوها في بابها واذا لم توافقها قبلوها في أصلها وان لم يكن لها نظائر ، واحتفظوا بها مفردة ناصين على عدم القياس عليها . لأن القواعد الكلية — حسب نزعتهم العلمي — لا يمكن أن تبنى على القليل الشاذ في بابه . وقد اهتدوا — أعني العلماء — الى أن العرب أكثرت في لغتها ظواهر وقللت ظواهر أخرى والى أن بعض الظواهر تشيع على ألسنة كافة العرب وعامتهم ، وأن بعض الظواهر تختص ببيئات ضيقة قليلة فتولد عند العلماء مفاهيم عملية كالاطراد والشذوذ والكثرة والقلة والكافة والعامة ...

قال ابن جني [4] : أصل مواضع " طرد " في كلام العرب التتابع والاستمرار وأما موضع " شذذ " في كلامهم فهو التفرق والتفرد .

---

1) منهج البحث في الأدب واللغة لانسون وماييه ، / 139 .
2) الخصائص ابن جني 1/ 369 .
3) المنصف 1 / 180 .
4) الخصائص 1/ 97ـ99 والمنصف 1/ 277ـ278 والمزهر 1/ 227ـ229 .

وقياسا على هذين الأصلين جعل أهل علم العربية ما استمر في الكلام
الاعراب وغيره من مواضع الصناعة : مطردا ، وجعلوا ما فارق ما عليه بقية
وانفرد عن ذلك الى غيره : شاذا . وليس مقصود العلماء بقولهم :
وشاذ - الكثرة في عدد الألفاظ المستعملة في الباب وقلتها - كما قد
- انما المطرد هو ما عرف من الطبيعة العامة للعربية في الباب والشاذ
، فيخالف الحال العامة ، وقد يفهم ذلك من تقسيم أحوال الوارد في
: باعتبار الاطراد والشذوذ ، أربعة أضرب :

الضرب الأول : مطرد في القياس ، والاستعمال جميعا .
الضرب الثاني : مطرد في القياس ، شاذ في الاستعمال .
الضرب الثالث : مطرد في الاستعمال ، شاذ في القياس .
الضرب الرابع :: شاذ في الاستعمال ، والقياس جميعا ..

والمتأمل في هذه الأضرب الأربع يجد أن ما جاء عن العربي موافقا
ركثرا في استعمال العرب الفصحاء كان الذي عليه يتكل وبه يحتج في
اللغة ، وهو الأكثر في اللغة ، ولا خلاف بين العلماء في الأخذ به
س عليه وترسمه . وما تفرد وشذ في القياس فجاء مخالفا لبابه ، وشذ في
عمال أيضا كان الذي يرغب عنه ولا يلتفت اليه في تقنين اللغة لقلته في
مال العرب الفصحاء وشذوذه في القياس ، وهو وان كان عربيا فصيحا ،
غمز في الناطق به ، الا أن العلماء أجمعوا على رده ورفضه في تقعيد
، ما دام التوجه العلمي السليم يقتضي اعتماد الأشيع . وبين هذين
ين الطرفين مراتب ، ووسائط تتفاوت قوة وضعفا وفقا لاندراجها تحت
د الكلية في القياس ، ومدى ورودها في استعمالات العرب للغة العربية،
نصوصهم الشعرية والنثرية . وعلى هذا فكلما كان المقيس عليه أبعد عن
س وأقل في الاستعمال كان قليلا لا يحكم بعمومه ، أو شاذا لا يعبأ به ،
رورة لا يقاس عليها (1) .

فاذا فشا الشيء في الاستعمال وقوي في القياس فذلك ما لا غاية وراء ،
منقاد اللغة من رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، ومن النصب بحروف النصب،

المدرسة البصرية ، مكي الأنصاري ، 227/ .

ـ بحروف الجر ، والجزم بحروف الجزم ، ... وغيرها . فان لم يكن كذلك
ي أن يردوا ذلك لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا ، ولم تبق
صمة تضيفه ولا مسكة تجمع شعاعه .. واذا حدث أن وجدت لغتان
ـتان في الاستعمال والقياس وبكل تفرد قوم كثيرون حتى أنهما متدانيتان
لتان أو كادتا ، ثم تعارضتا في قياس وجب أن لا ترد احداهما بالأخرى،
قدم احداهما عن الأخرى ، ومن ثم تعتبر كلا منهما أصلا يقاس عليه
ـى حذوه فبأيهما تكلم المرء كان مصيبا غير مخالف للمطرد في القياس
ـتعمال(1) .

وأوضح مثال على هذا " ما النافية " العاملة عمل ليس عند الحجازيين
العاطلة عند التميميين (2) .

واذا أجاز القياس شيئا وسمع ذلك الشيء عينه قوي الأخذ به ، ولو نزر
غيره أكثر منه في الاستعمال ، الا أنه ليس بقياس ، فالعرب يقولون في
ةالى " شنوءة " : شنئي ، فانه لما قبله القياس لم يقدح فيه تقدم
قلته ، ولأنه لما ورد على وجه لم يرد السماع أو الاستعمال
ـه . وهذا ما دعا أبا الحسن الى جعله أصلا يرد اليه ويحمل عليه
(3) مثل : قتوبة ، وركوبة ، وحلوبة ، قالوا في النسبة اليها : قتبي،
، وحلبي ، لأنهم أجروا " فعولة " مجرى " فعلية " لمشابهتها لها
ـدة أوجه ، وكلها ثلاثية ثالثها حرف لين وفيها جميعا تاء التأنيث . فلما
خال " فعيلة " و " فعولة " هذا الاستعرار ، جرت واو شنوءة مجرى
نيفة فلما قالوا حنفي قياسا ، قالوا شنئي قياسا أيضا ... فاذا قيس على
صح (4) .

ولم يهمل العلماء الأولون الشاذ ، ويدفعوه انما نراهم وصفوه وأولوه
لا يهمش الوجه الصحيح في النطق على المتأدبين ، والمتعلمين ، وحتى
عوا الشاذ صحيحا مستقيما — اذا لم ينبهوا اليه — فينطقون به ويتركون
في لغة العرب الفصيحة وتصاريف عباراتهم وألفاظهم . ولم يدع العلماء

الخصائص 1/ 126،307 و 2/ 10 .
نفسه 1/ 124—125،169 ، 244 و 2/ 10 .
مما كثر استعماله وليس بقياس النسبة الى : ثقيف ، قريش ، سليم ، سعيد
كريم ، يقولون : ثقفي ، وقرشي ، وسلمي ، وسعدي ، وكرمي .
الخصائص 1/ 115—116 و 136 . والمنصف 1/ 278 و 283 .

ـ كما سنري ـ أن اللغة كلها قياس ، لأن هذا الأخير اذا اعوزه السماع لا يعول عليه . ومن ثم فاللغة العربية رواية قبل أن تكون دراية ، والسماع فيها أصل أول اذا ثبتت فصاحة العربي وسلامة لغته .

أما الشاذ في القياس والاستعمال جميعا كتتميم مفعول من ذوات الواو التي هي عين فيها مثل : مقوول في مقول ، ومصووغ في مصوغ ، ومديون في مدان أو مدين ، ومخيوط في مخيط (1) ... وهو لغة تميمية .

وقد أجاز هذا التتميم أبو العباس المبرد ، وسلك فيه هذا المسلك ، وهو وان كان شاذا في القياس والاستعمال فانه لا سبيل الى رده من جهة الثقل ، لأن مقوول ومصووغ ليست أثقل من سوور ، وغوور . وما دام العرب قد نطقوا به وله في أمثلتهم مثل فانه يجوز القياس عليه .

وفيما يتعلق بالشاذ في الاستعمال والمطرد في القياس ، نقول : ما دامت اللغة قدرة كامنة يتيح لها الاستعمال والظروف الوجود ، أي أن تجديد المعاني بالتعبير عنها مجال رحب لحل الممكنات اللغوية التي لم يسبق لها أن تحققت . فأبو الأسود عندما استعمل الفعل الماضي من " ودع " لم يحد عن سنن العربية ولم يستبح حرمتها . الا أن العلماء لما رأوا أن بنيتي الماضي ، واسم الفاعل من : " وذر " و " ودع " لم ترد عن العرب الفصحاء لاعتبارات خاصة ـ سنذكر بعضها فيما بعد ـ قالوا : انهما شاذتان في الاستعمال مطردتان في القياس . فهما وان كانتا لم ترد عن العرب الفصحاء فانها من الممكن تحققه بل مما يقتضيه القياس . ولذا وصفهما العلماء بالشذوذ ولم يردوهما نهائيا ، كما أجازوا استعمال نظائرهما نحو " واعد " و " وعد " و " وازن " و " وزن " من " وزن " و " وعد " . وان لم تسمع بنية الماضي واسم الفاعل منهما . واستعمال ما كثر استعماله أولى وان لم ينته قياسه الى ما انتهى اليه استعماله ، ووجب حينئذ على المقتدي بكلام العرب والمترسم لخطاهم أن يتحامى ما تحاموه في ذلك ، ويجري في نظيره على الواجب في أمثاله ، وليس في شرط المقيس عليه هنا الكثرة (2) .

---

(1) الخصائص 1/ 260ـ261 ، والمحتسب 2/ 460 ، والمنصف 1/ 278 ، وتاج العروس 9/ 267 ، والمزهر 1/ 299 ، وانظر معجم لهجة تميم : غالب فاضل المطلبي ، مجلة المورد ، مج 7 ، ع 3 ، 157/ . (2) الخصائص 1/ 99 و 391 .

وقد يحدث ألا يتحقق الملفوظ على الصورة الممكنة في القياس فيجيء على غير قياس ، ومع هذا يستعمله العرب بكثرة ، ففي هذه الحال لا بد من اتباع السماع الوارد به فيه نفسه ، لأن المتكلم به انما ينطق بلغتهم ويقتدي بهم في جميع ذلك ، ولا يبيح له هذا اتخاذه أصلا يقاس عليه ، ويرجع اليه في غيره نحو قوله تعالى : " استحوذ عليهم الشيطان " ونحو : " أغيلت المرأة" و" استصوبت الأمر " ... فالمقياس الاغلال لأنها بمنزلة استقام ، واستبان ، واستباع ، واستساغ ، ولكن السماع فيها أبطل القياس ، لأن الشيء اذا سمع ممن ترضى عربيته قبل ، فهو لا بد أن يكون قد حاول به وجها من الوجوه وان خفي عنا تعليل هذا الوجه ، ومع هذا فان البيت الشاذ ليس بحجة على الأصل المجمع عليه (1) لأنه وان جاء عن عربي فصيح ثقة فان بناء كليات اللغة لا يتأتى الا باعتماد الأشيع والأكثر من الظواهر والأقيس ومن ثم لا يجوز لنا أن نقول : استقوم ، واستبيع ... وانما نحفظ ما ورد عن العرب الثقات وفي القرآن الكريم ولا نقيس عليه .

والفرق بين هذا الضرب والضرب الثاني هو أن استعمال " ودع " و" وذر " واسم الفاعل منهما مراجعة أصل ، وايجاد ممكن من الأصل (المادة الأصلية) واعلال استحوذ واستونق ... ونحوهما من المصحح ترك أصل ، فهو خروج بغير قياس عن الأصل وبين مراجعة الأصول (وهي الأصح والأثبت) وبين تركها (وهو الأضعف والأردأ) ما لا خفاء فيه (2) .

وبما أن اللغة تتسم بالطابع الاجتماعي فانه لا يمكن أن تضبط بقوانين رياضية أو احصائية دقيقة جدا ، فهي في تولد أو في تفرع وتطور دلالي ملائمين بمرونة موجهين حينا ، وعفويين أحيانا . ولهذا لا نعجب اذا وجدنا علماءنا ببساطة وسائلهم لا يستطيعون في بعض الأحيان اصدار حكم قطعي على ظاهرة لغوية ما .

ففي حين نجد فئة من العلماء تركز على الاستعمال (3) وفي حين آخر

---

(1) المزهر 1/231 ، وانظر المنصف 1/ 278 .

(2) الخصائص 1/ 396 .

(3) انظر كتب : الفصيح لثعلب ، وأدب الكاتب لابن قتيبة باب تقويم اللسان، واصلاح المنطق لابن السكيت .

نجد فئة أخرى تركز على القياس وتتعصب له وترى فيه المعيار الأسلم لضبط هذه اللغة ، لأن الشواذ من كلام العرب كثيرة [1] فقد تقف في ظاهرة لغوية واحدة على قياسين مطردين تكون مخيرا تعتمد أيهما شئت ومصيبا في ذلك[2] أولأن الفصيح قد يسمع غيره مما ليس فصيحا وقد طالت عليه وكثر لها استماعه فسرت في كلامه ثم تسمعها أنت ، وقد قويت عندك في كل شئ من كلامه غيرها فصاحته فيستهويك ذلك إلى أن تقبلها منه ،على فساد أصلها الذي وصل اليه منه [3] ... وقد يحيل صاحب اللغة اذا لم يكن له نظر كثيرا منها وهو يرى أنه على صواب [4] وقد ينطق العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلمون بغيرها ويدعون المنقاس المطرد المختار . وعليه لا يستقيم قول من يقول : هذا أفصح من المتروك ، لأن الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله[5]

وعلى هذا فترك العرب استعمال الماضي واسم الفاعل من " ذ ر " و" ود ع " واقتصارهم على " ترك " وتارك " ليس يعني أن المستعمل أفصح من المتروك أو أنه أصوب.فهم قد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم عنه بفصيح آخر مثلا ، أو لاستثقال هذا واستخفاف ذلك .. الخ ولهذا فرد كثير من الألفاظ العربية بحجة أنها لم ترد في كلام العرب الفصحاء أو جرت شذوذا في كلامهم وهي صحيحة القياس لا طائل دونه ، ووجب قبولها لأنها حجة ولو قلت في بابها ، ثم ان العلماء لم يكونوا في كل الأحوال قادرين على تعليل الظواهر اللغوية وتفسيرها . قال ابن جنى ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا ... وعلى ذلك قدم الناس في أول المنثور والمقدود ما يتدارك بالقياس والأمارات ثم أتلوه (أتبعوه) ما لا بد له من السماع والروايات " [6] . وقد اهتم بعض العلماء كالمبرد بالقياس اهتماما مفرطا مما دعاهم الى رد بعض الروايات لأنها لا تتفق وقياسهم وغلطوا القراء ولحنوهم ، وعدلوا الكلام المروي ، وقد قوي عند بعضهم حتى

---

(1) الكتاب سيبويه 2/ 115 .
(2) الخصائص 1/ 125 .
(3) الخصائص 2 / 26 .
(4) الخصائص 3/ 198 .
(5) المزهر 1/ 208 .
(6) الخصائص 2 / 42 - 43 .

قال : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، .. وما لم يكن في كلامهم فليس له معنى في كلامهم "(1) فضريب من ضرب من كلامهم ، لأنه مثل : جعفر ، وظرف خالد ، وحمق بشر من كلامهم كذلك ، لأنهما مثل : قام زيد وكذا ودع ، ووذر ، ووادع ، ووأذر من كلامهم لأنهما مثل واعد ووازن ووزن ووعد وكان ما قسته عربيا كالذي قسته عليه .

ويدخل في هذا المجال ما أدخله العرب في كلامهم من الألفاظ الأعجمية فقد استطاع العرب بما تمتلكه منظومة لغتهم الصوتية والصرفية والنحوية أن يثروا لغتهم بألفاظ جديدة لمعان جديدة بتكييفها في الغالب مع طبيعتها وخصائصها ، فصارت هذه الألفاظ المعربة جزءا من ثروتها اللفظية يضاف إلى المعربي الأصل فيها . " يؤكد هذا أن ما أعرب من أجناس الأعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها (بتعريفه مثلا) ... ذلك أنه لما دخلته اللام (لام التعريف) في نحو الديباج ، والفرند .. أشبه أصول كلام العرب أعني النكرات فجرى في الصرف ومنعه مجراها " (2) .

والمتأمل في الألفاظ(3) التي وصفوها بالتعريب يجد أن العرب لم يتناولوا اسما من أسماء الأجناس في حروف الأعاجم والأعلام في لسانهم على ما كان فيه مما ليس في حروف العربية إلا غيروه ، وتصرفوا في الكلمات بالحذف والزيادة طلبا لتحقيق الجنسية اللغوية ، وقد تركوا بعض الأسماء الأعجمية على حالها إذا كانت حروفها من جنس حروفهم ، وإن لم تكن من أبنيتهم نحو : خراسان على " فعالان " ، أو يلحقوه بأبنيتهم مثل جرم ، ألحقوه بسلم إلى غير ذلك من كيفيات التصرف التي يمكن الرجوع اليها في مظانها (4) . ومن ثم قيل : أن أحسن كلام العرب ما بني من الحروف المتباعدة المخارج وأخف الحروف حروف الذلاقة ، لذا لا نجد في الغالب الأعم رباعيا أو خماسيا يخلو منها قال الخليل : " فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية ، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف واحد

---

(1) الخصائص 1/ 114 و 2/ 25 ، والمنصف 1/ 180—182 .
(2) الخصائص 1/ 357 ، (3) انظر أدب الكاتب / 383—390 ، والمعرب للجواليقي ، وشفاء الغليل ، وغرائب اللغة الأب رفائيل نخلة ، والألفاظ الفارسية المعربة ، أدي شير ... وانظر فقه اللغة ، الثعالبي / 198—199 . (4) الكتاب سيبويه 4/ 303—304 . والمعرب الجواليقي / 7—12 . المزهر السيوطي 1/ 286 . شفاء الغليل ، الخفاجي / 4—7 .

أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب (1) .

وقد جاءت في أشعار العرب ألفاظ كثيرة مما قيل أنه معرب (2) واشتقوا منها صيغا جديدة . وقد نفى بعض العلماء أن يكون في العربية معرب أو من غير لغة العرب ، وما قيل أنه معرب هو محض اتفاق وقع بين اللغتين وراحوا يحاولون ارجاع الألفاظ المعربة الى أصول عربية ووقف بعضهم مترددا بين بين . والذي يقره البحث العلمي أن في العربية وفي القرآن الكريم معربا ، لكن معرفة المعرب وارجاعه الى أصله تبدو في بعض الأحيان مشكلا والبحث فيها يبدو صعبا . ولا يدل هذا على أن العرب صحفوه أقبح تصحيف على حد قول أدي شير (3) انما يدل على قدرة العربي واقتداره لغته وتفاعله معها ووعيه لها وعلى عبقرية لغته بنظامها الطيع الفذ الذي أعطاه امكانية نادرة على صهر الألفاظ المختلفة من لغات مختلفة حتى غدت هذه الألفاظ وكأنها عربية الأصل .

وتزداد هذه الصعوبة وهذا الاشكال تعقيدا إذا كانت أصول اللفظة الثلاثية أو الرباعية مثلا تشبه أصول اللفظة العربية وزنتها تشبه زنتها . وقد نجد بعض العلماء يصرون على عربية كلمة أو حتى على عجميتها ويذهبون فيها مذاهب شتى تنبيء عن اضطراب في البحث والتأصيل وعدم الإحاطة باللغة ككلمة " هيت " من قوله تعالى : " هيت لك " قيل؛ أنها هلم لك بالقبطية ، وقيل هي بالسريانية ، وقيل هي بالحورانية ، وقيل هي بالعبرانية ، وأصلها هيتلج أي تعاله (4) .

وقد رأى بعض العلماء أن وقوع لفظ في العربية وغيرها أو مقاربة لفظ عربي للفظ أعجمي في بنيته الصوتية أو في دلالته يقوم دليلا على أن هذا اللفظ منقول عن غير العربية .

---

(1) العين الخليل 1/ 52-54 .
(2) انظر المعرب للجواليقي / 16 ، 18 ، 21-23 ، 31 ، 43 ، 47 ، 48 ، 53 ، 54 ، 59 ، 62 ، 72 ، 80 ، 83 ، 98 ، 101 ، 115 ، 214 ، 339-340 .
(3) الألفاظ الفارسية المعربة ، أدي شير / 3 .
(4) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي 1/ 140 .

والذي يظهر لنا في هذا الأمر أن اللغات المتجاورة تقترض بتطاول الأزمنة والعصور من بعضها البعض ألفاظا . فقد تأخذ الفارسية ألفاظا من اللغات المحيطة بها كما تأخذ العربية ، ومن ثم فرب لفظ في الفارسية يعتقد أنه أصل للفظ عربي وهو في الحقيقة لفظ أصيل في العربية الغابرة تسرب الى الفارسية في عصر من عصورها الماضية . " ودعوى التعريب لا تصح إلا بأدلة واضحة من الإشتقاق أو التاريخ ، أو خروج الكلمة عن الخصائص التي تمتاز بها الكلمة العربية كاجتماع القاف والجيم أو الطاء والنون في كلمة أو خلو كلمة خماسية من أحد حروف الذلاقة (1) ، ثم إن العرب لم يكونوا طيعين للانقياد والتأثر خلافا لما ذهب اليه أدي شير (2) حتى نؤكد الاقتراض .

ولعدم مراعاتهم لهذه الجوانب ولاعتقادهم أن العربية اقترضت أكثر مما أقرضت اعتبروا ألفاظا كثيرة تشاكلت أبنيتها الصوتية مع ألفاظ فارسية أو سريانية أو تقاربت دلالاتها معربة .

إن القطع بأن هذا اللفظ أو ذاك معرب لاعتبارات حضارية أو جنسية يبقى بعيدا عن الصواب وعن العلمية حتى يتحقق له السند العلمي . فقد أحصى الأب رفائيل نخلة السيوعي مثلا في مؤلفه " غرائب اللغة العربية " كلمات عربية عديدة اقترضتها لغات أخرى في فترات متتالية وخاصة في عصور ازدهار الحضارة الاسلامية العربية ، في العلوم التي حازت فيها أمتنا قصب السبق مما اضطر الأمم الأخرى الى ترجمتها والاستفادة منها .

حلل عبد الوهاب عزام أمثلة للألفاظ التي قيل بأنها معربة لتقارب حروفها ولتوافق دلالاتها نذكر منها كلمة " الحرباء " : قيل : انها معربة عن " خرباء " بالفارسية وهي كلمة مركبة من " خور " بمعنى الشمس و " بان " بمعنى الحافظ . ويرد عزام هذا الزعم بقوله : " ولو كانت الحرباء تعرف في بلاد العجم ولا تعرف في بلاد العرب لكان لهذا التفسير وجه (3) .

---

(1) المعرب للجواليقي (مقدمة المحقق) ص/ 4 .
(2) الألفاظ الفارسية المعربة ، أدي شير / 3 .
(3) مقدمة عزام للمعرب ص/ 4 .

وهذه المفردات القليلة التي وردت في شعر العرب وفي كلامهم ، وجاء شيء منها في القرآن الكريم ، ترجع في حقيقتها الى ظاهرة الاقتراض اللغوي بين اللغات المتجاورة من بعضها البعض على امتداد الزمن ، وهي خاصية ما انفكت تختص بها كل لغة حية في تطورها وثرائها اذا روعي فيها الإبقاء على الخصائص المميزة للغة المنقول اليها اللفظ أو الألفاظ ، لأن عدم مراعاة نظام اللغة وحرمتها يجعل هذه الظاهرة — ظاهرة الإقتراض — داء ووبالا . واذا فقد أهلها — زيادة على هذا — شعورهم بالإنتماء وبالقومية سارت اللغة الى المسخ والتشوية وبالتالي الانقراض وطمس معالمها .

والألفاظ المعربة التي استعملها القرآن رغم وجود مرادفات لها في العربية لو أننا استبدلناها بها لاختل المعنى المقصود والمرمى المأموم ، ولزالت بعض سمات الحسن والجودة فهي متمكنة في سياقاتها بمراعاة ما يسبقها وما يليها . وقد كانت هذه المفردات القليلة كافية عند بعض العلماء المحدثين ليطعنوا في منهاج اللغويين القدامى وفي تحديد مفهومهم للفصاحة اللغوية وما يقيسهم لها [1] ذاهبين الى أن اقتراض مفردات من لغات أخرى واستعمالها في شعر العرب وكلامهم وفي القرآن الكريم يتداعى معه معيار الفصاحة ، وتظهر هشاشته لدى أول امتحان — حسب زعمهم — وتسقط معه كل الاعتبارات التي حسب الأقدمون أنها فوق الشبهات ، ويتأكد لهم أن شعراء العرب الفصحاء الذين يعتد بأقوالهم لم يكونوا بمعزل ومنجى عن التأثر بلغات الأمم المجاورة لهم [2] .

فقد وجد هؤلاء العلماء المحدثون سبيلا الى المساس بأصالة البحث اللغوي للعربية وبطرق التحري والاستقراء والاستنباط والضبط التي سلكها اللغويون الأقدمون ، إذ إن الدراسات المتحمسة لمثل هذه الآراء ، أو المدافعة عنها تتفق في أن اقتراض اللغات بعضها من بعض أمر واقع مسلم به ولا جدال حول كونه سنة لا محيد عنها لأي لغة من اللغات بما فيها لغة العرب . وقد رأينا قبل قليل بعض أقوال العلماء الأقدمين في طرق التعريب التي انتهجها العرب وفي التنبيه عليها .

---

(1) المنطلقات التأسيسية ، / 92-94 .
(2) نفسه / 94-96 ، وفجر الاسلام / 25 — 29 .

واستشهادهم بأشعار فيها ألفاظ معربة لا يدع مجالا لطاعن في أنهم لا ينكرونه،وقد توسعوا في القول بالمعرب ـ كما ذكرنا آنفا ـ توسعا غير صحيح في بعض الأحيان .

قال أولفنسون أبو ذؤيب : " وقد اتصل العرب بالعجم في أوقات مختلفة في الجاهلية ، ولكن ذلك لم يؤد الى تغيير كثير في لهجاتهم كما اتصلوا بهم بعد الاسلام ، وبقدر ما يكون الاتصال وثيقا تكون التغييرات التي يحدثها في اللغة العربية كبيرة وعظيمة " (1) . هذا وجه من الوجوه المعتدلة نوعا ما في القضية ، ومن الوجوه المتحمسة لإثبات التأثير الأجنبي على اللغة العربية ، أحمد أمين : فقد نفى أن يكون العرب أخذوا ممن حولهم علما منظما ، كما يأخذ العرب في العصر الحديث عن المدنية الغربية (2) . وقال الدكتور جواد علي : " وقد لاقت القبائل العربية مقاومة شديدة وعنتا شديدا من الحكومات التي حكمت الشام، فقد وقفت تلك الحكومات منذ الدهر الأول لها بالمرصاد وأبت أن تسمح لها بالتوغل في داخل أرضها التي تحكمها حكما مباشرا ، لأنها كانت تهاب الأعراب وتخشى من البداوة ، إذ لم يكن من السهل على البدو تغيير سننهم واقتباس سنن الحضر ، ثم إنهم كانوا يغيرون على الحضر ، وعلى الحدود لأخذ ما يجدونه أمامهم . وقد ترك غزو الأعراب للحدود أثرا سيئا راغبا في نفوس الحكام ، جعلهم لا يتسامحون في دخول البدو الى أرض الحضارة ما دامت للحكام قوة ، ولم يتساهلوا معهم إلا بالوصول إلى حدود الحضارة ومشارفها ، وذلك لأنهم نصبوهم حرسا لهم يمنع القادمين الجدد من البادية من الدنو من أرض الحضارة ، ويدافع عن الحدود ساعة الخطر ، ويهاجم مع القوات النظامية للحكومة الحاكمة أرض العدو في الحروب ، وفي أيام السلم لإبقاء الرعب والفزع في نفس العدو واكراهه على تنفيذ أي مطلب يراد منه " (3) .

فهل بقي بعد هذا القول أدنى ريب في أن العرب المتصلين بغير قومهم لم يندمجوا فيهم ، ولم يتحضروا تحضرهم ولم يتركوا بدويتهم وعنجهيتهم

---

(1) تاريخ اللغات السامية ، 214 . الفكر العربي، 26 س، 4 / 29
(2) انظر فجر الاسلام ، 10ـ 29 .
(3) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 1/ 549 .

وجفاءهم ؟ . فاتصالهم بهم كان أقرب الى العزلة الحضارية والحصار الثقافي منه الى الاختلاط والاندماج والتأثر مما يمكن للمرء أن يجزم بأن سكان أوسط شبه الجزيرة ، وداخلها كانوا في عزلة حقيقية بعيدة عن كل تأثير وهو ما لم يختلف فيه العلماء القدماء مع المحدثين .

واذا ثبت أن اتصال النازحين المهاجرين كان على هذه الشاكلة من التأثر فان الاتصالات الأخرى العارضة — مثل التجارة — تكون أقل شأنا وأضعف أثرا . ولذا لم يهتم اللغويون القدامى بها ، وانما اعتدوا الاتصال الطويل والاحتكاك المستمر الخاليين من التحفظ والتصلب يطبع نفوس العرب المتصفين بهذه الصفات بسرعة الانقياد للغير وسهولة انصياع ألسنتهم للنطق بألفاظ وأقاويل سائر الأمم المطيفة بهم (1) .

وعلى هذا الأساس وعلى هذا النحو من الاتصال الذي سبقت الاشارة اليه ، يمكننا أن نقرر أن اتصال العرب بغيرهم من الأمم الأخرى لم يكن له تأثير كبير على لغة العرب وفصاحتهم بل كان ضئيلا محدودا جدا جدا يتمثل في دخول بعض الكلمات لأشياء غير معروفة لديهم في غالبيتها ، دعت الحاجة اليها ، فاضطر العربي الى استعمالها والاستفادة منها ، فاستعار معها ألفاظها وأسماءها وعربها . قال الدكتور جواد علي : " ... ولكن وجود ألفاظ عراقية قديمة في لغة أهل يثرب ، والمناطق الأخرى التي تقع الى الشمال منها خاصة في الزراعة يدل دلالة واضحة على أثر العراق في أهل هذه المواضع ، فقد يكون قسم منه من بقايا أثر أولئك العراقيين الذين نقلوا الى هذه الأماكن ، وقد يكون قسم منه من مؤثرات أخرى وقعت قبل هذا الحادث " حادث فتح بنو نبيذ لأراس من الحجاز واستيطان بعضهم بها (2) .
وقال في موضع آخر : " وقد وقف الأعراب وهم السواد الغالب ، فقد بقوا عند هذه الحدود (بين العرب والأمم الأعجمية) على سنن البادية مخلصين لها مؤمنين بحق الغزو والقوة الا من اشتم رائحة الحضارة وتنفس

---

(1) راجع الاطار المكاني الجغرافي في الفصل التمهيدي .
(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 1/ 619 .

قليلا من ريح الحضارة ..." (1) .

ولا نملك بعد هذا إلا أن نقول مع الدكتور أحمد رفيدة (2): وهذا القول — مع ما يبدو عليه من المبالغة والادعاء والبناء على الظن — يلجأ الى الدليل اللغوي الوحيد الذي يلجأ إليه عادة المتحمسون لإثبات إتصال العرب بغيرهم ، وتأثيرهم فيهم ، والمحاولون نقض قول الأقدمين بعزلتهم ، وهذا الدليل هو وجود كلمات غير عربية في لغة العرب : الشعر والنثر وفي القرآن الكريم ، وعلى أن هذه الاستفادة — فيما يبدو لنا — قبل الاسلام وصدره تعتبر دليلا على استقلالهم الفكري وتفردهم القومي واعتزازهم بلغتهم ومقاومة كل دخيل . واذا اضطرت الى هذا الأخير أدخلته في صميم اللغة العربية وفي نظام بنية كلماتها وتراكيبها وفي نطق أصواتها وأسرار فصاحتها وبلاغتها حتى أصبح معظم الكلمات لا يمت الى أصله بسبب ولا يدل عليه في اللفظ دليل .

وذلك لأن العربي قد يدخل لفظا أعجميا في كلامه ويعطيه حكم اللفظ العربي الأصل . ومن ثم نجد بعض الكلمات الأعجمية تدخل العربية بأسمائها الأعجمية فاذا انقضى زمن عليها ودارت على ألسنة الفصحاء دخلت في الرصيد اللغوي للسان العربي حتى ليخيل الى من لا يعرف أصلها أنها عربية الأصل والنجار .

ولم يكن ليتوقف التعريب عند هذا الحد الضئيل من الكلمات ، اذ نجد أن احتكاك اللغة العربية الواسع منذ الفتوحات بلغات أخرى وخروجها من الجزيرة شيئا فشيئا غيّر من طبيعتها وخصائصها ، وكان على العصور الاسلامية المتعاقبة الأولى أن تضيف مادة كثيرة في ميدان المصطلح الفني والعلمي حيث اعتمد العلماء الأصول العربية للألفاظ حينا ، وأخذوا بمبدأ التعريب حينا آخر ، وربما توسعوا فأخذوا الكلمة الدخيلة فأجروا عليها الطابع العربي . فالفارسية مثلا ظلت قرنا كاملا في شرق الدولة لسان الحكم والإدارة ، وكذلك كان الحال مع اليونانية في غربي الدولة . وقد ذكر الجاحظ مدى تأثير

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 16/ 551 .
(2) أصالة اللغة العربية وعلومها ، مجلة الفكر العربي ، ع 26 س 4 مارس 1982 / 30 .

اللغة الفارسية في الجيوش العربية بما أورده من ألفاظ معربة في لهجة الكوفة.
كما أثرت في عربية العراق تأثيرا بعيد المدى ، وكثرت في العربية الفصحى
الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، واصطدمت العربية باللغة القبطيـــة
في مصر وبقيت اليونانية اللغة الرسمية ، ولم تظهر العربية في الادارة إلا في
سنة 87 هـ .

وقد بلغ الإختلاط بالأعاجم في عصر الفتوحات حدا كان فيه كثير مـــن
العرب أنفسهم يتكلم الفارسية حتى نراها تدور على ألسنتهم في مجالســـهم .
وشاعت ألفاظ فارسية كثيرة في لغة الحياة اليومية وخاصة ما اتصل منها بأسماء
الأطعمة والشراب والأدوية والملابس ودخل في هذا العصر بعض ألفـــاظ
هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات ، كما دخل بعض ألفاظ يونانية
أو غيرها من اللغـــات .

الفصل الثالث

الاعراب

ترد لفظة الإعراب بمعنى (1) الإظهار والإبانة والكشف عن الشيء . فالمرء الذي يكشف عن أغراضه كشفا بينا فهو المعرب (بخفض الراء) ، والشيء الذي يكشف عنه ويظهر للعيان وللفهم هو المعرب (بفتح الراء) . فالحيوان يعرب بصهيله ، والطفل يعرب بترديداته الصوتية عن مطالبه ، وكل شيء كان محجبا أو مستورا ثم كشف عنه ، فهو معرب، والفاعل لذلك معرب ، والاعراب هو الابانة عن المعاني والأغراض بالألفاظ . والفصيح من الكلام هو المعرب ، أي الذي يفصل فيه بين المعاني المشكلة فيفهمه العربي السليقي ، وكل من عرف نظام العربية وسننها ، وبهذا المعنى تتقارب مدلولات الكلمات الثلاث التالية : / فصح / و / بلغ / و / عرب / بل تصبح في بعض معانيها الجزئية ، كأنها مترادفات .

والإعراب هو التعبير عن المعاني والأغراض بألفاظ عربية وفق سنن العربية دون زلل ولا خطل فيبلغ المرء غايته ومعانيه في أسلوب سليم مبين ينقل به عواطفه وخواطره وتجاربه الى الآخرين ويفهمون عنه ويؤثر فيهم مراعيا في كلامه إخراج الحروف على حقيقتها ، وإدراج الألفاظ في قوالب صحيحة تحمل فائدة .

والاعراب هو الفارق بين المعاني التي تعتور الاسم والفعل ، وبه يميز بين المعنيين المختلفين المتكافئين اذا استوت حالاهما فيوقف به على أغراض المتكلمين (2) . ومن ثم وجبت معرفته وفقهه لضبط المعاني المختلفة المتشاكلة أمثالها من اللبس والغموض والتأويلات الخاطئة . فيعرف الخبر الذي هو أصل كل كلام ، ويميز الفاعل من المفعول ، والمضاف من المنعوت ، والتعجب من الاستفهام ، والصدر من المصدر ، والنعت من التأكيد ، والذم من المدح ،

---

(1) فعلت (أفعلت ، الزجاج ، / 50 . الايضاح في علل النحو / 91 . الخصائص 1/ 36_37 . معجم مفردات ألفاظ القرآن ، / 340 . اللسان / مادة عرب .

(2) انظر : القرطين ، 2/ 159 . الايضاح في علل النحو ، / 67_68 . الصاحبي / 66 ، 77و 190 . وذكر ابن قتيبة أنه قد يفرق بين المعاني بحركة البناء ، فيقولون : مفعل للآلة ، ومفعل للموضع ، وفعلة لفاعل الشيء ، وفعلة اذا كان موضع الشيء .

والنفي من الاثبات .

وقد خص الاعراب في تعارف النحويين بالحركات والسكنات المتعاقبة في أواخر الكلم . قال الفاكهي : " حد الاعراب : أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمة ، حقيقة أو مجازا " (1) .

فاذا قرأنا : أكرم عبد الله أمة الله وأكرم أمة الله عبد الله ، وأمة الله أكرم عبد الله ، باظهار الحركات الاعرابية ، عرفنا معاني كل جملة رغم اختلاف مواضع أجزائها ووحداتها ، واتضحت الأغراض واللطائف البلاغية المختلفة بغير اختلاف أصل الفائدة أو الخبر ، المتمثل في أن فعل " أكرم " وقع من فاعل هو (عبد الله) وشمل هذا الفعل مفعولا هو (أمة الله) .

ولو قرأنا هذه الجمل بغير اعراب ، وبدون أن يكون هناك في السياق أو المقام ما يكشف المعنى لجاء الكلام مبهما وخفي الغرض الذي تحمله كل جملة على حدة ، ولم يعد للتقديم والتأخير مسوغا ، لأن الكلام قد يعمد فيه الى الفصل بين الفعل والفاعل ، وقد يتطاول بينهما حتى تقع سكنات بين الفعل والمفعول فيلتبس المعنى على المتلقي ، وبالحركات الاعرابية يتيسر عليه الفهم وادراك المعاني المبلغة اليه أو التي يتطلع الى معرفتها .

ولو سمعنا أحدا يقول : هذا قاتل أخي ، بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتل أخي ، بالاضافة ، لعلمنا أن الأول لم يخبر عن حدوث القتل ، ودل الكلام على أن المشار اليه لم يقتل ، ولعلمنا أن الثاني أخبر بوقوع القتل ودل الكلام على أن المشار اليه قد قتل . ولو أسكن كل منهما ولم يظهر الاعراب فيهما ، لما جاز الحكم على الشخص ، ولاحتيج الى تحريات واجراءات غير لغوية لفهم الغرض .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم " فقراءة الحديث بجزم الفعل " يقتل " ينتج معنى يختلف عن المعنى الذي يترتب عن رفعه اختلاف الموت والحياة (2) .

ولو سمعنا : ما أحسن زيد ، بدون حركات اعراب ، لم نعلم من قائله شيئا ، لاحتماله معاني كثيرة كامنة .

---

(1) الحدود في النحو ، الفاكهي (ضمن ثلاث رسائل في الحدود) ، / 17

(2) انظر : القرطبي ، 2/ 159 ، وكتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف ... ، / 185

لا تظهر إلا بالاعراب ، اذ يحتمل أنه يريد به : التعجب من حسنه ، أو يريد به الإستفهام عن أي شيء أحسنه ، ويحتمل أن يريد به الاخبار بنفي الاحسان عنه ، فالألفاظ دالة على المعاني بأعيانها مغلقة عليها حتى يكون (الاعراب) هو الذي يفتحها ، والأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يستبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه (1) .

فقد يستطيع المرء أن ينقل الخبر أو التجربة المعيشة من واقع الى كلام ، لكن يبقى ما تقتضيه الأحوال محتاجا الى ما يدل عليه ، وكل معنى لا بد أن تكتنفه أحوال تحضنه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود ، لأنها صفاته يدل عليها بأحوال وكيفيات من تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير ، أو حذف أو حركة اعراب ، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة قال ابن جني : فهناك من لا يعرب كلامه بالحركات ، أو بما ينوب عنها ، فيلجأ الى زيادة حرف أو كلمة أو كلمتين ، فيكون ذلك ، أخف عليه من تجشم اختلاف الاعراب ، واتقائه الزيغ والزلل ، فيقول مثلا : ضرب أخوك لأبوك ، فقد يصل باللام هذه الى معرفة الفاعل من المفعول ، ولا يتجشم خلاف الاعراب فيها لمعرفة المعنى (2) . ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي ، بحسب تفاوت الدلالات على تلك الكيفيات فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن (3) فاعتبار تلك الأحوال يظهر في الاعراب بكيفيات مختلفة :

1 — التعجب : ما أحسن زيدا (بنصب الكلمتين) .

2 — الاستفهام: ما أحسن زيد؟ (بالضم والكسر) .

3 — النفي : ما أحسن زيد (بالنصب والضم) .

ولولا هذه الكيفيات في نطق وتأدية هذه الجمل ، لالتبست على المخاطبين معانيها ، ولما عرفت كيفية التعجب من الاستفهام ولما عرفت حال النفي من التعجب

---

(1) دلائل الاعجاز ، / 23 — 24 .
(2) الخصائص ، 2/ 32 .
(3) المقدمة ، / 1079 .

ولقد كان العرب يتأملون كلامهم على بصيرة فيفرقون بين المعاني في مختلف الأحوال والملابسات باعطائه حقه وحصته من الاعراب . فهذا أبو عبد الله محمد بن العساف العقيلي التميمي سأله ابن جني : كيف تقول : ضربت أخوك ؟ فقال : أقول : ضربت أخاك ، فأداره على الرفع فأبى أبو عبد الله وقال : لا أقول أخوك أبدا ، فقال ابن جني : فكيف تقول : ضربني أخوك ؟ فرفع ، فقال ابن جني : ألست زعمت أنك لا تقول : أخوك أبدا ؟ فقال : ايش هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام [1] . فهل جهتا الكلام الا بساط الحال ، الذي يتوجب على المتكلم أن يركب كلامه تبعا له . فالعرب يعرفون مواضع الكلام وتغير الاعراب لتغير المعنى والغرض .

واذا كان النحويون قد اصطلحوا على حركات أواخر الكلم الدالة على المعاني في الأفعال والأسماء والكاشفة عنها بالاعراب ، فانه يجب أن نلاحظ أنه ليست كل حركة اعرابا كما أنه ليس كل الكلام معربا [2] ، ففي قام زيد وقعد أحمد ، وقام موسى ، وقعد عيسى ، يكون دليل الرفع قام وقعد ، لأن الكلام لا يتطاول بين قام (الفعل) و"زيد" أو" موسى" فاعله . لكن اذا كان الفعل متعديا وكان نظام العربية يتيح للفعل والاسم حرية التحرك داخل الجملة ، فانهم يشفقون على المخاطب من الإبهام ، ومن أن يجهل معنى الاسم (فاعلا أو مفعولا) أو أن يغيب عنه معنى الفعل الذى نأى عن فاعله ، تقديما أو تأخيرا ، وبَعد مكانه منه فمنعوا عن المخاطبين الالتباس فقالوا مثلا : ضرب زيد عمرا وضرب عمرا زيد ، والذى يقول ضرب موسى عيسى لا يجيز في موسى الا الرفع لأنه لما عدمت منه حركات الاعراب قضى عليه بالأصل ، والأصل تقدمة الفاعل [3] .

وقد بلغت أهمية الاعراب وفعاليته حدا بعيدا حتى كان عنصرا من عناصر التوليد والقياس يساعد مؤلف الكلام فضلا عن صيانة معانيه وأغراضه من اللبس على التوليد وتنويع الجمل بحسب الأغراض ، فبجملة "ما أحسن زيد" نستطيع أن نعبر عن أكثر من كيفية أو حال بتغيير الحركات الاعرابية .

---

(1) الخصائص 1/ 76 ، وانظر / 250 .
(2) الايضاح في علل النحو ، / 91 .
(3) اقسام الأخبار أبو علي الفارسي ، المورد مجلد 7 ، ع 3 ، 1978/ 211 ـ 212 .

والبيت اذا تجاذبه أمران : زيغ الاعراب ، وقبح الزحاف ، فان الأعراب الجفاة الفصحاء ، لا يحفلون بكسر البيت وقبح الزحاف اذا أدى الى صحة الاعراب رغم أن الشاعر اذا اضطر الى أن يصرف ما لا ينصرف أو الى أ ن يصنع بالمعتل ما يصنع بغيره من غير المعتل فعل (1) .

وقد قيل : إن أفضل العلوم بعد : علمُ اللغة وإعرابُ الكلام " لأن الاعراب لو أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبينه ، ويوضح الغرض ، ويكشف اللبس ، لأن الذي يضع كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير زائل عن الاعراب ، وزائغ عن الصواب ، ومتعرض للتلبيس والتعمية ، فلا يفهم عنه شيء . فبالاعراب يحصن المرء منطقه وكلامه من الزلل والايهام ويضمن له نوعا من القبول والاستحسان لدى المتلقي ، ولأن القرآن يقرأ به ، وعليه تروى الأخبار والأشعار وبه يزين المرء كتابه ويحلي لفظه . قال أبو سعيد البصري الشاعر : (2)

النحو يطلق من لسان الألكن والمرء تعظمه اذا لم يلحن
فاذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما وعبد الملك بن مروان على تقويم اللسان وطلب الاعراب الى درجة تشبيه الكلام غير المعرب بالكساء الجديد المرقع ، وهو وان كان ضروريا لقارئ القرآن ولمنشئ الكلام بلا خلاف ، فان بعضهم ذهب الى أن تعلم العربية واتقان اعرابها وخصائصها من سمات كمال الرجولة والمروءة ، وان من عدم ذلك وضع ونقصت هيبة الناس له (3) .

فبالاعراب يستقيم منطق المرء ويسلم كلامه من العيب واللبس ويهتدي الى أن يقيم حروف القرآن وألفاظه وتراكيبه وكلام العرب على هيئتها الصحيحة وصورتها الموضوعة لها في وضوح المنطق وظهور المخارج والصفات وخلو التلاوة من التحريف الذي يذهب بكثير من حلاوة القرآن وسحر بلاغته لدى القارئ ولدى السامع ، ولا يدرك معانيه ومراميه ، وتحقيق الاعراب يؤدي الى تبليغه للآخرين على الوجه الذي أنزل عليه وكما أريد له أن يقرأ ويتلى .

---

(1) انظر المنصف ، ابن جنى 1/ 81-114 ، و2/ 67-68 ، والخصائص 1/ 331
(2) الفاضل ، المبرد ، 4/ .
(3) انظر : البيان والتبيين ، 2/ 219 ، والفاضل ، 4/ ، وأملي الزجاج ، 117/ وكتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف ، ... 186/

وبالاعراب نستطيع أن نولد تعابير جديدة . نطاط الخشكنان[1] داخل في كلام العرب باعرابه ، ولأنه أجرى في ألفاظة مجرى أصول كلام العرب .

أشار ابن الأثير الى أقسام من الكلام رأى أنها غير محتاجة الى الحركات الاعرابية في افهام المعاني وتبليغها قال : ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له " قوم " باثبات الواو ولم تجزم لما اختل في فهم ذلك شيء ؟ وكذلك الشرط ، لو قلت : ان تقوم أقوم ، ولم تجزم لكان المعنى مفهوما والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء ، فان قلت :

- جاء زيد راكبْ
- وما في السماء قدر راحة سحابْ
- وقام القوم الا زيدْ

لزمت السكون في ذلك كله ، ولم تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد ، وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه ، وفي المبتدأ والخبر وغير ذلك[2] .

والمتأمل في هذا الكلام لا يجد عناء كبيرا في الرد عليه ودفعه ، اذ معلوم أن العربي لا يبدأ بساكن ولا يقف على متحرك . وانقاص حركات أواخر الكلم الأخيرة في الجمل لا يؤثر في المعنى ما دامت أجزاء الحشو فيها متحركة . فنحن اذا قلنا ضرب زيد محمد برفع زيد وتسكين محمد ، ثم نقول : ضرب محمدا زيد بنصب محمد وتسكين زيد لا يلتبس فيهما المعنى ..

ويبدو من خلال الأمثلة التي استشهد بها ابن الأثير أنه لا يهون من دور الحركات الاعرابية في أمثلة أخرى في الأبواب نفسها اختلف فيها العلماء ، لأنها جاءت عن العرب بكيفيات اعرابية مختلفة فضلا عن أنه في القضايا التي ذكرها روى عن العرب قولهم : جاءت الشتاء والحطب باظهار الحركة الاعرابية في آخر كلمة الحطب بحسب المعنى المقصود فاذا أرادوا الحاجة الى الحطب قالوا : جاء الشتاء والحطب (بضم الحطب) ، واذا أرادوا مجيئهما معا قالوا : جاء الشتاء والحطب (بنصب الحطب)[3] . ولو اسكنا آخر

---

(1) الخصائص 1/ 357 .
(2) المثل السائر ، ابن الأثير ، 1/ 44-45
(3) الصاحبي ، 191 .

الحطب لم يظهر المحنيان المتاشكلان ، ولم يفرق المستمع بينهما . وقول ابن الأثير إن جاز على مستوى محدود فانه لا يمكن تعميمه على كل الأسماء في جميع المواضع لأن الأسماء - كما قلنا - تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافة اليها ولم تكن في صورها وأبنيتها دالة على هذه المعاني ، بل كانت محتملة لها ولغيرها والحركات الاعرابية هي التي تحدد معانيها وتحدد وظائفها التبليغية ، وتفتح مغاليقها وتنبئ عن دلالتها . ومن هنا ظفرت الجملة العربية بحرية تحرك أجزائها ووحداتها تبعاً للأهمية الابلاغية وترتب عن ذلك تعدد أشكال الجملة العربية باعتبار موضع كل جزء فيها .

ونصل الى قول الخليل المشهور . قال سيبويه : "وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه" (1) . ان الذي يبدو لنا من خلال تأملنا وربط القضايا ببعضها ببعض خلافا لما ذهب اليه ابراهيم السامرائي (2) أن الخليل لا يعني الحركات الاعرابية وانما كلامه ينصب على النطق بالأحرف الهجائية وقد عالج هذه القضية بشكل مفصل ووافٍ في موضع آخر من الكتاب (3) وذهب السامرائي الى أن قطرب قد شرحه ووضحه (4) .

وقال قطرب : " لو كان الاعراب انما يدخل الكلام للفرق بين المعاني وجب أن يكون لكل معنى اعراب ، يدخل عليه لا يزول بزواله ... لأنا نجد في كلامهم (العرب) أسماء متفقة في الاعراب مختلفة المعاني ، وأسماء مختلفة الاعراب متفقة المعاني (5) ومثل لقوله ، وانتهى به الأمر الى أن الحركات ليست دالة على معنى انما جيء بها لتوصيل الكلام لأن اسكان أواخر الكلمات حسب زعمه - في درج الكلام يسبب بطء في تسلسل الكلام ، ولأن تحريكها يساعد على تعجيل النطق ، وتذهب المهلة .

وكان كلام قطرب كافيا ليتخذه بعض المحدثين سندا من التراث يدعمون به دعاويهم التجديديه لتخليص البحث اللغوي من الشوائب وتمحلات النحاة

---

(1) الكتاب 4/ 241 - 242 .
(2) التطور اللغوي التاريخي ، السامرائي ، ص 54 .
(3) الكتاب ، 3/ 320 - 321
(4) التطور اللغوي التاريخي ، ص 54 .
(5) الايضاح في علل النحو ، الزجاجي / 70 .

الأوائل ولوضع الوزر الثقيل من على كاهل اللغة ودرسها حينا، ولتيسير النحو أحيانا [1] ، واتخذ بعض آخر من الواقع اللغوي للعربية ليدعو الى تسكين أواخر الكلم تيسيرا أو تسهيلا على الناشئة والمتعلمين ، والاستئناس بالعامية بدعوى أن العربية الفصحى لم يعد لها وجود على ألسنة الناس [2] .

قال ابراهيم أنيس : " ان الأصل في الكلمات أن تبنى بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات الا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل "[3] وقال في موضع آخر : " واكتفي بهذا القدر في الحركات التي أرجح أنها كانت لربط بين الكلمات وأن نشأتها ترتبط بأمية العرب أو بموسيقية الكلام ارتباطا وثيقا[4] " وأنا أكتفي هنا بالاشارة الى أن النص الأول يؤكد والثاني يرجح وشتان بين التأكيد والترجيح .

وقال أنيس فريحة : " إن الاعراب عقبة في سبيل التفكير ، ذلك مما لا شك فيه ، وسقوطه من اللهجة المحلية خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقا ممهدا للفكر ، كما كان (سابير) يسمي اللغة في محاضراته علنيا (thought grooves) أي أخاديد لمجرى الفكر . فأنني لم ألحظ مصريا أو عراقيا أو سوريا تردد أو تلعثم أو توقف عن الكلام هنيهة ليرى اذا كانت هذه الكلمة بضمة في آخرها أو فتحة أو كسرة أو اذا كانت حركة البناء واحدة أو مثناة أو اذا كانت : مساجدُ أو مساجدٌ أو مساجدًا أو مساجدٍ جميع هذه الاعتبارات سقطت من لغة الكلام لأنها ليست ضرورية للفهم أو الافهام . الكلمة هي (مساجد) ويفهمها كل عربي سواء أكانت معربة أم غير معربة ، منونة أم غير منونة [5] " . ونحن لا ندري متى كان الاعراب عقبة في سبيل الفكر والتفكير ؟ أفي العصر العباسي عندما كانت اللغة معربة بلغت الحضارة الاسلامية والمستوى الفكري الاسلامي مكانة أذهلت المتربصين بالعربية المعربة .؟ أم في عصرنا هذا الذي أصبح فيه التخلي عن الاعراب عنوان التقدم والتطور ، وأصبح الرقي هو التحرر من العقبات اللغوية، وليس من العقد النفسية ، ومن التبعية والعمالة ، ثم ما دام الاعراب صعبا وعقبة فانه يتوافق مع تعقد وصعوبة حياة

---

(1) انظر : احياء النحو ، ابراهيم مصطفى ، 51/ . في أسرار العربية ، ابراهيم أنيس / 206 وما بعدها . والتعريب وتنسيقه في الوطن العربي / 500 ـ 502 وغيرهم كثير . (2) نحو عربية ميسرة ، أنيس فريحة ، / 122، 183 وانظر نظريات في اللغة / 181 . (3) من أسرار العربية ، أنيس ابراهيم / 208 . (4) دلالة الالفاظ له أيضا / 210 . (5) نحو عربية ميسرة / 183 ـ 184 ، وانظر نظريات في اللغة

الرقي والتطور والتقدم التي يعيشها فريحة وأمثاله . أما نحن فاننا ما زلنا نبحث لأقدامنا عن مواضع نثبتها فيها حتى نعتدل في وقفتنا .

وبعد هذه الوقفة السريعة عند شريحة من شرائح البحث اللغوي الحديث نقول ان الخليل لم يكن يهون من أهمية الحركات الاعرابية اذ هو القائل : الاعراب الضمة ، والكسرة ، التي تلزم الدال في "يد" في وجوه ، والتنوين يميز بين الاسم والفعل ، تقول : رأيت يدَك ، وهذه يدُك ، وعجبت من يدِك فتعرب الدال ، وتطرح التنوين ولو كان التنوين هو الاعراب لم يسقط (1) ". فلا شك أن الحركات الاعرابية ضرورية لتمييز المعاني المختلفة المتشاكلة وليس للتوصل .

وقد انبرى لدعاوي التخفيف والتيسير رجال أخلصوا النيات لهذه اللغة الشريفة ، ولأحد مقومات هذه الأمة العربية الاسلامية فردوها على أصحابها مدعمين آراءهم بحجج دامغة ونصوص لغوية علمية قديمة وحديثة (2) .

إن المعاني التي تعتور الأسماء ليست دلالتها على الاسمية ولا على معانيها التي وضعت لها ، وانما الاعراب عرض داخل على الكلام لمعنى يوجده ويدل عليه ، ولوصف يوجبه ويقتضيه .

ان الكلام في أصله سابق من حيث رتبته ، والاعراب تابع من توابعه يتغير بتغير الغرض والمقصد ؛ وانطلاقا من هذا نذهب الى جواز أن يكون العرب نطقوا أولا بالكلام غير معرب (مبنيا) في مرحلة أولى هي مرحلة الحقيقة والشفافية ، ثم جاءت مرحلة أخرى تعددت فيها المعاني وتعقدت لتعدد الأحوال والأغراض واشتباهها وتشاكلها فأعربه العرب ثم نقل معربا فأعربته الأجيال الخالفة .

واذا علمنا أن الأسماء الذهنية لا يحتاج فيها الى حركة أعراب ، فان هذا اقتضى أن تكون حريتها في الحركة داخل الجملة محدودة ، فاذا كان

---

(1) العين الخليل 1/51 .
(2) انظر مثلا : دراسات في فقه اللغة صبحي الصالح / 131–134 ، مدرسة البصرة النحوية / 312–313 . نحو وعي لغوي مازن المبارك / 90–101 . ظاهرة الاعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم سليمان ياقوت / 35–46 .

اسمان مبنيان يقع أحدهما فاعلا ، والثاني مفعولا به ، فانه لا يجوز تقديم الثاني مع محافظته على وظيفته الاعرابية ، مثل : ضرب موسى عيسى أو ضرب عيسى موسى ، فالاسم الأول في كلتا الجملتين هو الفاعل والثاني هو المفعول به ، لأن الأصل تقديم الفاعل ، ولما كان الأمر هكذا فاننا حين نسمع ضرب زيد عمرو ندرك أن زيدا هو الفاعل ، وعمرا هو المفعول به واذا اراد المتكلم أن يقدم المفعول به لغاية أو غرض ابلاغي فاننا اذا كنا لا نعلم بأحوال الكلام وملابساته فسنحكم على الاسم الأول بالفاعلية وعلى الثاني بالمفعولية ، رغم أن المتكلم أراد العكس ، ويصبح الضارب هو المضروب والمضروب هو الضارب وهنا سيضطر المتكلم الى التزام ترتيب واحد لأجزاء الجملة للتعبير عن أغراض مختلفة، فتفقد اللغة جزءا من خصائصها وأسرارها ويصيبها الجمود ، ويوقف بها عند أشكال تركيبية معينة محدودة ، ويعطل عامل من عوامل نموها وخاصية من خصائص تنويع الكلام لتنوع الأغراض واختلافها . ويمتلك المتربصون عندها سندا لاتهامها بعدم الاتساع والقدرة على التعبير عن المعاني المختلفة لاتهامها بالعجز عن التمييز بين المعاني المختلفة المتشاكلة . وهيهات أن يتحقق هذا ما دام هناك غيورون على شخصيتهم ، وما وجد قارئ قرآن .

واذا سلمنا جدلا بأن تحريك الدال في زيد وتحريك الراء في عمرو انما هو ضرورة صوتية يتطلبها الوصل لجاز خفض الاسم في هذا الموقع من الجمل المتشابهة تارة ورفعه تارة ونصبه مرة أخرى ، لكن الواقع اللغوي العربي يخالف هذا ، والذي ينظر في أشعار العرب ، وفي القرآن الكريم لا يملك الا أن يضرب ما سلمنا به عرض الحائط ، فرفع الفاعل مطرد، ونصب المفعول كذلك في حالتي التقديم والتأخير . والتخلي عن الاعراب زيادة على ما ذكرناه آنفا يعني التخلي عن ماضي أمة ، ويعني استئصالها من التربة التي لا تصلح الا لها ووضعها في موضع غريب عنها وفي مناخ لا يتلاءم ورقتها .

والعرب لما رتبوا للمفعول التأخر بعد الفاعل ، وان تقدم عليه في اللفظ فهو مؤخر في النية ، كرهوا أن يخلوهما من الاعراب فيقولون ضرب زيد عمرو بلا اعراب ، فلا يجوز في زيد الا وجه واحد هو الفاعلية، وان أريد له أن يكون مفعولا بطل ذلك فيه .

يروى عن الخليل : " ان الفاعل ضم لما كان الأول في تركيب الكلام ، وأول الحركات هي الضم (وهي ثقيلة) والمفعول به فتح حين كان آخر الكلام ، وآخر الحركات الفتح (وهي خفيفة) ، فكثرت مواضعه واتسعت) فجعلت الضمة الأولى للفاعل ، والفتحة الآخرة للمفعول ليعتدل الحرفان يعني حرفي حركة الاعراب في الفاعل والمفعول) ، ويتشاكلا ويعرب كل واحد منهما بما أليق به وأدخل في معناه . ومن ثم نستطيع القول : أنه اذا كان تعليل تقديم الضم على الفتح تعليلا مراعا فيه الجهد الذي يبذله المتكلم ، فيكون قويا في بداية الكلام ثم يضعف في آخره ، فانه لو فتح المضموم وضم المفتوح لسائغ ذلك في القياس وجاز ، ولم يكن لحننا الا لخلاف العرب فيما رسموا ورتبوا ، لأن أساس تغير الحركات هو التفرقة بين المعاني التي تكتنف الأسماء في الجملة فتكون فاعلة ومفعولة والفرق بين المعاني المختلفة المتشاكلة (1) .

لم يحدث أن اختلف العرب في حركات الأسماء للدلالة على هذه المعاني لأن هذا من المطرد في القياس والاستعمال جميعا وهم فيه شرع واحد ، وليس الأعرابي قدوة إلا في الإعراب ورغم " أن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم الا أنهم أخلوا بأشياء من اعراب الكلام الفصيح " (2) ، وبذلك أخلوا بالملكة العربية الصحيحة ولم تؤخذ منهم اللغة ، ولو كانت الحركات الاعرابية مطردة على ما ذهب اليه قطرب ومن تبعه من المحدثين لجاء كلام العرب مختلفا مضطربا ، ثم ان قطرب يبدو متحفظا في قوله : ويبدو أن الذي هاله في قضية الحركات الاعرابية هو اطلاق الحكم دون تحديد واستثناء .

فالمبتدأ والخبر اذا دخلت عليهما أدوات النسخ (ان وأخواتها) بطريقة استبدالية ، فان حركتي الاسمين تبقيان هما هما ، والمعنى يختلف باختلاف القرينة ، ونحن لو استبدلنا القرينة (الناسخ) بأداة تنتمي الى مجموعة أخرى فان الحركات الاعرابية تتغير ويتغير معها المعنى : (مثل كان وأخواتها)

ومن المعروف أن هناك بعض الأبنية والأدوات التي لها أكثر من معنى

---

(1) اقسام الاخبار ، أبو علي ، المورد ، / 211 .
(2) الخصائص ، 2/ 29 .

وأكثر من وظيفة : فمن - مثلا - لها أكثر من ستة معان ، ومذ لها أكثر من معنى ووظيفة : فمن تفيد ابتداء الغاية المكانية والزمانية ، مثل : " من المسجد الحرام "(1) ، و " من أول يوم "(2) وتفيد الظرفية نحو : " ماذا خلقوا من الأرض "(3) و " اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة "(4) .

ومذ تفيد ابتداء الغاية ان كان الزمان ماضيا مثل :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين منذ حجج ومذ دهر

ومثل قول الشاعر :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان وربع عفت آثاره منذ أزمان

وتفيد الظرفية ان كان الزمان حاضرا نحو : منذ يومنا ، وتكون بمعنى والى مما ان كان الزمان محدودا نحو : " منذ يومين "(5) .

ومن هنا نرى أنه لا بد أن يكون لكل من الحرفين " من " و " منذ " دلالة يختص بها لا يشترك معه فيها الثاني ، وعليه فان اتفاق المعنيين رغم اختلاف الاعراب في المثالين اللذين ذكرهما قطرب للاحتجاج لمذهبه يعود الى القرائن التي تحيط بالكلام من قبل ومن بعد .

1 - ما رأيته من يومين

2 - ما رأيته منذ يومان

ويظهر لنا أنهما مختلفان في المعنى كذلك ، ف " من " بمعنى الظرفية الزمانية ، و " منذ " بمعنى " من زائد " لأن الزمان ماضيا ، الا اذا قامت قرينة حالية تثبت اتفاقهما ، وقدر بعض العلماء بعد " منذ " فعلا فاعله " يومان " وقيل هي مبتدأ وما بعدها خبر ، وقيل العكس . ولو كان المعنى واضحا لما اختلف العلماء فيها . ويظهر أن الانتقاص من أهمية الحركات الاعرابية حينا ورفضها حينا آخر ما هما الا دعوة الى تعطيل العقل ، والاقلال من أهمية التفكير العلمي ، وبالتالي عدم الايمان بالمبادئ العقلية الأساسية ، كمبدأ العلية والسببية والتعميم وعدم التناقض .

---

(1) الاسراء ، الآية / 1 . (2) التوبة ، الآية / 108 .
(3) فاطر ، الآية / 40 . (4) الجمعة ، الآية / 9 .
(5) أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك ، 3/21 ، 28 ، 48 - 50 ، 60 .

وأما من تكلم من عامة الناس بالعربية بغير اعراب ، ففهم عنه مراده فانما يحدث ذلك في المتعارف المألوف من الكلام ، والمشهور بالرواية، ولو حدث أن التجأ العامي الى تبيان غرض مبهم ملتبس بغيرة من غير دراية للاعراب وفقهه يتأت له ذلك لأن الغرض مما يتوجب اعتماد الاعراب فيه .

وما دامت العامة تلتجيء الى اللغة في مخاطباتها اليومية لقضاء حاجاتها فيتم ذلك مباشرة ، وفي كثير من الحالات يتم التخاطب عن التجربة في حينها وفي ظروفها وملابساتها ، ومن هنا نجد أن الاعراب في هذا المستوى ليس ضروريا في الفهم والافهام ، وهل اللغة الا أداة فهم وافهام ؟ قلنا ما دامت الحال هذه فان العامة استعاضت - بغير وعي طبعا - عن الاعراب ببعض القضايا مثل :

- السياق والمقام اللذان يتم فيهما الخطاب .
- بعض الحركات والاشارات والايماءات لتوضيح المراد ...(1)

ومع هذا فان هذه التي استعيض بها عن الاعراب ليست كافية للتفريق بين المعاني المتكافئة والمتشاكلة . فالمعاني التي تتداولها العامة بسيطة ، ومعروفة والتعابير عنها جاهزة متعارف عليها تشبه القوالب الجامدة . واللغة في هذا المستوى لا تفي بمتطلبات الأفكار والحقائق العلمية ناهيك عن التجارب العاطفية والمشاعر ودقائق المعاني وجواهرها ، ولولا تعود الناس سماع الخطأ ما فهموه .

وهكذا فحركات الاعراب ليست شيئا زائدا أو ثانويا أو جماليا جيء به لتوصيل الكلام ، وهي لم تدخل على الكلام اعتباطا بغير علة ، وبدون أن تدعو الحاجة والمراد الى ذلك ، وانما دخلت لأداء وظيفة أساسية في اللغة ، اذ بها يتضح المعنى ويظهر ، وعن طريقها تعرف العلاقة النحوية والمعنوية بين الكلم في الجملة المفيدة الواحدة ، وتتوفر بها للكلم حرية التنقل داخلها فتتقدم الكلمة مرة لغاية ابلاغية تدعو اليها وتتأخر مرة أخرى لغاية ابلاغية أخرى وتحذف مرة ثالثة ... و ... وتنكر مرة رابعة ...الخ . وقد لزم الاعراب أواخر الكلم في لسان مضر بطريقة واحدة ومهيعا معروفا ، وهو بعض من أحكام اللسان العربي .(2)

---

(1) سنتعرض الى هذا بشيء من التفصيل في الباب الثالث (2) المقدمة ابن خلدون 1073/ .

ومن ثم فالحركات في لغة العرب أصوات قصيرة على الحروف للتفرقة بين معاني الكلمات فمنها ما يثبت على حرفه فيكون حركة بناء ومنها ما يلحق الآخر ويتبدل بتبدل وظيفة الكلمة النحوية في الجملة فيكون اعرابا وسواء أكانت الحركة للبناء أم للاعراب فان هذه التفرقة بالحركات بين المعاني ضرب رائع من ضروب الايجاز تغني فيه الحركة في الكلمة الواحدة عن عدد من الحروف والكلمات القرائن (1). فالاعراب خلق وابداع لنظام خاص في التعبير اللغوي استلزمته أحوال ومقامات متعددة كالحاجة الى تمييز كل كلمة في الجملة عن غيرها بحيث يتضح للسامع موقعها، ومدلولها ووظيفتها في نفس الجملة، حتى يفهم المراد منها بسرعة وبأقل كلفة ذهنية وعضوية.

بقي لنا أن نشير الى أن كل الأخبار الكثيرة التي انتشرت في كتاب " البيان والتبيين " وفي كتاب " الخصائص " وفي " عيون الأخبار " وفي غيرها تؤكد أن العربي البدوي السليقي الفصاحة ما كان يفهم الكلام إلا معربا حتى غدا لسانه (لغته) مضرب المثل في الفصاحة. وقد كان علماء اللغة اذا التقوا أعرابيا يفهم الكلام الفاسد الملحون يهرجوه، وأسقطوا كلامه، وعدوه لين الجلد، مضيعا للسليقة. روى ابن قتيبة أن أعرابيا سمع إماما يقرأ " ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا " بفتح " تاء " تنكحوا، فقال: سبحان الله هذا قبل الاسلام، فكيف بعده؟ فقيل له: إنه لحن والقراءة " لا تنكحوا " فقال قبحه الله، لا تجعلوه بعدها إماما، فإنه يحل ما حرم الله "(2) وليس يصح الاعراب الا لأحد رجلين:

1 - الأعرابي البدوي الذي نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة يتكلم على عادته وسجيته.

2 - المولد الذي قد تأدب ونظر في النحو واللغة، وأخذ بهما نفسه ومرن عليهما نفسه ولسانه حتى صار ذلك عادة له (3).

---

(1) نحو وعي لغوي، مازن المبارك، 95/ - 96 بتصرف بسيط.
(2) عيون الأخبار، ابن قتيبة، 2/ 160
(3) نقد النثر، / 143

نتائج الباب الأول

يمكننا في آخر هذا الباب استخلاص النتائج التالية :

1 - الفصاحة هي خلوص الكلام في جميع مستوياته مما قد يشوبه من اللحن أو الخطأ أو اللكنة أو العجمة ، والفصيح من الكلام ما وافق كلام العرب الفصحاء المروي ، وهو المبين للمعنى والغرض ، بغير لبس ، وتعقيد في غير اخلال بسنن العربية ونظامها ، وأي خروج أو انتهاك لنظامها وأساليب التعبير فيها مردود . وقد لا يكتفى في الكلام بالاخبار والابلاغ فيحتاج المبدعون الى التجويد والتحسين بصياغة الكلام صياغة مقنعة ومؤثرة باختيار الألفاظ والصور البلاغية ، وهنا تتفاوت مستويات الفصاحة حسنا وفضلا ويتفاضل الشعراء في أشعارهم بحسب قدراتهم الفنية ، وامتلاكهم للآلة التعبيرية وتحكمهم فيها ، وأعلى مستويات الفصاحة فصاحة القرآن الكريم المعجز . والفصاحة في الألفاظ تعني أن هذه الأخيرة في أصل اللغة العربية أثبت،وفي استعمال العرب الفصحاء أكثر وأوضح ، وأن أبنيتها الحرفية والصوتية على اللسان أخف ، وأبنيتها الصرفية في سنن العربية أصح .

2 - وغرابة الألفاظ قضية نسبية تخضع لمعايير ذاتية ، كالذوق ، والطبع والمزاج ، والقيم الفنية ، اذ ليس من المعقول أن تجتمع لقبيلة عربية كل مفردات اللغة ، فما يشيع على ألسنة قبيلة لا تعرفه كل قبيلة أخرى ، وبالعكس ، وما يستعمله هذا العربي في كلامه ، قد لا يعرفه كله غيره من بني قبيلته ، والواضح لدى عامة الجاهليين قد يبدو للاسلاميين غريبا ، وبالعكس ، والمألوف لدى الأمويين قد يأتي عليه حين من الدهر يعف عليه الزمن ويهجره الناس، بل ربما انقرض من الاستعمال نهائيا ، ولا يعود له وجود الا في بطون أمهات الكتب ، والمعاجم الكبيرة ، ومسألة الغرابة والوضوح في بعض جوانبها مرهونة بالتطور الثقافي والاجتماعي .

3 - وموافقة أبنية الألفاظ وأساليب تركيبها لسنن العربية مسألة ضرورية ، يضمن المتكلمون بها للغة تطورا يتفق مع سننها ، وعدم موافقتها لنظام العربية يعني فتح الأبواب لكل استعمال ، بل لكل أشكال التغير سواء منها التي

يراعى فيها سنن العربية أم التي لا يراعى فيها ذلك ، ويؤدي هذا الأخير الى أن تتحول اللغة الى لغات لكل منها نظام خاص ، ونحن نرى أن كل الألفاظ التي جاءت وفق قياس اللغة العربية شذ المقيس عليه ، او اطرد لا يرد ، كثر المتكلمون به أو قلوا ، وشيوع ألفاظ وقلة أخرى يعكس مراحل تطورية ، فالشائع يعكس مرحلة بعينة ، والقليل يعكس مرحلة قد تكون قديمة سابقة أو جديدة لاحقة ، وكل هذا صحيح فصيح ما تكلم به عربي لم يتأثر بلغات الأمم الأخرى ولم يختلط بها ، لكن مهمة علمائنا التعليمية والتربوية هدتهم الى اختيار استعمالات لغوية وفق أسس علمية ، ونرى كذلك أن الاستعلات اللغوية التي تخرج عن سنن العربية وخصائصها مرفوضة ولا يمكن قبولها .

4 — وموافقة أبنية التراكيب لسنن العربية يعني الالتزام بقوانين الاعراب ، الذي يعتبر خاصية جوهرية في نظام اللغة العربية ، والدعوة الى التخلي عن الحركات الاعرابية تعني اصابة العربية في صميمها ، والتخلي عن تراثنا واعاقة الأجيال القادمة عن أن تفهم القرآن الكريم وما تركه سلفنا ، وتعني الاستغناء عن كثير من الأبنية التركيبية التي تتيحها الحركات الاعرابية ، والاقتصار على مجموعة قليلة من الأبنية . وارتباط اللغة بالفكر والمعنى ، يقتضي أن تتعدد أبنية التعبير لتعدد المعاني والأغراض ، فبالحركات الاعرابية يستطيع المتكلم أن يولد من تركيب واحد للألفاظ أبنية تعبيرية كثيرة لمعان جديدة ، ومن هنا نجد أن الحركات الاعرابية ليست حلية أو زينة للكلام ، أو وسائل صوتية يؤتى بها ليتوصل بها للنطق بأواخر الكلم في الجمل ، أو أنها من قضايا التثقيل التي يشق على المتكلم مراعاتها كما يدعي المغرضون ، ومن في قلوبهم مرض ، فالمتكلم يحصن كلامه من الابهام والالتباس بالحركات الاغرابية ويوفر للمتلقي يسر فهم المعاني المتشابكة المختلفة ، وتأويلها على الوجه الصحيح للغرض الابلاغي وفق ما يقتضيه المقام ، والسياق ، لأن تغير المعاني ينجم عنه تغير في البنية الابلاغية .

5 — وبمحافظة الجملة العربية على الحركات الاعرابية ظفرت بحرية كبيرة شيئا ما في ترتيب أجزائها ، والاكتفاء بها في كثير من الأحيان لتحديد وظيفة الكلمة ، والدلالة عليها في الجملة ، وأدى ذلك كله الى تعدد أبنية وأشكال

الجملة للتعبير عن معان مختلفة متعددة بحسب تغير كل جزء فيها ، وهـــذا كله يبرز بدوره القيمة الكبيرة والأهمية العظمى للحركات الاعرابية ، وعلى هـــذا الأساس نرى أن التغير الذي يخل بالاعراب يجب محاربته ورده . وقد قيـــل ان أول اخلال بسنن العربية هو اسقاط الحركات الاعرابية واستعيض عنـــها بأمور وهيئات أخرى في ترتيب الألفاظ ، والمواقف الكلامية ، والسياقات اللغوية ، ونرى أنه اذا كانت السياقات وترتيب الكلم يساعد في تحقيق عملية الاتصـــال الكلامي فان الاعراب في لغة العلم والأدب ضروري جدا لأن فقدان الاعراب يوجب على بنية الجملة أن تلتزم نظاما واحدا ، تفقد أجزاؤها ووحداتها حرية الحركة داخل الجملة ، فجملة الفعل والفاعل والمفعول تأخذ نسقا واحدا بتقديم الفاعل والتثنية بالفعل ، والتثليث بالمفعول .

6 — ان القياس الذي كان يتم في ذهن العربي المحتج بلغته كـــان قياسيا لا شعوريا ابداعيا، يتسم بالحركة والتجدد . وعلى هذا الأساس يمكـــن تفسير تلك الألفاظ المعربة التي اقترضتها العربية قبل الاسلام ، فأجـــراها العرب وفق سنن لغتهم وخصائصها ، وهذا القياس يختلف عن القياس الـــذي استنبطه النحويون من ملاحظة واستقراء ما جمعوه من لغة العرب الفصحـــاء وشعرهم ، فالأول عملي والثاني علمي استفاد منه العلماء في القرن الثالـــث في توليد واشتقاق ألفاظ ومصطلحات علمية وفي تعريب ألفاظ أعجمية اقتضاهـــا التطور الثقافي والاجتماعي في ذلك العصـــر .

الباب الثاني

مستويات الفصاحة في القرن الثالث الهجري

" ... وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ...
(ب) هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر له
وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور (الأغراض) "

الباقلاني ، اعجاز القرآن ص/ 35 _ 36

الفصل الأول

فصاحة القرآن الكريم

سبق أن رأينا أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب كلهم (1) ، وتمثلت فيه معظم لهجاتهم (2) ، وقد شاع بين العلماء والناس قديما وحديثا أن القرآن نزل بلغة قريش ، والقرآن نفسه يقول بصريح الآيات أنه بلسان العرب وبكل لهجاتهم قال تعالى :

" انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (3)

وقال : " وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد " (4)

وقال : " وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين " (5) .

وقال : " قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون " (6)

وقال : " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون " (7)

وقال : " وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ، ومن حولها ... " (8)

وقال : " انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (9)

ولم يقل بلسان قريش ، والعرب ليسوا قريشا فقط ، واسم العرب يتناول جميع القبائل العربية تناولا واحدا ، ولم يكن علماء القرن الثالث كغيرهم من العلماء الأفذاذ يجهلون هذه الحقيقة ، بل نرى المبرد يذكرها بصريح العبارة قال : " ... وانما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش على أن القرآن نزل بكل لغات العرب " (10)

---

(1) انظر ، / 28-29 من هذا البحث

(2) كلغات : غسان ، وازد عمان ، وبني حنيفة ، وخزاعة ، ولخم ، وثقيف ، وجذام ، واليمن ، وقضاعة ، واليمامة ، والنمر ، انظر الاتقان : للسيوطي ، 1/ 135 ، 136 ، 48 ، 49 ، 50 ، واللغات في القرآن ، / 21 ، 24 ، 25 ، 27 ، 28 ، 31 ، 34 ، 40 ، 42 ، 44 ، 48 ، والمزهر ، 1/ 211 .

(3) يوسف ، الاية / 2 .

(4) طه ، الاية ، / 113 .

(5) الشعراء ، الايات ، / 192 - 195 .

(6) الزمر ، الاية ، / 28 .

(7) فصلت ، الاية ، / 3 .

(8) الشورى ، الاية ، / 7 .

(9) الزخرف ، الاية ، / 3 .

(10) الفاضل للمبرد ، / 113 . وانظر تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، / 58 .

ومما يجب التنبيه اليه هو أن نزول القرآن بكل لغات العرب لا يعني أن نصيب كل واحدة من هذه الأخيرة كان متساويا مع غيرها . والذي لا خلاف فيه بين العلماء أن نصيب لغة قريش أوفر من غيرها بكثير ، ولذا يمكننا القول ، بأن من قال نزل القرآن بلغة قريش ذهب الى تغليب الأكثر على الأقل ، ثم ان قريشا عرفت بانتقاء الألفاظ والتعابير والكيفيات الأدائية لنظام لغة العرب وكذلك فعل القرآن . وتحدى العرب أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مفتريات ، أو بسورة واحدة من مثله ، فعجزوا عن ذلك ، وانقطعوا دونه ، وهم عرب أهل فصاحة وبيان ، مقتدرون على التصرف في أودية الكلام ، وفي صنوف نظومه : قصيده ، ورجزه ، وسجعه ، وسائر فنونه ، فقابلوه بكلامهم ، وبشعر شعرائهم ، وسجع كهانهم ، ونثر خطبائهم ، فما وجدوا فيه شيئا يختلف عما عندهم ، الا سحر بيانه ، وبلاغته العالية ، ومعانيه السامية ، التي تتفق وفطرة الانسان السليمة ، وغاياته السوية النبيلة ، فقال قائلهم وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن : " والله ، أن له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر "(1) وقال مسيلمة الكذاب : " ان محمدا أرسل في جسيم الأمور ، وأرسلت في المحقرات "(2).

ولو جاء بلغة غير لغتهم ، وبألفاظ غير ألفاظهم ما تركوا ذلك مسلكا للطعن فيه ، ورده والهزء منه ، وما كانوا ليتركوا السهل اليسير ، ويركبوا الصعب العسير .

وقد أجمع العلماء أو كادوا على أن التحدي يشمل العرب وغير العرب على مر الزمان واختلاف المكان ، وبحث العلماء في القرن الثالث كغيرهم الجهة التي كان بها القرآن معجزا فقالت جماعة بالصرفة ، وقالت جماعة أخرى بالنظم والفصاحة والبلاغة . وممن كان لهم فضل السبق في تناول الاعجاز القرآني للعرب في هذا القرن الثالث : النظام ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والواسطي ،

---

(1) الرسالة الشافية ، الجرجاني ، / 125 ، وبيان اعجاز القرآن للخطابي ، / 28 .

(2) بيان اعجاز القرآن ، / 56 .

وابن الراوندي ، وعيسى بن صبيح المزدار ، ونحاول أن نقف على آراء المشهورين منهم: الثلاثة الأوائل :

فابراهيم بن يسار النظام أحد متكلمي المعتزلة ، كان يرى أن الاعجاز راجع الى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم . وقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا المنع والسلب ، اللذان أحدثهما الله فيهم ، وانما أعجز القرآن العرب بما فيه من الأخبار عن الأمور الغيبية ، والقصص السالفة . قال النظام : " ان الله تعالى ، ما أنزل القرآن ليكون حجة [illegible] المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام . والعرب ، انما لم يعارضوه [illegible] صرفهم عن ذلك ، وسلب علمهم به (1) .

وما كان هذا الرأي ليتجاوز مجلسه حتى انبرى له أحد تلاميذه يرد عليه بمؤلفه " نظم القرآن " الذي لم يصلنا ، وقد قال فيه الباقلاني: " وقد صنف الجاحظ ، في نظم القرآن كتابا ، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ".(2) ولم يصلنا الكتاب . ولذا لا نكلف أنفسنا عناء الافتراض والتفسير الارتجالي . ونعمد الى استخبار بعض كتبه التي وصلتنا ، وتضمنت بعض آرائه في بلاغة القرآن .

ففي كتاب "حجج النبوة " يذكر أن الله حين تحدى العرب ومعهم الحجة ، ولم يقدروا على الاتيان بمثله عجزا منهم ، ووهنا ، لا تهاونا وتغافلا وضعفا . وان التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب ، والبدو خاصة ، لما فيهم من الأنفة ، والعزة ، فكيف والقرآن يتحداهم ، في أخص خصائصهم ، وقد عرفوا بالبراعة ، والبلاغة و " القرآن جمع الى النظام ، الرائع ، المعاني الفائقة (3) وانزل الله كل لفظ في أخص دلالته ، في أخص موضعه من نظم القرآن ، فامتاز بروعته ، في الاختيار ومراعاة الفروق بين الألفاظ ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالا بها على معنى واحد ، وانما للدلالة على معان مختلفة ،

---

(1) نهاية الايجاز في دراسة الاعجاز ، الفخر الرازي ، /
(2) اعجاز القرآن ، الباقلاني ، / 6
(3) حجج النبوة ، الجاحظ ، / 144 وانظر أثر القرآن في تطور النقد العربي ، محمد سلام زغلول ، / 77

وبقدر الدقة في اصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن الكريم ، فالناس يستخفون ألفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى ، لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين المطر ، وبين ذكر الغيث . ولفظ القرآن اذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأراضين ، ألا ترى أنه لا يجمع الأرض على أرضين ، ولا السمع أسماعا ، وقد رأى بعض العلماء أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن الا في موضع التزويج (1) .

وتبين الجاحظ في ألفاظ القرآن ميزة أخرى - من حيث النظم - ذلك أن بعض الألفاظ تأتي متصاحبة دائما حتى لا تكاد تفترق في مثل : الصلاة والزكاة، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار، والجن والانس ، وقد يستعمل القرآن لفظا بعينه مستغنيا به عن ألفاظ كثيرة ، ويدل به على معان كثيرة ، فتكون لفظة جامعة شاملة ، كلفظة ((مكلبين)) في قوله تعالى : " قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين " (2) فاشتق لكل صائد ، وجارح ، وكاسب ، وباز ، وصقر ، وعقاب ، وفهد ، وشاهين ، وزرق ، ويؤيؤ ، وباشق الأرض من اسم الكلب .

وتحدث الجاحظ عن الاستعارة والتشبيه والمجاز والايجاز وأورد نصوصا قرآنية كثيرة ، واستجلى جمالها ، ونظمها ، واعجازها ، والتفت التفاتة طويلة الى نظم القرآن وموسيقى وزنه (3) وبهذه الآراء فتح الجاحظ بابا وكشف طريقا ما فتيء العلماء بعده يستجلون أسراره وخباياه مترسمين خطاه ، ومتبعين آراءه .

فاذا كان لكل معنى لفظ هو به أخص وأولى ، وضربا من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو به أجلى ، ومأخذا اذا أخذ منه كان الى الفهم أقرب ،

---

(1) البيان والتبيين الجاحظ 1/20

(2) المائدة الاية 4

(3) أثر القرآن في تطور النقد العربي ، زغلول ، 96 .

وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس اليه أميل ، فان تقديم كلام على كلام ، أو شعر على شعر ، والحكم بالفضل على هذا دون ذاك يكون : اما لمعنى غريب سبق اليه الشاعر فاستخرجه من مكمنه ، أو لاستعارة بعيدة نطق بها ، أو لطريقة في النظم اخترعها ، والقرآن لم يتحد العرب بأن يأتوا بآية ، اذ لا ينكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة ، وانما ينكر أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها ، وجاز أن يتملكوا من حد في البلاغة ، ومقدار في الخطابة ، وهذا يعني أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وان لم يكن له حكم الشعر ، لأن قدر العجز أنها سورة طالت أو قصرت (1) .

ومعلوم أن المعول عليه في دليل الاعجاز على النظم ، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل فقط ، بل في ذلك مضموما الى أن يتبين ذلك النظم من سائر ما عرف ، ويعرف في ضروب النظم ، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه ، البينونة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه فسيل عليهم العجز واديا ، وقد حصل باعترافهم قولا وانقطاعهم عن معارضته فعلا أنه معجز (2) .

فمن الشعراء من يجود في غرض دون غرض ، ومنهم من يبرز في نظم دون نظم ، ومنهم من يسبق الى معنى لا يسبق في غيره ، ومثل ذلك يختلف كلام العرب في الخطب والرسائل ، وسائر أجناس الكلام ، أما أن يحصل لهم شيء مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، و التصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر فلا (3) .

وعلة ذلك أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل عن

---

(1) اعجاز القرآن الباقلاني ، ص 285-286
(2) انظر الرسالة الشافية ، الجرجاني ص 131 - 133 وبيان اعجاز القرآن ، الخطابي ، ص 29 .
(3) اعجاز القرآن الباقلاني ص 36-37 ، والرسالة الشافية ص 133

عن الأحسن ، من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل + معنى به قائم + رباط لهما ناظم ، وعمود هذه البلاغة التي تشتمل عليها فصول الكلام ... وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به الذي اذا أبدل مكانه غيره جاء منه :

- إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام.
- وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة (1) .

وقد أبدأ عبد القاهر في هذا وأعاد وكرر وأجاد ، حيث رأى أن إعجاز القرآن انما كان لنظمه الذي لا يخرج عن كونه توخى معاني النحو وأحكامه وفروقه ، ووجوهه فيما بين معاني الكلم على طريقة مخصوصة ، وعلى وجه دون وجه ، وذلك بالوصل وترك العطف ، وبالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحصل عن التأليف ، ويقتضيه الغرض والمعنى ، وبما يبتدئه الشاعر أو الخطيب في كلامه من استعارة اللفظ للشيء لم يستعر له، وبحسن اختيار الأوضاع اللغوية، ومعرفة لكل من ذلك موضعه اللائق به والأخص فيؤثر ويقنع (2) .

والنظم بهذا المعنى ليس شيئا شكليا كما ذهب الى هذا الأستاذ أحمد الشائب والدكتور عفت الشرقاوي (3) لأنه يراعي فيه نفسية وطبع قائله ونسبته اليه و" الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الانسان في نفسه ، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه ، ويراجع فيها عقله ، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض (4) " .

وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتحقق بها البيان ، ومن ثم يختص الكلام بقائله وينتسب اليه من حيث صنع في معانيها ما صنع وتوخى فيها ما توخى (5) اذا ما أحدث أي تغيير فيه انقطعت صلته بقائله ومنشئه وعلى هذه الأسس نجد أن الاعجاز لا يمكن أن يكون : (6)

---

(1) بيان اعجاز القرآن ، الخطابي ص/ 27–29

(2) دلائل الاعجاز الجرجاني / 193، 276، 277، 300، 310، 350، 403 ، 404، وانظر الصاحبي ، ابن فارس / 30

(3) الأسلوب أحمد الشايب ص/ 44 ، وبلاغة العطف في القرآن للشرقاوي / 15 وما بعدها .

(4) دلائل الاعجاز ص/ 406 . (5) نفسه ص/ 277

(6) دلائل الاعجاز ص/ 40، 295، 300، 305، 364، 365 ، وانظر اعجاز القرآن الباقلاني ص/ 35 .

— في الألفاظ المفردة " لأن تقدير كونه فيها يؤدي الى المحال،وهو أن تكون الألفاظ المفردة قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها ، اذا كانت متلوة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ، " ثم ان نظم الألفاظ يختلف عن نظم الحروف ، فالأولى يقتفي في نظمها المتكلم آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس،والثانية غير ذلك،لأن نظمها هو تواليها في النطق فقط،وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا يقتفى في ذلك رسما من العقل فلو أن واضع اللغة كان قد قال : ربض مكان ، ضرب لما كان ذلك فاسدا .

— وفي معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ،لأنه يؤدي الى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ،ومعنى العالمين والملك واليوم والدين ... وصف لم يكن قبل نزول القرآن .

— في ترتيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تحدوا الى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن ، وحتى كأن الذي بأن به القرآن من الوصف ، في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها عن بعض . لأن الوزن ليس من والبلاغة في شيء ،اذ لو كان له مدخل فيها لكان يجب في كل قصيدتين اتفقتا في الوزن أن تتفقا في الفصاحة والبلاغة ، وليس بالوزن يكون الكلام كلاما ، و لا به كان كلام خيرا من كلام .

— بالمقاطع والفواصل ،لأنه ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وانما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر ، ونحن نعلم اقتدارهم على القوافي كيف هو ، ولو كان كذلك لم يعوزهم ذلك،ولم يتعذر عليهم .

— بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللسان بتنافر حروفه أو كلماته ، لأن سهولة ألفاظ الكلام ، وسلاستها ليس مما يجعل الكلام كلاما ، ولا مما يجعله جميلا لوحده .

— بالعلم بالاعراب ، لأن العلم به مشترك بين العرب كلهم وليس مما هو يستنبط بالفكر ، ويستعان عليه بالروية .

- بالغريب والوحشي من الكلام وليس في القرآن غريب الا في القليل . انما كان غريبا من أجل استعارة هي فيه مثل : " وأشربوا في قلوبهم العجل "(1) ولو كان أكثر ألفاظ القرآن غريبا لكان محالا أن يدخل ذلك في الاعجاز ، أو أن يصح التحدي به ، ذلك لأنه لا يخلو عندها من أن يتحدى من له علم بأمثاله من الغريب ، فلا يتعذر عليه أن يعارضه بمثله . وقد كان العرب يعيبون استعمال الغريب ،ويدعون الى تجنبه ، أو من أن يتحدى من لا علم له بذلك . فيكون بمنزلة أن يتحداهم الى أن يتكلموا بلسان الترك . ثم ان العرب لا يستوون في العلم بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضهم الفضل في ذلك على بعض ،والدليل على ذلك قوله تعالى : " وما يعلم تأويله الا الراسخون في العلم "(2) . ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله ، انا لتأتينا بالكلام من كلام العرب ، ما نعرفه ونحن العرب حقا ،فقال: ان ربي علمني فتعلمت "(3) ثم ان الغرابة ليست مما يشترط في حد البلاغة .

- بالاستعارة لوحدها ،أو بأن تجعل الأصل في الاعجاز ، وأن يقصد اليها . لأن ذلك يؤدي الى أن يكون الاعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة . وكل ما في القرآن من مجاز وغريب استعمله العرب في شعرهم ومخاطباتهم ، وفي القرآن الكريم من اللفظ المختلف مثل ما في كلامهم وشعرهم (4) .

واذا امتنع أن يكون الاعجاز في هذا ، لم يبق الا النظم ، والتأليف ، لأننا لا نجد ما يعجزون عنه مما هو مشترك بين جميع سور القرآن حتى القصار منها سوى جهة الفصاحة والبلاغة ،وحسن الأسلوب وسمو المعاني ، - وهذا ما أعجزهم عن الاتيان بسورة من مثله ،وهذا لا ينافي أن يكون معجزا من نواحي أخرى ، فيقتضي دخول الاستعارة ونظائرها ، وائتلاف الأصوات والألفاظ وتلاؤمها فيما هو به معجز ،لأن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ومحصولاته ، وعنها يحدث وبها يكون ، و لا

---

(1) البقرة ،الآية ،/ 93
(2) آل عمران ،الاية ،/ 7
(3) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ،علي أبو المكارم / 212 نقلا عن المسائل لابن قتيبة نسخة مصورة بمكتبة جامعة الازهر رقم220967لوحة 4
(4) جمهرة أشعار العرب ،أبو زيد القرشي / 10،11،31،25

تكون بالاعراب بل بالوصف الموجب للاعراب . فنحن نرى الاستعارة قد ملحت وحسنت بما توخي في وضع الكلام من تقديم وتأخير ،وحذف وذكر ، وتعريف وتنكير ، ووصل وفصل ،ففي قوله تعالى : "واشتعل الرأس شيبا "(1) لو قدر في اشتعل أن لا يكون الرأس فاعلا له، وأن لا يكون الشيب منصوبا على التمييز، وأن يضاف الرأس الى ياء المتكلم لم يتصور أن يكون اشتعل مستعارا ،ولما كان فيها ذلك الحسن والجمال(2) . ومدرك الاعجاز هو الذوق والعقل والتمرس في فنون القول ومعاينة أسرار الشعر ومضايقه .

وبهذا تكون كل سورة من سور القرآن مبرزة الأجزاء كالبناء التام من أولها الى آخرها كلاما واحدا اتحدت أجزاؤه فصارت الألفاظ من أجل ذلك كأنها لفظة واحدة يتطابق فيها الشكل والمضمون تطابقا تاما ،وكل تغيير ينجم عنه تغيير في بنية السورة كلها وتختل هيئتها وصورتها التي أرادها الله تعالى .

بقي أن نقف على رأي ابن قتيبة في فصاحة القرآن واعجازه في كتابه تأويل "مشكل القرآن" ، وابن قتيبة من أهل السنة الذين أجازوا أن يكون في القرآن مجاز ،لأنه من مستلزمات التعبير ،وأسلوب من أساليب العرب ، .

ولو أردنا أن نستعرض ما ورد في هذا الكتاب من فكر حول فصاحة القرآن واعجازه العرب قاطبة والبشرية كافة في جميع الأصقاع والأزمان وجدناها قد تحدث في عدة نواح من جوانب الاعجاز وهي (3) :

أولا : نظم الألفاظ وضمها بعضها الى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني ،فيجريان معا في سلاسة وعذوبة فائقتين .

ثانيا : النغم الموسيقي ،ويشمل النظم والايقاع الداخلي في الآيات ، وهو الذي ينجم من نظم الحروف ومن الفواصل ، وأطرادها أو اختلافها .

ثالثا : سمو بيانه ،وسحر بلاغته عما تعارفه العرب .

رابعا : العلوم والمعاني التي ضمها ،وفيها زبدة الشرائع السماوية

خامسا : ما فيه من دلائل الألوهية ، ومظاهرها المختلفة في الكون ،

سادسا : ما فيه من أثر نفسي يثير الوجدان عن طريق الشعور ويهز القلوب بروعته وجماله المتفرد .

---

(1) مريم الآية 4 (2) دلائل الاعجاز ،/ 79،81 و 312—314

(3) تاويل مشكل القرآن/ 46—239 ،وانظر التعبير الفني في القرآن ، شيخ أمين ،/ 162

تذكر مصنفات الحديث النبوي الشريف ، وكتب القراءات وعلوم القرآن ، حديث السبعة أحرف ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه " (1) . والعلماء يجمعون أو يكادون على أن هذه الأحرف لغات ، لأن اختلاف الكيفيات الأدائية للغة العرب ، وعسر نطقهم بغير ما اعتادوا النطق به ، اقتضى التوسعة والتيسير في أول أمر القرآن ، فأذن لكل قارئ أن يقرأ على حروف لغته ولغة قومه الى أن انضبط الأمر في آخر العهد ، وتدربت الألسن ، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة (2) .

ولم يكن المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل كان المراد — كما أسلفنا التوسعة والتيسير ، وأنه لا حرج عليهم في قراءة بما هو من لغات العرب ، ثم ان العرب يطلقون لفظ السبعة ، والسبعين ، والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد بل يريدون الكثرة والمبالغة في غير حصره قال تعالى : " وان تستغفر لهم سبعين مرة ... " فجاءت على هذا الأساس القراءات في بدايتها على كل لغات العرب مطردها وشاذها ، وكانت كثيرة بشكل هائل لا نعلم حصره ، لكن تقادم المجتمع الاسلامي وابتعاده عن البيئة البدوية وانصهاره في جو حضاري جديد جعله يتخلى عن كثير من الكيفيات الأدائية في لغته ، واندثرت معه لغات لم يعد لها رسم .

والقراءات متواترة بالسند الصحيح ، والأساس فيها دائما هو الرواية يتناقلها الناس عبر العصور . وقد تجرد لها من الصدر الأول للاسلام قوم في كل مصر من الأمصار لتلاوة القرآن بها ، وضبطها والعناية بها وبتلقيها مشافهة بالرواية والتواتر ، ومعنى هذا أن القراءة سنة متبعة يأخذها الخلف عن السلف كما أخذها الأخير عمن سبقه . والقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان :

— فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والاعجاز في صورته التي كانت عليها العرضة الأخيرة التي قرأها النبي على جبريل عام قبض ، وعلى ما أنزل الله تعالى دون ما اذن فيه ، وعلى ما صح

---

(1) انظر تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة/ 26-27 . صحيح البخاري 6/ 100 ، تفسير الطبري 1/ 10-12 والبرهان في علوم القرآن ، الزركشي 1/ 211 .
(2) الفاضل للمبرد / 113 . تاريخ بغداد / 32 . النشر ، الجزري 1/ 22، 25، 33 . والبحر المحيط أبو حيان ، 8/ 493 .

مستفاضا عن النبي دون غيره .

ـ والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكورة ، في كيفيات نطقهـا ، كالامالة ، والتفخيم ، والادغام ، والهمز ، والحركات ، وأضداد ذلك وغيره على سبيل التسهيل والترخيص للمسلمين حتى لا يشق عليهم نطق ألفاظ على كيفيات لم ينشأوا عليها ، ولم يتعودوها .

وقد تدبر ابن قتيبة وجوه الاختلافات في القراءات فوجدها تنحصر في سبعة أوجه قال[1] : وانما تأويل قوله (قول الرسول) نزل على سبعة أحرف، على سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن يدلك على ذلك قول رسول الله: " فاقرأوا كيف شئتم " وقد تدبرت وجوه الاختلاف في القراءات فوجدتها سبعة أحـرف :

أولها : الاختلاف في اعراب الكلمة وفي حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، ولا يغير معناها نحو قوله عز وجل : " هؤلاء من أطهر لكم " برفع الراء وفتحها .

الثاني : الاختلاف في اعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، نحو قوله : " ربنا باعد بين أسفارنا " بفتح الباء الأولى وكسر العين ، وبضم الباء وفتح العين .

الثالث : الاختلاف في حروف الكلمة دون اعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها نحو قوله : " حتى اذا فزع عن قلوبهم " و " فرغ عن قلوبهم "

الرابع : الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله : " إن كانت إلا صيحة واحدة " و " زقية واحدة " .

الخامس: الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها ، نحو قولـه : " وطلع منضود " و " طلح منضود " .

السادس: الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو قوله : " وجاءت سكـرة الموت بالحق " " وجاءت سكرة الحق بالموت " .

السابع: الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله : " ان هذا أخي لـه تسع وتسعون نعجة أنثى " و " ان الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسي فكيف

---

(1) القرطين (تأويل مشكل القرآن) 1/ 214 ، 215 و 220 ـ 222 .
وانظر تفسير القرطبي 1/ 45 ـ 46 . وتاويل مشكل القرآن ، 28 ـ 29

أظهركم عليها .

فلا يقرأ كل حرف في القرآن بسبعة أوجه ، وقال ابن الجزري : "الاختلاف في زيادة كلمة ونقص أخرى وابدال كلمة مكان أخرى وتقديم كلمة على أخرى لا تجوز القراءة به" (1) .

ومن المؤكد أن قراءات الأئمة السبعة والعشرة والثلاثة عشر وما وراء ذلك هي بعض الأحرف السبعة المتعددة المأذون بها ، وعليه لا نرهق أنفسنا في الرد على من قال أن القراءات السبعة هي الأحرف السبعة ، لأن هذا القول خلاف الاجتماع ، ولم يقله أحد من العلماء الأولين وانما هو شيء اتبعه العلماء قديما وحديثا في حكايته والرد عليه ،وهو شيء يظنه جهلة العوام لا غير. فانهم يسمعون حديث السبعة فيتخيلون ذلك (2). ولأن هذا يؤدي الواعتبار ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم ووافق خط المصحف أن لا يكون منها وهذا غلط عظيم . والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا أو مثلهم أكثر من عددهم . ان الرواة الأئمة كانوا كثيرا جدا ، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه ، وتنضبط القراءة به فنظروا الى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتقان على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماما واحدا ، ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به (3) .

والقراءات ضربان :

- ضرب اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار وهو ما أودعه أبو بكر بن مجاهد كتابه .

- وضرب تعدى ذلك فسماه العلماء شاذا أي خارجا عن قراءة القراء السبعة . الا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة الى قرائه ، محفوظ بالروايات من أمامه وورائه ولعله أو كثير منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه . وهذا الضرب

---

(1) منجد المقرئين ابن الجزري ص/ 54-55 .
(2) نفسه ، والاتقان للسيوطي 1/ 82 .
(3) الاتقان 1/ 80-81 ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ، 1/ 222-223 .

منه ما لطفت صفته وأغربت طريقته ، وكله مروي مسند الى السلف[1] .

ومتى شاعت قراءة القارئ على ضعف قياسها واعرابها ، وكانت صحيحة الاسناد واعتيد الأخذ عن قارئها لا يمنع الأخذ بها بحجة أن غيرها أقوى اعرابا منها . قال ابن خالويه : " رأيت كلا منهم (أي القراء) قد ذهب في اعراب ما انفرد به في حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد القياس وجها لا يمنع فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية غير مؤثر للاختيار على واجب الآثار "[2] . ولا يهم في القراءة الشذوذ أو الندرة ، فهي سنة متبعة لا تجوز مخالفة المصحف الامام ، ولا مخالفة القراءات المشهورة أو القليلة ، وان كان غير ذلك سائغا في اللغة وأظهر منها ، لأن كل ما تواتر نقلها وسندها ، واستقامت في العربية مطلقا ولو بوجه، ووافقت خط المصاحف العثمانية ولو تقديرا تجوز القراءة بها والصلاة كذلك . وهي القراءة الصحيحة المقطوع بها وما خالف أحد الأركان الثلاثة فهي القراءة الشاذة ولا تجوز في الصلاة وفي غيرها[3] ، ولا يجوز وصفها بالخطأ أو اللحن لأن " أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية ، واذا ثبتت قراءة عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها "[4] .

وقد يبيح القياس أوجها لا يأتي بها سماع فلا تجوز في القرآن، و لا تعتبر من القراءات لأنها لم ترو عن قارئ . قال ابن جني : و ما يحتمله القياس ولم يرد به السماع كثير منه القراءات التي تؤثر رواية ولا تتجاوز ، لأنها لم يسمع فيها ذلك ، كقوله عز اسمه : بسم الله الرحمن الرحيم[5] . فالسنة المأخوذ بها في ذلك اتباع الصفتين اعراب اسم الله سبحانه والقياس يبيح أشياء فيها ، وان لم يكن سبيل الى استعمال شيء منها ، وقد قوى بعضها

---

(1) السبعة القراءات ، ابن مجاهد 87 ، والمحتسب ابن جني 1/ 31ـ35 .
(2) الحجة ابن خالويه ، / 38 .
(3) النشر ابن الجزري 1، / 9ـ10 ، ومنجد المقرئين ، / 15ـ17 و 70 ، والاتقان 1/ 75ـ81 . كتاب التسهيل لعلوم التنزيل 1/ 11 .
(4) النشر 1، / 10ـ11 . منجد المقرئين / 65 ، والاتقان 1/ 75ـ77 .
(5) الخصائص ابن جني 1/ 398ـ 399 .

قوة المقروء به ، ولا يشك أحد من أهل صناعة العربية في حسنه ،كأن يقرأ برفع الصفتين جميعا على المدح ، أو بنصبهما جميعا عليه كذلك ، أو برفع الأول ونصب الثاني ، أو بنصب الأول ورفع الثاني ثم قال : "كل ذلك وجه المدح وما أحسنه همنا" . فلذلك قوي عندنا اختلاف الاعراب في الصفتين بتلك الأوجه التي ذكرناها ولها نظائر ، فهي مع قوتها عند ابن جنى وأهل صناعة الاعراب فانها لا تجوز القراءة بها ما لم تؤثر عن قارئ ثقة أمين ،وهذا يؤكد تواتر القراءات ، فلا يجوز الخروج عنها وردها مهما قلت أو شذت ،اذ انه لم يتوفر لنص عربي ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته وعناية العلماء به وبضبط قراءاته بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء الأبيناء من التابعين عن الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهو النص العربي المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل الينا بها في الأداء والحركات والسكنات ، فلا يجوز على العلماء السهو والنسيان ولا التخليط والكتمان ، ولو زادوا أونقصوا أو غيروا لظهر ذلك ، فقد كان كثير منهم فصحاء زمانهم، ومنهم المتقدم في الفصحاء ، ومنهم العالم المبرز في العربية ولغاتها ينقدون الآثار، ويحيطون بوجوه القراءات (1) فكيف يجوز أن يكون ما ذكروا في القرآن مع شدة الحاجة اليه أكثر من الشعر الجاهلي لحفظ اللغة، وفي أهل الدين ، ثم في الأحكام والشرائع ، واشتغال الهم المختلفة بضبطه ، ولهذا فما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواترا أم آحادا أم شاذا ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية اذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وان لم يجز القياس عليه .

ومع هذا فقد كان قوم من النحاة المتقدمين يلحنون ، ويخطئون بعض القراءات الثابتة بالأسانيد الصحيحة وقد رد ابن مالك وأبو حيان النحوي وغيرهما على من عاب أو تعرض للقراءات بالتخطئة والتلحين ، اذ من المحال أن يصح في القراءة ما لا يسوغ في قياس العربية بل قد يسوغ في العربية ما لا يصح في القراءة .

---

(1) معاني القرآن ،الفراء 1/ 432 .السبعة القراءات / 45،46،62،65،70،76، 77،78،82 . التيسير في القراءات ،/ 2 . النشر 1/ 430 ، غاية النهاية 2/ 330، 95، 43 . 341 .

والذي يتأمل ما كتب الرعيل الأول من علماء اللغة والنحو يجد أنهم لم يكونوا يختلفون في أن القراءة سنة متبعة، ولم يكونوا في الغالب الأعم يردون القراءة الشاذة فيخرجونها على وجه ما من وجوه اللغة الا أنه لم يتورع بعضهم من ترجيح وجه في العربية على وجه جاءت عليه القراءة (1). وربما رمى بعضهم القراء بالتوهم (2) والاشتباه ، وربما اختلفوا في تخريج أو تأويل قراءة صحيحة (3). وربما رمى بعضهم بعضا بالغلط في التأويل (4) وقد حفلت مصنفاتهم بالقراءات وبآي القرآن الكريم .

نستخلص من هذا :

- ان العلماء الأوائل كانوا يرون أن القراءة سنة متبعة لا خلاف في صحتها وتواترها يأخذها الخالف عن السالف ، ومهما قل الوجه الذي جاءت عليه القراءة لا يردونه الا أنهم يشيرون الى أن أحد الوجهين أكثر وأشيع وأقوى .

- أنهم لم يكونوا يساوون بين القراءات شاذها ومطردها. فكانوا يرجحون قراءة على قراءة ، ويقدمون وجها على وجه ، والترجيح غير مرض ، لأن كلا القراءتين متواترتان ، وثبوتها دليل على جوازها في العربية . وقد كان ثعلب اذا اختلف الاعرابان في القراءة لم يفضل اعرابا على اعراب . أما في الكلام العادي فانه كان يفضل الأقوى (5) .

وقد يختلف العلماء في تأويل القراءة وقد يذهبون في ذلك الى المستبعد وغير المعقول . وهذا ما جعل أبا حيان يقول : لا نسلك فيه (في اعراب القرآن) الا الحمل على أحسن الوجوه ، وأبعدها من التكلف ، وأسوغها في لسان العرب ، ولسنا كمن جعل كلام الله تعالى كشعر امرئ القيس ، وشعر الأعشى ، يحمله جميع ما يحتمله اللفظ في وجوه الاحتمالات . فكما أن كلام الله من أفصح كلام فكذلك ينبغي اعرابه أن يحمل على أفصح الوجوه (6) .

---

(1) الكتاب 1/ 148 ، 4/ 338 . طبقات فحول الشعراء 1/ 19-20 . معاني القرآن 1/ 88، 245 . مجالس العلماء الزجاج / 134 .

(2) الخزانة 2/ 253، 339 .

(3) الكتاب 2/ 398-399، 400-401 . معاني القرآن 1/ 47-48، 106 . املاء ما من به الرحمن 1/ 115-116، 2/ 115 . الخصائص 2/ 153، 183 . الاتقان 2/ 158 ، والكشاف 2/ 519 . الانصاف 2/ 420-423 .

(4) القرآن وأثره في الدراسات النحوية / 75 ، المحتسب 1/ 325-326 .

(5) الاتقان للسيوطي 1/ 83 . (6) البحر المحيط ، أبو حيان 1/ 36 .

واذا كان ثعلب وهو أحد أعلام القرن الثالث لا يرد القراءات ولا يفاضل بينها، فان أبا العباس المبرد قد رد كثيرا من القراءات ولحن قراءها في بعض الأحرف فمما رده :

- قوله تعالى : " فتوبوا الى بارئْكم "(1) و " يؤدهْ اليك "(2) باختلاس حركتي الهمزة في الأولى ، والهاء في الثانية (3) .

- وقوله تعالى : " ثم ليقطع " ، و " ثم ليقضوا تفثهم "(4) بتسكين اللام (5) .

- وقوله تعالى : " وما أنتم بمصرخيِ "(6) بكسر الياء الثانية (7) .

- وقوله تعالى : " هؤلاء بناتي هنَ أطهرَ لكم "(8) بنصب أطهر (9) .

- وقوله تعالى : " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ "(10) بخفض الأرحام (11) .

- وقوله تعالى : " وجعلنا لكم معائش "(12) بالهمز (13) .

وتتبعنا آراء العلماء في هذه القراءات واستخلصنا النتائج التالية :

1 - ان الاختلاس لغة عقيل وكلاب وقيل لغة لأزد السراة وقيل لغة لتميم وقد جاءت في شعر العرب (14) .

---

(1) البقرة الآية / 53 .
(2) آل عمران الآية / 74 .
(3) الخصائص ، 2/ 340 ، نزهة الألباء ، / 305 ، البحر المحيط ، 2/ 499 . التفسير الكبير الرازي 8/ 107 .
(4) الحج ، الآية / 27 .
(5) المقتضب 2/ 134 ، الخصائص 2/ 330 .
(6) ابراهيم الآية /28 .
(7) المقتضب 1/ 112 ، وانظر مراتب النحويين / 26-27 ، والبرهان في علوم القرآن 1/ 318-322 .
(8) هود الآية / 78
(9) المحتسب 1/ 325 .
(10) النساء الآية / 1
(11) المقتضب 1/ 112 . والكامل للمبرد 1/ 44-45 . وانظر درة الغواص/62-63 والمحتسب 1/ 179-180 ، واملاء ما من به الرحمن 1/ 165 .
(12) الأعراف الآية / 10 .
(13) انظر المقتضب 1/ 123 ، وكذلك فعل أبو عثمان المازني ، المنصف 1/ 307
(14) انظر الكتاب 4/ 200 . الحجة لابن خالويه 77-78 ، 111 ، والخصائص 1/ 72-73 و 128 و 370 و390 . والمحتسب 2/ 217 ، وشرح التسهيل ، 1/ 145-109 ، 61 . التفسير الكبير الرازي 8/ 107 ، والبحر المحيط ، 1/ 206 و 2/ 499 .

2 ـ ان تسكين اللام الطلبية بعد " ثم " تخفيفا لثقل الكسرة جائـز عند السيوطي ، وأبي حيان النحوي ، وغيرهما من العلماء (1) .

3 ـ ان خفض الياء الثانية من " مصرخي " لغة بني يربوع ، والعلماء يكادون يجمعون على أنها لغة قليلة أو ضعيفة لثقلها أو هي لغية أو هـي جائـزة (2) .

4 ـ ان نصب " أطهر " جائز في القياس وله نظائر في اللغة (3) وقد رأينا ابن قتيبة يذكرها في وجوه الاختلاف .

5 ـ ان عطف الظاهر على المضمر المجرور بغير اعادة الخافض جائز عند كثير من العلماء كيونس ، والأخفش ، وقطرب ، والكوفيين ، وابن جني (4) .

6 ـ وأما همز " مفاعل " من " عيش " في قوله تعالى : " وجعلنا لكم معايش " فيمكن النظر اليه بشيء من التوسع لما فيه من خلاف كبير :

قال ابن جني أكثر أصحاب نافع يروى عنه : " معايش " بلا همز وهـو المشهور والذي يروى عنه بالهمز ، خارجة بن مصعب ، لأن الهمز قراءة شاذة (5)

روى الجاحظ أنه قيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك عن ابنك ؟ قالت : ان مصيبته أمنتني المصائب بعده (6) . وروى بعض العلماء أنه سمع عن بعض العرب : " رثأت زوجي ، لبأت بالحج ، وحلأت السويق حملا على غيـر النظائر ، وللاشتباه ، وجاء عنهم مصائب ، ومزائد ، ومنائر ، فقد توهمـوا أن مصيبة " فعيلة " كصحيفة ، وانما هي " مفعلة " . وأكثر العرب يقول مصـاوب على القياس ، وتجمع على " مفاعل " . وبنات الياء في جميع هذا كبنات الواو في ترك الهمز وفي الهمز ، لأنها ليست بالاسم على الفعل فتعتل عليه ، وأصلهـا

---

(1) معاني القرآن 1/ 285 . القرطبين 2/ 28ـ29 . المحتسب 1/ 227 . الهمـع 2/ 55 . (2) المحتسب 2/ 49ـ50 . شرح الاشموني 2/ 265ـ266 . امـلاء ما من به الرحمن 2/ 68 . أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك 3/ 196ـ197 ، شرح التصريح 2/ 60ـ61 . الخزانة 4/ 327ـ332 .

(3) المحتسب 1/ 325ـ326 ، والقرآن وأثره في الدراسات النحوية / 75 .

(4) الكتاب 2/ 377ـ380 و384 . والكامل للمبرد 1/ 45 ، والحجة لابن خالويه / 119 ، معاني القرآن 1/ 252ـ253 . القرطبين 1/ 111 ، وضرائر الشعـر لابن عصفور / 147ـ149 . والتفسير الكبير الرازي 9/ 163ـ164 . وأوضح المسالك الى ألفين ابن مالك 3/ 392ـ393 . شرح التوضيح / 151 ، 152 ، 183 . والخصائص 1/ 285ـ286 .

(5) المنصف 1/ 307 ، شرح الاشموني 4 / 254 . (6) البيان والتبيين 1/ 263 .

التحريك ، فجمعها على الأصل كأنك جمعت معيشة ومصوبة ومقولة ، ومقومسة ومزودة ومنورة ولم تجعله بمنزلة ما اعتل على فعله ، ولكنه أجرى مجرى مفعال(1)

ونحن نرى أنه ما دامت هذه القراءة رواها خارجة بن مصعب والمتواتر عن نافع بالياء . ثم ان منزلتها في قياس لغة العرب أن تكون من بنات الياء والياء أصلية فيها فانه لا يمكن قبولها ولا يصدر مثل هذا الا على السهو والغلط وعدم الضبط(2) .

وما روى عن العرب من الهمز على سبيل التوهم والاشتباه لا يقوم حجة ، لأن الأعرابي ليس قدوة في كل شيء يتعلق باللغة وانما يكون قدوة في الجر والنصب والرفع (أي في الاعراب) وفي الأسماء وأما غير ذلك فقد يخطىء فيه ويصيب(3) ولا يشفع لهمز هذه القراءة ما ذهب اليه بعض النحويين من تجويزها على الفرعية تشبيها أو حملا على فعيلة كما همزت مصائب لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة ولا هي زائدة(4) .

ورد المبرد لهذه القراءات على جوازها يرجع الى تمسكه بالقياس ، فأقوى ما طبع به أبو العباس عن تاريخ النحو العربي هو اعتراضه على الروايات ، ورد ما لم يستقم منها على مذهبه في القياس ، ولا يلتفت الى شيء من هذه الروايات التي تشذ عن الاجماع والمقاييس(5) ، وكان يفر من الروايات المخالفة للقياس بما يبطل به موضع الخلاف كلية ، وذلك أنه كان يعمد الى كثير من الروايات فغير وجه الانشاد فيها حتى تستقيم الرواية على أصوله القياسية(6) وهذا ما دعا علي بن حمزة الى القول : " وهذا من فعل ابي العباس غير مستنكر لانه ربما رأى المذهب الذي يخالف فيه أصل العربية ، واحتاج الى نصرته فغير الشعر المحتج به "(7) وغايته من هذا كله النزوع الى التمكين للقياس ، وطرد مسائل اللغة على أبوابه ، ولو على حساب الظاهرة اللغوية المروية ، وذهب به الأمر

---

(1) معاني القرآن 1/ 459 . الكتاب 4/ 354-356 و 3/ 610 . والسبعة في القراءات / 279 . المنصف 1/ 307-310 . الخصائص 3/ 144-145 و 277 .
(2) النشر 1/ 16 . (3) الحيوان 2/ 54 .
(4) الصحاح 1/ 165 ، ومختار الصحاح 465 . المخصص 14/ 20-21 . شواهد التوضيح / 369 . شرح ابن عقيل 4/ 212 . المثل السائر 1/ 50-51
(5) النوادر في اللغة ، أبو زيد / 67-68 .
(6) المحتسب 1/ 227 ، والخصائص 2/ 330 .
(7) التنبيهات علي بن حمزة / 109 .

الى تغليط سيبويه في بعض المسائل (1) . وكان يقول : " القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة " (2) .

وفي ختام هذا الفصل نذكر موقف أحد علماء هذا القرن من وجود المعرب في القرآن الكريم ، واختلاف العلماء فيه . فقد ورد عن أبي عبيدة أنه أنكر أن يكون في القرآن سوى العربية ، وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم أن في القرآن أحرف كثيرة من غير لسان العرب .

ومن علماء هذا القرن من وقف موقفا وسطا . قال أبو عبيد القاسم بن سلام ، معقبا على المذهبين السابقين : فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا الى مذهب ، وذهب هذا الى غيره ، وكلاهما مصيب ان شاء الله تعالى ، وذلك : أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربته ، فصار عربيا بتعريبها اياه ، فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الأصل (3) .

---

(1) المقتضب ، 3/ 71

(2) الكامل ، للمبرد ، 1/ 34-35 ، وانظر 1/ 22

(3) أدب الكاتب ، / 384 . الصاحبي ، / 60 - 61 . المعرب للجواليقي ، / 504 . شفاء الغليل ، / 3 . المزهر ، 1/ 268 - 269 . الاتقان ، 1/ 137 .

الفصل الثاني

- الشعر -

عرف الناشئ الأكبر الشعر فقال : "الشعر قيد الكلام ، وعقال الأدب ، وسور البلاغة ، ومحل البراعة ، ومجال الجنان ، ومسرح البيان ، وذريعة المتوسل ، ووسيلة المتوسل ، وذمام الغريب ، وحرمة الأديب ، وعصمة الهارب ، وعذر الراهب ، وفرحة المتمثل ، وحاكم الاعراب ، وشاهد الصواب" (1) . ان للشعر طبيعة خاصة يتميز بها عن النثر ، ففيه يتقيد منشئ الكلام بضوابط وحدود اذا أخل بها خرج من حد الشعر ، والشعر مجال فسيح للخيال والصور البيانية والمعاني المتجددة ، يتفاوت فيه الشعراء بقدر اكتمال آلتهم الفنية وبحسب استيعابهم للتجارب والأغراض واقتدارهم على التعبير عنها في القالب الجميل . وأول ما يختص به الشعر هو أنه مقيد بايقاع الوزن والقافية ، وهذا يتطلب امكانيات وبراعة ومهارة لتحقيق مهمات جليلة ، وهو وسيلة الشاعر الى استفتاح المغلق ، وتوضيح المبهم ، وكشف الخفي ، والارتفاع بالخيال ، والسمو بالأحاسيس والوجدان ، وهو مجال للجمع بين ما يبدو متناقضا ومتنافرا وعون للكاتب المتوسل ، وسبيل للاعتذار ، وموطن للتمثيل والاستشهاد وايراد الشواهد النحوية واللغوية .

والناشئ واحد من أعلام القرن الثالث لم يتحرر من إسار القديم ، فرأى أن الشعر هو : "حاكم الاعراب وشاهد الصواب" وهذا كما رأينا لا ينطبق على شعر الطبقة الرابعة من الشعراء ، لأنه لا يحتج به وأن خرج الزمخشري على هذه السنة الا أنه لم يلق مذهبه هذا رواجا فانتقد ورد عليه . ومع هذا فان باقي حدود التعريف تنطبق على شعر الطبقات الأربع ، ولا فضل فيها لمتقدم على متأخر .

وصناعة الشعر لا تستحكم وتجود الا بأربعة أشياء وهي : جودة الآلة ، واصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف ، والانتهاء الى تمام الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها" (2) . وشروط جودة الآلة : سلامة الجهاز الصوتي

---

(1) البصائر والذخائر ، أبو حيان التوحيدي ، 2 / 117 .
(2) الموازنة ، الآمدي ، 1/ 402 .

من العيوب ، والاستعداد الفطري ، وحفظ كثير من أشعار الأولين حتى ترسخ فيه أساليب العرب المخصوصة بالشعر ، ثم لا يلبث أن تكتمل أدواته الفنية ، وآلته القولية ، فيسبق الى بعض المعاني والصور ويخترع بعضا آخر ، ويشق لنفسه بعد ذلك أسلوبا يتميز به عن باقي الشعراء السابقين والمعاصرين .

ومن خصوصيات الشعر الأسلوبية ما اصطلح عليه العلماء الأولون ، بالضرورة الشعرية ، قال سيبويه : " واعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف يشبهونه بما ينصرف من الأسماء ، لأنها كما أنها أسماء ، وحذف ما لا يحذف يشبهونه بما قد حذف ، واستعمل محذوفا " (1) وقصر الممدود ، وتخفيف الهمز ، وما الى ذلك مما قد يضطر اليه الشاعر ولا يعتبر لحنا أو خطأ ، لأن الشاعر الموهوب الممتلك للأداة التعبيرية العارف بصروف الكلام ووجوهه لا يستعمل الا ما يبيحه له نظام اللغة العربية . وليس شيء يضطرون اليه الا وهم يحاولون به وجها ، وقد تلزم العرب الضرورة في الشعر في حالة السعة أنسًا بها ، واعتيادا لها ، واعدادا لحين الحاجة اليها (2) واستشهد ابن جنى ببيت لابن النجم قال فيه :

قد أصبحت أم الخيار تدعي علي ذنبا كله لم أصنع

قال ابن جنى : " فرفع كله للضرورة ولو نصب لما كسر الوزن " وانا لنعجب من هذا الرأي يصدر من عالم جليل فذ كابن جنى ، ولا ندري ما ضرورة الرفع اذا كان النصب لا يكسر الوزن ، والذي نراه أن المعنى والغرض هو الذي يكون وراء الضرورة فالشاعر يلجأ اليها لتحقيق التوازن المعنوي ولتحقيق الغرض الابلاغي .

ويبدو أن ظاهرة الضرورة قد فتحت بابا يهرب منه بعض العلماء كلما اعوزهم تأويل شاهد شعري ، والا فأي ضرورة في هذا البيت ؟ فكلام ابن جنى يقتضي أن يكون بعض الكلام مفيدا وبعضه غير مفيد ، لأننا " اذا تأملنا هذا البيت ، وجدنا أن الشاعر لم يرتكب الرفع لضرورة ، ولم يحمل نفسه عليه الا لحاجة له ، والا لأنه رأى النصب يمنعه ما يريد ، وذلك أنه أراد أنها تدعي

(1) الكتاب 1/ 26 وانظر نقد النثر / 75-76 والصاحبي / 273 .
(2) الخصائص 3/ 303-304 وانظر الكتاب 1/ 32، 44 .

عليه ذنبا لم يصنع منه شيئا البتة ، لا قليلا ولا كثيرا ، لا بعضا ولا كلا" (1) ولو نصب لتغير المعنى واقتضى ذلك أن يكون قد أتى بعضا من الذنب الذي ادعته ، ولا يخفى على أحد الفرق بين : " ما كل ما يتمنى المرء يدركه " وبين : " كل ما يتمنى المرء لا يدركه " فالأول نفي للشمول والكلية دون البعض ، والثاني نفي للكلية والشمول بغير استثناء ، لأن دخول معنى النفي في الكلية يقتضي أن لا يشذ شيء عن النفي .

وعجز بعض العلماء عن تخريج بعض الاستعمالات على الوجه الذي قصده الشاعر دعاهم الى اعتبار الضرورة عيبا ، وهي على من استعمل بديهته وقال الشعر على الهاجس والسجية أقل عيبا منها على من استعمل الفكر والروية وكرر النظر والتدبر ( ) .

ولقد كان بعض آخر يرى أنه كما جاز أن نقيس منثورنا على منثور العرب ، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا ، وما حظرته عليهم حظرته علينا ( ) .

والاعتذار للعرب بالبداهة والابتداء لا يقف في وجه النقد لأن شعرهم لم يكن كله مرتجلا حتى يكون عذرهم فيه أوسع وعذر التاليين أضيق . فقد كان يعرض لأولئك فيه الصبر والتأني والتنقيح ما يعرض لغيرهم ، كما كان يعرض فيه لهؤلاء المحدثين الارتجال والبداهة .

وكان من العلماء من ينتقص من المولدين ويتعرض لهم بالتجريح ، والغض من شأن أدبهم فتراهم يبهرجون كل محدث أو معاصر ، ويقدسون كل قديم ، لأن المعاصرة حجاب . روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قد استحسن شعر المولدين حتى هم بأمر الصبيان بحفظه وروايته ، كما روي أن رجلا أنشد ابن الأعرابي شعرا لأبي نواس أحسن فيه وأجاد فسكت ابن الاعرابي ، فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ فقال : بلى . وقد كان يروي بعض أشعاره ويتمثل بها ( ) وقرأ عليه أبو عمرو الطوسي أرجوزة أبي تمام على أنها

---

(1) دلائل الاعجاز / 215 ، وانظر / 220 . (2) نقد النثر / 76
(3) الصاحبي / 275 .
(4) انظر رسائل ابن المعتز / 13-14 ، وديوان أبي تمام 1/ 271 ، وأخبار أبي تمام / 177 ، والموشح / 328 ، والموازنة 2/ 23 ، الاغاني 3/ 23 ، 7/ 174 .

لبعض هذيل فطلب منه كتابتها له فكتبها ، ثم قال له : أحسنة هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قال : انها لأبي تمام ، فقال : خرق ، خرق .
وتروي قصص عديدة لبعض العلماء في هذا السياق (1) ، ولم تقتصر آراء بعض اللغويين والرواة على شعر المحدثين في بهرجته ورده ، بل امتدت الى شعر فترة الاحتجاج كشعر رؤبة بن العجاج وأبيه وذي الرمة (2)

وكانت هذه الفئة من العلماء ترى أن الجاهلي ابتدأ قول الشعر وسبق اليه وحاز فيه ، فلا ينكر أن يزل أو يقع منه اخلال ، وتأتي منه عيوب وقف عليها العلماء ونبهوا عليها ، وطالبوا المحدثين بتجنبها . وعلة ذلك أن أشعار الجاهليين وأقوالهم قد ذللت وكثرت رواية المحدثين لها ووجدوا أئمة قد ماشوها وراضوا معانيها فهم - أي المحدثين - يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفسيرها ، واستجادة جيدها ، وعيب رديئها ، فالا قواء مثلا خطأ ولحن وهو في شعر الأعراب دون الفحول من الشعراء كثير ، ولا يجوز لمولد لأنه عرف أنه عيب والبدوي لا يأبه له فهو فيه أعذر (3) وراحوا يتتبعون أشعار المحدثين ويتعقبونها (4) .

ورغم ما يبدو من مبالغة وغلو فيما يروى الا أن الثابت أن هؤلاء العلماء قد وقفوا من المحدثين موقفا غير مرض .
وحقيقة الأمر أن العصر كان اسلاميا ما زالت ظاهرة الاعجاز فيه طرية ندية شغلت اهتمام الناس وكان العصر شهد مولد صنوف العلوم التي نشأت في كنف الاسلام ، واقتضت هذه الحال أن تحرص اللغة في تلك الفترة حتى يستطيع العلماء استنباط الأحكام الشرعية وتفسير آي القرآن . وقد ساعد الاحتكاك بالأجانب على توليد ألفاظ وتراكيب جديدة في أشعار المولدين لا تساعد على القيام بهذه المهمة ، بينما لغة العرب البدوية تفيد في فهم غريب القرآن والحديث ، ويستشهد لهما من الشعر ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ

---

(1) أخبار أبي تمام / 175 . رسائل ابن المعتز / 13 . الصناعتين / 51 . الوساطة / 49 . الخصائص 5/ 143 . الموازنة 2/ 23 . الأمالي القالي 1/ 194 . الأغاني 5/ 143 . نزهة الألباء / 171 .
(2) الخصائص 3/ 296 . العربية ليوهان فك / 52 .
(3) طبقات فحول الشعراء 1/ 71 . الموشح / 22 ، وانظر فصول في فقه اللغة العربية رمضان عبد التواب / 75 .
(4) طبقات ابن المعتز / 199 . أخبار أبي تمام / 33، 37 . الصناعتين / 132-133 . الموشح / 72، 268، 314، 323، 333، 335، 345 .

القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد [1] ولولا تلك الصيانة وذلك
الحرص لجاءت لغتنا التي تكتب ونتثقف بها غير لغة أسلافنا ولحدث لها مثل ما
حدث للاتينية .

واذا كان فهم لغة عصر ، والمحافظة عليها ضروريين لتفسير نصوص أدب
وثقافة ذلك العصر ، فان ايثار جيل بالتقدم في المعاني والصور والأغراض عن
جيل ثان في عصر اختلف ذوقه ، ومعانيه ، وقدراته الفنية ، وأساليب حياته
الاجتماعية ، وقيمه النقدية والجمالية ليس له مبرر ، فالمتأخر من الشعراء في
الزمان لا يضره تأخره اذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمه اذا قصر وان حاز
فضل السبق فعليه درك التقصير كما أن للمتأخر فضل التجويد أو الزيادة
والاختراع ، وليس ضروريا أن يرفل المحدث في أغلال القديم بالتقليد والاقتداء ،
وأن لا يجوز له الاختراع والتقدم ، وحتى يكون متنفسا لهواء عصره برئة غيره .

قال ابن قتيبة : " وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي
الغريب الذي لم يكثر ككثير من أبنية سيبويه ، واستعمال اللغة القليلة في
العرب كابدالهم الجيم من الياء وكابدالهم الياء من الحرف في الكلمة المجرورة
كابدال الياء من العين .. " [2] .

وكان العلماء في القرن الثالث ينظرون بعين الانصاف الى الشعر
قديمه ومحدثه ، ويرون أن النظر في الشعر يتطلب آلة وعدة ، وليس معيار
القدم والحداثة بقادر على تأمين الدارس العثرات والهفوات بل ليس بقادر على
توفير معيار لتمييز الجيد من الرديء ، لأن الجيد ليس له عصر ، وليس مقتصرا
على جيل دون جيل قال الجاحظ : "وقد رأيت ناسا منهم (من العلماء)
يبهرجون أشعار المولدين ويستقطون من سواها ، ولم أر ذلك قط الا في
راوية للشعر ، غير بصير بجوهر ما يروي ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد
ممن كان ، في أي زمان كان ، . فهم – أعني العرب البدو – وان كانوا أجادوا
في قول الشعر وفاقوا فيه عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة ،
الا أن ذلك ليس بواجب لهم في كل ما قالوه ." [3] .

---

(1) الصناعتين ص 144 .
(2) الشعر والشعراء ص 15 .
(3) الحيوان 3ص 130 .

وقال ابن قتيبة :(1) " ... ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه ". وقوله هذا رد فعل لما شاع بين علمائه ومن تلقى عنهم ، حيث كانوا يستجيدون الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعونه في متخيرهم ويرذلون الشعر الرصين ، ولا عيب فيه عندهم الا أنه قيل في زمانهم وأنهم رأوا قائله ، ثم قال ابن قتيبة : " ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده " .

وعرف هذا القرن بالنظرة التوفيقية المنصفة ، لاتصاف العلماء فيه بالتأمل النزيه والتروي السديد، ولما توفر لهم من استعداد وثقافة استفادوا منها أيما فائدة فراحوا يعطون لكل حقه بغير اعتبار العامل الزمني قال المبرد : "وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق ".(2) ، وكان المبرد يعجب بشعر أبي تمام وبشعر البحتري ويرى أن أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج اليها للتمثيل — لأنها أشكل بالدهر — ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب (3) .

ولم يكن العلماء في هذا القرن لينصفوا هؤلاء الشعراء لو لم يروا فيهم وفي شعرهم ما يستحق ذلك . فقد حفظوا كثيرا من الأشعار والأراجيز . فأبو نواس كان يحفظ آلاف الأبيات والأراجيز ، وكذا أبو تمام الذي جمع المعرفة الابداعية الى المعرفة العلمية فاختار مجموعات شعرية شهدت له لا عليه بالحذق والاقتدار على التمييز بين الشعر الرديء والشعر الجيد ، وبشار كان من الخطباء البلغاء وكان أستاذ أهل عصره يحتكمون اليه قال الجاحظ : " ما رأيت رجلا أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة للاستكراه ، وكان للمولدين كامرئ القيس للمتقدمين ".(4) .

---

(1) الشعر والشعراء 1/ 2 .
(2) الكامل ، للمبرد ، 1/ 18 .
(3) نفسه ، 1/ 233 ، وانظر 1/ 244
(4) نزهة الألباء ، 77—78 .

وهيئوا الجمع بين المعرفة العلمية والمعرفة الابداعية الفذة زيادة عـلى وعيهم لواقعهم ومجتمعهم خول لبعضهم الاقتدار على مراعاة المقامات والمواقف الكلامية فطابقوا في أشعارهم بين كلامهم ومقتضيات الأحوال في كلام فصيح جيد ورصين . قيل لبشار : اذا شئت أن تثير العجاجة أثرتها في شعرك ، ثم تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت (1)

فقال : انما أخاطب كلا بما يفهم ، وروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر أتياه يوما فقالا له : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في مسلم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكم ، قالوا : أبلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب وقد كان العلماء يرون أن استعمال الغريب جائز للأعرابي، معيب على المولد) قال : نعم ، بلغني أن مسلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فانشدناها ، يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

فلما فرغ منها قال له خلف ، لو قلت ، مكان : " ان ذاك النجاح في التبكير" بكرا فالنجاح في التبكير " كان أحسن فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية ولو قلت : بكرا فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة (2) .

ان القواعد النحوية والصرفية والبلاغية في لغة الأعراب وفي لغة المولدين واحدة وما تختلف به لغة المولدين عن لغة الأعراب هو استعمال الغريب الوحشي في الثانية والتخلي عنه في الأولى، ويضاف الى ذلك الاهتمام باختيار التراكيب والأوضاع اللغوية فيختلف أسلوب المولدين بلينه ورخاوته ،وقد كان على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق وطواعية ألسنتهم وأنفسهم على النطق بغير الفصيح الجزل والفخم والرصين فتغير الرسم والملكة واحتذى المولدون في شعرهم هذا المثال، وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف مـا

(1) الموشح ، 249 / ويروى الشطر الأول : " ربابة ... " .
(2) دلائل الاعجاز ، 210 / – 211 .

سنح من الألفاظ، فصارت اذا قورنت بـ القديم تبين فيها اللين فيظن ضعفا واذا أفردت كان ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تتخيل ضعفا رشاقة ولطفا .

ومن أطرف ما روى في هذا المضمار قصة علي بن الجهم ، عندما وقف لأول مرة بين يدي الخليفة العباسي المتوكل مادحا وهو ما زال يطبعه البدوي مطبوعا يستقي صوره ومعانيه من بيئته ومحيطه. فشبهه بالكلب في الحفاظ للود، وبالتيس في قراع الخطوب ، وبالدلو الكبير في عطائه وسخائه ، ويندهش الحاضرون في المجلس ، ولكن الخليفة أدرك بلاغة الشاعر ونبل مقصده وخشونة لفظه، وتعبيره لملازمته البادية . وبعد أن تغيرت بيئة الشاعر وأسلوب معاشه وحياته أنشد الخليفة قصيدة جديدة. وحدثت المفاجأة ، فقد كانت من أرق الشعر أعذبه حتى شاعت شهرته، وذاعت، وملأت الآفاق بفضل هذه القصيدة الرائعة التي استهلها بقوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

يقول المتوكل :" انظروا كيف تغيرت به الحال ؟ والله ، لقد أخشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة "، وقد أخذت عليه بعض الاستعمالات اللغوية، وحاول بعض العلماء تعليلها والاستشهاد لها (1) .

فلغة الشاعر واحدة ونظامها واحد، والتجارب والبيئة مختلفتان، والشخص واحد ، فعبر عن شخصيته، وعن تجربته الثانية بأسلوب جميل جذاب ، ولو لم يكن الشاعر عالما بالشعر: جيده ورديئه مطبوعا، ذا ذوق وخيال نادرين ما كان ليحوز ما حاز قال الجاحظ :" انما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع وكثرة الماء ، وجودة السبك ، وانما الشعر صياغة ، وضرب من التصوير" (2) . فكل الناس يمرون بالتجارب وبالمواقف الحياتية اليومية وغيرها ، وكل عصر له تجاربه الخاصة ، ومواقفه التي يختلف بها عن غيره من العصور السابقة واللاحقة ، لكن الناس في الطبع والذوق والخيال وامتلاك الأداة التعبيرية والقدرة على اكتشاف العلاقات الجوهرية بين عناصر التجربة الواحدة ليسوا على قدم واحدة ، بل هم مختلفون اختلاف

---

(1) طبقات الشعراء ابن المعتز / 319 والموشح / 140، 345 والعمدة 1/ 195 .
(2) الحيوان 3، 131/3 ودلائل الاعجاز ، / 198 .

صورهم وأمزجتهم ، فأشعرهم أقدرهم على صياغة التجربة في أعلى هيئة وأرقى صورة بحيث يصيب المعني ويحقق الافهام والتأثير في الآخرين .

وقد كان بعض أهل اللغة يميل الى الرصين في الكلام الذي يجمع الغريب والوحشي من الألفاظ والمعاني مثل: ابن عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر، والأصمعي، والمفضل ، ولم يكن اختيار بعضهم الغريب بعيدا عن غرض تفسير ما يشتبه على الناس واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع اليها في أنفسها، وليس هذا هو الغرض من الكلام .

والكلام موضوع للابانة عن الأغراض التي في النفوس ، ولذا وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح في الابانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الإفهام ، أويمتنع بتعويض معناه عن الابانة ، ويجب أن يتنكب ما كان عامي اللفظ ، مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفسافي الوضع ، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد ، ولا طريق موطد (1) .

والعمل الأدبي شعرا كان أو نثرا هو الذي يمد الكيان الأدبي سواء كان كاتبا أم كتابا أم عصرا بخصوصيته، ومن ثم رأيت شعر المولدين أشبه بالزمان والناس له أكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم (2) فقد استوعب المحسوسات والمعاني والتجارب، وعبر عنها في قالب جميل صادق يعرف من خلاله أصحابه ومنشئوه ، وتعرف كذلك من خلاله ثقافة عصره وسماته الفكرية والأدبية .

فالشعر المولد اقتضته الظروف الاجتماعية والفكرية والذوقية في ذلك الزمان، فانطبع بصبغة جديدة مختلفة في جل مظاهرها عن العصر السابق ، بفضل النمط العقائدي والأخلاقي والفكري الذي أملاه الاسلام ، وبفضل الاحتكاك بالأمم المجاورة ذات الحضارات والمدنيات المختلفة ، فكان أن عزل المجتمع الجديد عن البداوة ، وهجر أسلوب اللغة البدوية الوحشية والغريبة .

---

(1) اعجاز القرآن ، الباقلاني ، / 116-118
(2) أخبار أبي تمام ، / 17 .

واذا أردنا حصر خصائص الشعر في هذا العصر نجدها تتمثل في التالي :(1)

1 - كان الشعراء أرحب ذراعا في صفة الشعر ، وأوسع خيالا ، مطبوعين عليه وعالمين بجيده ، ورديئه .

2 - فجمعوا بين اقتدار الأعراب وفصاحتهم ، ومحاسن المحدثين وملحهم ، فكان لهم أسلوب من المتانة وقوة البناء والرصانة والروعة .. ينتقون الألفاظ العذبة والرشيقة ، وينتخبون العبارات السلسة والرقيقة والفخمة الجليلة ، والمستحسنة الحكيمة ، ويرتفعون عن ألفاظ العامة المبتذلة السوقية ، ويبتعدون عن الألفاظ البدوية الحوشية الغريبة والوعرة ، ويلائمون بين هذه اللغة وبين الحياة العباسية المتحضرة فيستعذبها اللسان ، ويستأنس بها السمع والجنان ، ويحافظون على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية .

3 - تشبث بعضهم بلغة وبألفاظ المتكلمين والمناطقة وآرائهم في التجريد البعيد ، الذي يرفع الانسان من عالم المحسوسات الى عالم الوهم والخيال ، كما استخدموا كلمات وألفاظ فارسية فاختلطت في شعرهم بالألفاظ العربية الأصيلة .

4 - البحث عن المعاني اللطيفة ، والأغراض الغريبة النادرة البديعة ، فالقدامى رأوا الصحاري والبيد والوحش والابل والأخبية عيانا فوصفوها وأبدعوا والمحدثين في هذا دونهم. والقدماء فيما لم يروه أبدا دون المحدثين (2) . وظهرت أغراض وموضوعات اقتضتها الحياة الجديدة فتطلب ذلك أساليب تعبيرية جديدة خاصة .

5 - مبالغة بعض الشعراء في التصنيع والبديع حتى حشوا جل شعرهم منهما ، واجتهدوا ألا يفوتهم بيت الا ولونوه بألوان الصنعة والبديع .

والقرن الثالث يعتبر العصر الذهبي للثقافة والحضارة الاسلاميتين العربيتين ففيه نشطت الترجمة ، والاحتكاك بالثقافات الأجنبية وتلقح العقل العربي ،

---

(1) انظر طبقات الشعراء ، ابن المعتز / 108 ، الكامل للمبرد 1 / 233 ، وأخبار أبي تمام / 16-17 . قواعد الشعراء ثعلب / 67 ، البيان 1 / 156 ، 158 . العمدة 1 / 92 المثل السائر 2 / 4 . الخصائص 2 / 262 . العصر العباسي شوقي ضيف 1 / 142 - 147 ، 433 . والبحث اللغوي عند العرب حتى القرن الثالث آل ياسين / 358 .

(2) قال أبو نواس : صفة الطلول صفة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم قال : تصف الطلول على السماع بها أخذوا العيان كانت في الفهم

واذا وصفت الشيء متبعا لم تخل من زلل ومن وهم

الديوان ز ، / 539

وصقلت مواهبه ، وتهذبت حواشيه جميعها ، وكان طبيعيا أن ينعكس هذا الوضع على الحياة الأدبية والفكرية والعلمية ، لذا نجد الشعر وثيقة تاريخية هامة يمكننا أن نعرف من خلالها خصوصيات العصر ومميزاته الفكرية والأدبية وقيمه الفنية وطموحاته وآماله . ولم تكن لغة الشعر تختلف من حيث مادتها الصوتية وسننها التصريفية والنحوية والبلاغية عن لغة البدو ، اللهم الا في مستوى اختيار اللغة والأوضاع اللغوية ونظمها .

والاحتكام الى مقاييس الماضي فقط، والوقوف عندها ونقطها بغير اعتبار تطورها وتغيرها ، سيفضي لا محالة الى نهاية كل تذوق أدبي ، والى فوضى كاملة ، وبالتالي الى نفي المستويات الفنية المختلفة الكامنة في النص الأدبي التي تتكشف للمحلل بصورة تجعل العمل الأدبي ثرا لا تنتهي جواهره وقيمه ، والى نهاية القيمة الفنية والخصوصيات الأسلوبية المتميزة الفريدة لكل عصر ولكل شاعر ولكل نوع أدبي ولكل غرض .

ولقد أجمع النقاد والبلاغيون على أن القصيدة الجاهلية لا تتوفر فيها الوحدة الموضوعية ، ولا الوحدة العضوية . لكنهما قد تحققتا في القصيدة المولدة وخاصة في القرن الثالث . فنحن نجد في هذه القصيدة على أيدي أبي تمام والبحتري وابن الرومي الجوانب المتنوعة الكثيرة من الصورة والموضوع والفكرة واختيار الكلمات ونظمها والبحر المختار والقافية المقصودة ، وكل ما يمكن أن يضيفه الانسان الى ذلك . تتجانس وتبرز نفسها بصفتها وحدة لا تنفصم عراها والذي اكتسب القصيدة هذا التجانس هو " الأسلوب " . لأن الأسلوب في نظرنا هو العمل الأدبي - القصيدة مثلا - وهو كل شيء يمد الكيان الأدبي بخصوصيته . وهذا التجانس في القصيدة هو وحده الذي يمنحها جمالها وكمالها من الناحية الفنية ، هذا الجمال الذي لا يرجع الى معاني الكلم أفرادا عارية من معاني النحو ووجوهه وفروقه ، ومن ثم فان معرفة أسلوب قصيدة القرن الثالث لا تتم بعيدا عن دراسة كل شيء يبرز خصوصيتها كتتابع الأصوات والبحر ، ووحدات المعنى ، والمضمون الذي يتعلق بالمعنى ، وبالتأثير وما الى ذلك . لأن الصورة أو الهيئة التي يريدها الشاعر لقصيدته تكون صورة نظم الأجزاء كالبناء التام . والمفهوم من الجميع مفهوم واحد ، والقصيدة من أولها الى آخرها كلام واحد .

تتحد أجزاؤه العضوية لتصير الألفاظ من أجل ذلك كأنها لفظة واحدة (1).

فاذا رمزنا – في بعض قصائد هذا القرن – لتتابع المقاطع والتنغيم والنغمة الأساسية والكثافة والسرعة والطلاقة والانقطاع، وما الى ذلك "بالدال"، ورمزنا للمعنى والعناصر المعنوية التأثيرية والخيالية "بالمدلول"، نجد انهما يتطابقان ويتحدان، والعلاقة بينهما مميزة وليست اعتباطية هشة فتكون على هذا الاعتبار بعض القصائد على هذه الصورة التعادلية : القصيدة في قوتها الدال + المدلول .

فالأسلوب هو تفاعل بين ذات الشاعر والأديب، وبين التجربة المعيشة، واللغة كظاهرة اجتماعية، فهو يستخدم لغة الناس بطريقته الخاصة . وكلما زاد هذا التفاعل نضجت التجربة واكتمل اطارها، وكان للشاعر موقف خاص تخرج بذلك القصيدة شكلا وموضوعا كلا متكاملا مقنعة ومؤثرة .

ونحن وإن كنا لا نجزم بأن جميع الشعراء في هذا القرن قد استطاعوا يحققوا الوحدة العضوية في شعرهم، فاننا لا نستطيع أن نتجاهل أن بعض الشعراء البارعين الذين يتمتعون بأصالة فنية وموهبة بارزة، وبالصدق النفس قد حققوها على أتم ما يكون التحقيق . من هؤلاء أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي ، وأبو تمام، والبحتري .

إن هذه الخصائص الأسلوبية للشعر في هذا القرن تعتبر قاسما مشتركا بين هؤلاء الشعراء، لكنهم ليسوا متساوين في التوفر عليها . فابن الرومي أشعر أهل زمانه بعد البحتري وأكثرهم شعرا، وأحسنهم أوصافا، وأبلغهم هجاء، وأوسعهم افتنانا في سائر أجناس الشعر، وضروبه وقوافيه، ويركب في ذلك ما هو صعب متناوله على غيره، ويلزم نفسه ما لا يلزمه، ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجمل بها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف، وأعرب لفظ . وهو في الهجاء مقدم، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره، غزارة قول، وكثرة منطق " (2).

---

(1) الدلائل / 317 .
(2) معجم الشعراء المرزباني / 145 .

كان يختار ألفاظه، ومعانيه مقتدرا بطبعه، وذوقه، وخياله على الاتيان بما لا يستطيعه غيره يكتشف العلاقات بين الأشياء، والمعاني المطروحة في الطريق فيسبكها بيد الفنان الحاذق، وبفكر الكيمائي الماهر ، فيستحيل اللجين في مخبره النفسي والخيالي شبابيك من الذهب ، ويجمع بين قالي الزلابية في مطبخه ، والكيمائي في مخبره في لوحة فنية رائعة، وقلما تجد قافية مقيدة الا وأتت الحركات قبل رويها مختلفة ، وانما المستحسن - على حد قول ابن جني - هذه رائية ابن الرومي في وصف العنب حيث جاءت سليمة مما لا يكاد يسلم منه غيرها ، التزم فيها الواو البتة ، ولم يجاوزها غالبا [1] قال فيها :

وراد قيٍّ مخطفِ الخصورِ كأنه مخازن البلورِ

وكان يتتبع جزئيات الموضوع ، ويتقرى أطرافه، وحواشيه، ويسبر أغواره ونواحيه حتى يأتي عليه ، ويتطابق عنده الشكل والمضمون ، وتصبح القصيدة كلا متكاملا قابلة لأن تعنون . فالقصيدة لا تتم الا بتمام المعنى الذي أراده ، وعلى النحو الذي نحاه ، حتى قيل عنه " وكان اذا أخذ المعنى لا يزال يستقصي فيه حتى لا يدع فيه فضيلة ولا بقية ، ومعانيه غريبة جيدة " [2] . وقال العقاد : " العلامة البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول النفس ، وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم ، وجعلوا القصيدة أبياتا ، منفردة يضمها سمط واحد قل أن يطرد فيه المعنى الى عدة أبيات ، وقل أن يتوالى فيهما النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير ، والتبديل والتحويل ، ... وجعل القصيدة " كلا " واحدا يتم الا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين ، وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة " [3] .

---

(1) الخصائص ابن جني ، 2/ 260-263 .
(2) معاهد التنصيص ، عبد الرحيم العباسي ، 1/ 108 .
(3) ابن الرومي ، حياته من شعره ، العقاد ، / 326 .

وقد عيبت عليه بعض الاستعمالات اللغوية ، كما عيب عليه اكثاره من ذكر الألفاظ الفارسية، لأنها تستظرف، وتستحسن في الشعر وفي غيره من الكلام الفني. وكانوا يعيبون عليه بعض شعره فيقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا البشر

والبحتري كان مغرما بفنه وشعره عارفا بأغواره ومداخيله ، حتى دفع في مسلكه الى مضائقه ، وانتهى الى ضروراته ، وحتى أصبح ذا مذهب يتسم بالصنعة المحكمة المليحة ، والتعمل اللطيف ، واختيار الألفاظ الرشيقة ، والسلسة للمعاني البديعة القريبة والصور الحية النابضة ، والقوافي المعبرة. فجاء شعره مهذبا في غير إخلال بعمود القصيدة العربية [1] . وما أحسن ديباجته رثاء المتوكل في القصيدة التي وقعت موقعا حسنا في نفوس النقاد الأقدمين، وحتى المحدثين، فقالوا: ما قيلت مثلها هاشمية [2]. وهي التي يقول فيها :

ولم أر في القصر اذ ريع سربه واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

وبالرغم من شهرة البحتري، وعلمه باللغة والفصاحة وحذقه للشعر لم يكن بنجاة من بعض اللغويين ، فتعقبوا شعره، ولحنوه في بعض المواضع، الا أن بعض المنصفين نبهوا على أنها ليست كذلك، وأشاروا الى أن بعضها لغة لقبيلة عربية وبعضها جائز في قياس اللغة أو داخلة في ضرورات الشعر [3] .

وأبو تمام قد كان يعاني من حبسة شديدة اذا تكلم ، وكان عالما بالشعر جيده ورديئه ضليعا في اللغة ، وكان يستعمل الألفاظ المنطقية، والغريبة مما شاع في شعره بعض الغموض والابهام ، ويغوص طالبا المعاني، والصور البيانية الجديدة ، ويعتني أشد الاعتناء بالبديع والصنعة المحكمة ، يأتي بالأشياء من

---

(1) انظر رسائل ابن المعتز ، / 12، 18، وأخبار البحتري ، /57، 58، 170 ، أخبار أبي تمام ، / 72، 73، 76، 97 . والموازنة ، 1/ 400 ، والعمدة ، 1/ 30 و 2/ 119 . أعجاز القرآن للباقلاني ، / 115، والصناعتين ، / 147، والعصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، 118 .
(2) الديوان ، 2/ 1045 ـ 1049 .
(3) انظر : الموشح ، / 333ـ335 ، والعصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف، / 185ـ 186 .

بعده، فيأخذها بقوة فشاع في شعره التطابق، والتجنيس، والتورية حتى قيل انه أذهب حلاوة شعره ورونقه وقائدته ، وقد كان غزير الشعر مجيداً في أكثره لا يتعلق به أحد في أزمانه كثير الإبتكار ، وخلق الصور ، فكان بذلك صاحب مذهب خاص ينبني على العقل والبهرجة والزخرفة ، وعلى يده نضجت القصيدة العربية وكملت صورتها التي اعتبرتها العصور بعد ذلك تامة[1]

وهذه الخصائص والمميزات شيء طبيعي يربطها بشخصية أبي تمام، وبيئته. وما سمي الشاعر شاعرا الا لأنه يشعر بما لم يشعر به غيره ، فاذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراعه ، أو صرف معنى من وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس الوزن بفضل مع التقصير ، وانما السبق والشرف في المعنى[2] . فقد نقرأ قصيدتين بنفس الوزن وبنفس القافية ، ولا نقف منهما موقفا واحدا ، لأنهما لا تؤثران فينا نفس التأثير ، فنعجب باحداهما ، ولا تحدث فينا الأخرى أي أثر . ولو كان بالوزن، وبالقافية يكون الشاعر شاعرا لتساوى الشعراء في كثير من قصائدهم.

فأبو تمام وقف شامخا على مر العصور، والأزمان بالمعاني والصور، وكان عليه أن يدفع ضريبة الشهرة ، والتفوق. فتعصب عليه بعض العلماء ، وتتبعوا أشعاره ورموه بالهيام والولوع بالغريب من المعاني التي يحتاج في فهمها حسب زعمهم — الى تأمل ومشقة . وهذا ليس عيبا، انما العيب في أنه شحن ديوانه بالغموض والتعقيد اللذين يرهقان الفكر، والخيال في تتبعهما ، اذ ليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث الا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن الا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وكل جديد هو غريب في زمانه وبيئته .

ومما أخذ على أبي تمام ، إستعماله أضعف اللغات[3]. أو القليل في

---

(1) انظر، رسائل ابن المعتز ، 12-18، أخبار ابن تمام ، 53 ، 59 ، 68 ، 96 ، 97 ، 118 ، أخبار البحتري ، 137 ، 138 ، 165 ، 166 ، الصناعتين ، 52 ، اعجاز القرآن الباقلاني ، 107 ، 110 ، 225 ، 227 ، 284 ، العمدة ، 1/ 110 — 130 ، الديوان ، 2/ 316 ، المثل السائر ، 2 / 22 ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، 221 ، 241 ، 298 . والملاحظ أن أبا تمام لم يكن يستعمل الالفاظ المنطقية في دلالاتها الاصطلاحية دائما ، انظر الديوان ، 1/ 30 — 31 .

(2) العمدة ، 1 / 74 ، 96 .

(3) الديوان ، 2/ 16 وانظر الصحاح 1/ 225 والاقتضاب / 216 ، وأدب الكاتب / 312 .

الاستعمال الشاذ في القياس[1] ، مثل قوله : شتان ما بينهما ، أو تعديته ، أظلم ، أو جمعه ، شخص على أشخاص ، ودارس على أدراس ، أو استعماله هل بمعنى قد وهو جائز[2] . وجل ما أخذ عليه له وجه في العربية .

ومما أخذ عليه في المعاني والصور قوله : " رعته الفيافي " في بيته :

رعته الفيافي بعد ما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

جاء في لسان العرب " أن الفيفاء : المفازة ، لا ماء فيها ، والفيفاء : الصحراء الملساء ، وهي الفيافي[3] . ان الجمل يرعى الفيافي عندما تكون مخضرة ، فيأكل عشبها ، فيبدن ويسمن ، وعندما تجدب تضعفه . فالتجربة في أصلها معروفة مبتذلة عند العربي ، وأبو تمام لم يفعل شيئا غير أنه تفاعل مع التجربة الغفل فأخذها بخياله وأدواته الفنية ، وصاغها صياغة فنية جميلة ، وهو وان لم يكن له فضل في أصل المعنى المتعارف عليه ، فان له فضل في تركيب الصورة الجديدة التي تحل محل الأصل بأن سلك في نظم أجزائها ووحداتها المسلك الذي أخرجها على هذه الصورة التي اجتمعت فيها الأشياء المتباعدة الأمكنة .

فأبو تمام اكتشف علاقة دقيقة وصراعا جوهريا بين الجمل والفيافي لتوازن صفاتهما المتنافرة ، فيبعث في هذا الصراع نشاطا وحيوية وأشاع بينهما انسجاما وائتلافا بخياله السحري ، فالفيافي عندما تخضر وتعشب تكون مرعى للجمل فيرعى فيها ويسلبها اخضرارها وكلأها ، وعندما تجدب وتقفر لا يجد الجمل ما يأكل فيضعف ويهزل فيها قاطعا المسافات فتكون كأنها تأخذ الذي أعطته . ففي حياة أحدهما هلاك للثاني ، ولا يمكن أن تستقيم حياتهما معا[4] . وأخذ عليه قوله : " ماء الملام " في بيته :[5]

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

---

(1) الموازنة 1/ 201 ـ 203 ، و 2/ 255 - وانظر الكتاب 1/ 98 ـ 101
(2) الكتاب ، 1/ 98 ، 101 ، 3/ 568 ، أسرار العربية الأنباري ، / 152 ، الخصائص ، 2/ 3 ، 462 ، 465 . شرح المفصل ، 4/ 18 ، المغني ، 2/ 351 . القياس والسماع ، / 18 ـ 19
(3) اللسان ، 9/ 274
(4) نظرية المعنى ، مصطفى ناصف ، / 40 ، 106
(5) الديوان ، 1/ 22 ـ 23 ، أخبار أبي تمام ، 33 ، 34 ، 36 ـ 37 ، الموشح / 323 . الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ، / 235

تأقحم اللفظ على اللفظ ، اذ كان من سببه ، قال في أول البيت "لا تسقني ماء الملام " ثم قال في آخره : " ماء بكائي " وليس الماء هنا كالماء هناك ، وهو كقوله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها "[1]. فالثانية جزاء وليست سيئة. فجاء باللفظ اذ كان من سببه ، وأنكر عليه بعض العلماء استعارته " ماء الملام " فقالوا : ما معنى ماء الملام ؟. ويروى أن طفلا جاء بإيعاز من هؤلاء العلماء بدواة وطلب منه إملاءها من ماء الملام. فقال له أبو تمام ، في ظرف وبداهة: لا أعطيك من ماء الملام حتى تأتيني بريشة من " جناح الطير " إشارة الى قوله تعالى : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة "[2].

ومعلوم أن الاستعارة أداة رئيسية في البيان تظهر بواسطتها الأشياء التي تبدو متغايرة وغير مرتبطة ،وكأنها متآلفة ومتلاقية ، وبها يستطيع الشاعر أن يبتدئ صورة جديدة ، فيستعير اللفظ للشيء ليس له على الحقيقة، ولم يستعر له من قبل[3]. ثم ان الناس والعلماء أنفسهم يرددون: "كلام كثير الماء، وما أكثر ماء شعر الأخطل"، ويقولون: "ماء الصبابة ، وماء الهوى " يريدون الدمع، ولم يخرج أبو تمام عن هذا حيث أتى بالمجاز لغاية المبالغة والتشبيه . وعلى هذا النسق يجري كثير من توليدات أبي تمام واختراعاته ، فقد زخرت نفسه بصور وحالات ليست شائعة ، لأنها من خصوصياته وامتيازاته ،فقد يختار من صور الأداء ما يتسق مع صور الاحساس ،فجاء نقاد لم يسعفهم تعصبهم عليه ، ولا تتهيأ طبيعتهم لإدراك هذه الصور ،أو لم يقرأوا لها نظيرا في الشعر القديم ،فرأوها خطأ وتجاوزا للحد في التصور والاحساس،أو انحرافا في التصور والأداء ، بينما هي من مطالب الحياة الأصلية من أبي تمام لغاية التنويع والتلوين في الصور والمعاني والأنماط والألفاظ ، وكثير من توليداته واختراعاته بدت منه صعوبة " تحتاج الى الطبيعة ،والتجربة معا ، وهي صعوبة التصور والادراك ، بسبب نقص الرصيد النفسي من التجارب الحسية والذهنية والروحية ، وفقر الطبيعة من الذخيرة العضوية التي تهيئها للفن الرفيع "[4].

---

(1) الشورى ،الآية ، 40 .
(2) الاسراء ،الآية ، 24 .
(3) دلائل الاعجاز ، 193 .
(4) كتب وشخصيات ، سيد قطب ، 15 .

وجل ما اعتبره التعصب لحنا وخطأ في شعر المولدين قد وجهه بعض العلماء، وأولوه مع أن المولدين ليسوا معصومين، وان جاهدوا أنفسهم ، ثم إن " اللحن لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا سلم منه شاعر من الشعراء الإسلاميين ، وقد جاء في أشعار المتقدمين ، وما الى ذلك، مما لا يمكن أن يقوم إلا بالتأويلات البعيدة "[1].

(1) الموازنة الآمدي ، 1/ 28 ـ 30 ، والموشح ، / 346، 528، و 511 .

الفصل الثالث

النثر العلمي والفني

إن التغييرات والتحولات الإجتماعية والفكرية والعلمية التي شهدها العصر العباسي الأول قد انعكست بصورة واضحة على النثر العلمي والفني ، وكان التغيير خصيبا ثريا ، والتطور قويا عنيفا . فقد اتخذ العباسيون البطانة من الفرس والديلم وغيرهم ، وهم الذين كانت اليد الطولى في بث العلوم واتخاذ المترجمين ، ونقل الكتب عن الفارسية والهندية واليونانية والسريانية فابتدأت من تلك العهد صنعة التعريب ، ونشطت حركة الترجمة حتى كاد لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المجاورة إلا نقل إلى العربية فتعددت المعارف والعلوم وخاصة في النصف الأول من القرن الثالث الذي عاش كبير مترجمي العصر ، حنين بن اسحاق الذي اتبع منهجا علميا في ترجمته بمقابلة ما توفر لديه من مخطوطات محاولا إستخلاص المعاني بدقة ، والوصول الى العبارة الدقيقة لتكون ترجمته لمعانيها أمينة ، وعلى هذا الأسلوب في الترجمة سار المترجمون فيما بعد وساعدهم على ذلك معرفتهم الجيدة بخصائص العربية التي بين أسرارها وسننها العلماء ، وضبطوها لتكون يسيرة الادراك والتحصيل (1). فأصاب اللغة العربية تغيير كبير في ألفاظها بما نقل اليها من العلوم الدخيلة وما اقتضاه التمدن من الألفاظ الادارية ، وما استلزمه التوسع في العلوم الاسلامية، وغيرها من الأوضاع والمصطلحات العلمية والفلسفية والإدارية لتأدية ما حدث من الدلالات والمعاني الجديدة ، مما لم يكن له مثيل في لسان العرب ، وكان يومئذ أحوج الى اقتباس الألفاظ الأعجمية وتبديلها . فأحدثت تنويعا في معاني الألفاظ العربية ونقلا لها ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، خصص لها بعض العلماء فصولا في كتبهم ومصنفاتهم ، وخصص لها بعضهم مؤلفات مستقلة قديما وحديثا (2) . وكان لاهتمام العلماء في هذا العصر - وخاصة في القرن الثالث - بالاعجاز القرآني أثر فعال في نشاط البحث البلاغي والنقدي

(1) العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، 513/1-515 .
(2) الحروف للفارابي ، 61/1 ، والالفاظ المستعملة في المنطق له .
مفاتيح العلوم ، الخوارزمي ، 81/1-83 . كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، والتعريفات للجرجاني ، وشفاء الغليل للخفاجي ، الالفاظ الفارسية المعربة ادى شير ، وتاريخ آداب العربية ، 341/1 وما بعدها .

والكلامي مما أفرز ألفاظا ومصطلحات للمعاني والدلالات الجديدة بالإضافة الى الألفاظ النحوية والفقهية .

وكان من نتائج هذا التطور ظهور فئات مختلفة من العلماء ، وأصناف من المؤلفات المتخصصة في المعارف والعلوم المحدثة ، لكل منها مفاهيمها ومصطلحاتها الخاصة .

وقد رأينا في الفصل السابق أن للشعر مواصفات فنية وجمالية ، ولكي يتميز الشعر عن غيره يجب أن تتحقق فنية متكاملة من الشكل والمضمون ، بحيث يكون بين هذين الأخيرين ترابط عضوي ، لا يمكن الفصل بينهما ، ولا يمكن دراسة الشكل بمعزل عن المضمون، ولا دراسة المضمون بمعزل عن الشكل ، لأن امكانية هذه الدراسة تعني أن بعض العمل الأدبي مفيد وبعضه غير مفيد وهذا غير معقول . ولأن كلا من الشكل والمضمون يعيش بنبضات قلب الآخر وثمة حدود بلاغية فنية لا يمكن أن يتخطاها أي نوع من الكلام صعودا مع محتواه الفكري والعلمي ، مهما حاول المفكر الموضوعي أو العالم أن يجود في لغته . لأن المحتوى والهدف من الكلام يفرضان شكلا لغويا معينا لا يتعداه كما أن هناك حدودا بلاغية دنيا غير فنية لا يمكن أن يتجاوزها هبوطا شكل من الكلام الفني مهما كان حظ الأديب المبدع من امتلاك وسيلة التعبير ضئيلا ، فالمتكلم أو النحوي أو المحدث مهما حاول كل منهم التفنن في لغته وأسلوبه فانه لا يبلغ فيهما مبلغا فنيا رفيعا كالمستوى الذي يرقى اليه أديب فنان يتناول موضوعا ذاتيا ، لأن علم الكلام — مثلا — في محتواه الفكري يتناول حقائق موضوعية تفرض شكلا تعبيريا خاصا له حدود من السمو الفني لا يتعداها ، واذا فعل وتجاوزها فان المستوى التعبيري يتغير من نوعية الى نوعية تبعا لدوافع وحدود وغايات الشكل الأدبي . فلا شك أن كلام أبي تمام في فتح عمورية يختلف في شكله وطابعه الفني عن كلام المؤرخ لنفس الحدث ذلك لأن كلام الأول نابع من انعكاس الحدث على ذاتيته ، بينما كلام الثاني موضوعي وصف للحقائق والوقائع ونقل وتقرير لها دون تدخل ذاته . واللغة بعد كل هذا وغيره هي الفكر معلنا ، والفكر هو اللغة مستبطنة .

ومما سبق يمكننا أن نقسم الواقع اللغوي أو الخطاب في هذا القرن وفي غيره الى نوعين : منه ما هو حامل لذاته وغير مشحون بشيء مثل كلام اللغويين

والنحويين والمؤرخين والمتكلمين فلا يهتم صاحبه بالصور البيانية وبالعاطفة ، ومنه ما هو حامل للعواطف والانفعالات مشحونا بكثافة وجدانية أودعها فيه المتكلم مثل الأديب والشاعر ، وليس ضروريا أن يجتمع النوعان عند المرء ، وليس واجبا أن يكون المرء فقيها في اللغة عالما بسننها وأديبا مبدعا ، بل يكفي أولا في هذه الحالات جميعها أن يكون كلامه صحيحا سليما يؤلف كلامه بالوجوه والفروق التي يقتضيها النظم والتأليف .

واذا كانت العلوم الأخرى كالفقه وعلم الكلام والبلاغة يقترن فيها القول بالعمل أي المعرفة العلمية النظرية بالمعرفة التطبيقية ، فان ذلك ليس حتميا في مجال اللغة . فقد يكون المرء عالما باللغة فقيها فيها لكنه قاصر في اجراء تلك المعرفة النظرية وتجسيدها في كلامه ، وقد يكون مبدعا فنانا تجري اللغة على لسانه سليمة صحيحة ولا يعلم من أمر النظري شيئا ، وقد يكون جامعا للمعرفتين محيطا بهما ، واذا بحثنا في علماء القرن الثالث فاننا نجد من هذه الأصناف ما يكفي للتدليل على ما قلنا .

فأبو زيد وأبو عبيدة ، والأصمعي كانوا أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العربية ، وعنهم أخذ جل ما في أيدي الناس في هذا العلم ، والفراء ضابط العربية ومخلصها مما كان يتنازعها ، وحارسها حين كان يدعيها من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم دون مراعاة حرمتها وسننها ، وكان عالما بالخلاف وبأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم وكان يتفلسف في تصانيفه ويستعمل فيها ألفاظ الفلاسفة ، وكان أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب ، وأيام الناس ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية (1) ، وهو الذي قال فيه الفرزدق :

ما زلت أفتح أبوابا وأغلقها   حتى أتيت أبا عمرو بن عمار (2)

وهذه الروايات وان كانت لا تخلو من تعصب وتحيز فان الذي لا يمكن انكاره هو أن هؤلاء العلماء وغيرهم كثير لم تتحصل لهم الملكة اللغوية ، والسليقة العربية لعدم توفر شروطها الموضوعية فكانوا اذا أخذوا أنفسهم وتأملوا

---

(1) انظر طبقات النحويين / 144 ، وغاية النهاية 2/ 371 ، معجم الأدباء 20/ 11 ، المزهر 2/ 249 .
(2) البيان والتبيين 1/ 321 .

منطقهم جاء كلامهم صحيحا فصيحا ، وربما جودوه وحسنوه ، وإذا أطلقوا لألسنتهم إسار التأمل والتدبر قد يخطئون ،لأن اللغة للعرب الفصحاء — على حد قول الفراء — طبع وسجية ، وهي لهؤلاء تكلف ومجاهدة ، وروى أن الأصمعي لم يكن له علم بالعربية وكان صاحب لغة ، ولم يكن صاحب أعراب[1] والنضر بن شميل نجم أصحاب الخليل ، وهم أربعة : عمرو بن عثمان سيبويه ، والنضر بن شميل ، وأبو فيد مؤرخ العجلى السدوسي ، وعلي بن نصر الجهضمي . وكان الأول أبرعهم في النحو ، وغلب على الثاني اللغة ، وعلى الثالث الشعر ، وعلى الرابع الحديث[2] . وللنضر مواقف في تصحيح اللغة حتى في حضرة المأمون[3] . وكان يقول : إلف بكسر الألف بدل فتحها[4] .

وتذكر لنا المصادر اللغوية أن بعض العلماء ممن قعدوا للعربية وتتبعوا الشعراء ، وخطأوهم في بعض أشعارهم كانوا يخطئون في كلامهم . فأبو عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وسائر علماء البصرة والكوفة قد حكي عنهم غلط وتصحيف[5] . وأبو العباس ثعلب كان لا يتكلف الإعراب في كلامه — وهذه سنة عند جلة العلماء — يدخل المجلس فيقوم له تلاميذه ، فيقول لهم : أَقعدوا أقعدوا بفتح الألف[6] . ولم يكن مع غزارة حفظه وثقتها ، وسعة علمه موصوفا بالبلاغة والفصاحة. فاذا كتب لم يخرج عن طبع العامة وبساطتها ، ولو كان كتابه موجها الى صاحب مكانة وسلطان[7] وعلة هذا أنه كان أقرب الى المعلمين والمؤدبين ، وفصيحه يدل على ذلك .

وقد عيب على ابن قتيبة أشياء منها ما كان سببه التشيع والتعصب ، قال في مقدمة كتابه أدب الكاتب : " عيون الحديث " . ولم يقبل منه هذا لأن الصواب أن يقول : أعيان الحديث ، واحتجوا لذلك بأن العيون جمع عين ، ولها في اللغة مواضع ، ويقال في سائر الأشياء : أعيان ، يقال : أعيان المال ، وأعيان

---

(1) أمالي الزجاج ، / 34—35 .
(2) الكتاب ، 1/ 8 ، وأخبار النحويين ، / 49 .
(3) انظر نزهة الألباء ، / 86 — 87 ، ومعجم الأدباء ، 19/ 239 ، 241 .
(4) الخصائص ، 3/ 289 .
(5) رسائل ابن المعتز ، / 45 ، وأنباه الرواة ، 1/ 140 ، 222—223 .
(6) كتاب تمام فصيح الكلام ابن فارس (ضمن ثلاث رسائل في النحو واللغة) / 139—141 ، معجم الادباء 5/ 117 .
(7) انظر رسائل ابن المعتز / 145 . طبقات النحويين / 157—158 ، معجم الأدباء ، 5/ 121—122 . أنباه الرواة 1/ 140 . الاتقان 1/ 127 .

الرجال ، وأعيان الثياب ، وهي مختارهم وأفاضلهم [1] ، وقيل أنه كان يخلط بين الأشياء ، ولم يكن ضليعا في النحو [2] رغم أنه كان آخر علماء الكوفة .

ومن العلماء من جمع المعرفة العلمية الى جمال التعبير وحسن الكلام والاقتدار عليه . فقد كان المبرد إمام العربية في بغداد واليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني، وكان حسن العبارة والمحاضرة حلو الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان بليغا ، مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوادر ، فيه ظرافة ولباقة [3] . وبهذا يختلف عن ثعلب وابن قتيبة .

وبعد ، فهذا حال اللغة والفصاحة على ألسنة حماة العربية وسدنتها ، أما بالنسبة لحالها بين المتأدبين وكتاب الدواوين ، فقد قال فيهم ابن قتيبة : " فاني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين ، أما الناشيء منهم فراغب عن التعلم ، والشادي تارك للازدياد ، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس، ليدخل في جملة المجدودين ... فأبعد غايات كاتبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة ، أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ... ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ... فاني رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكر " [4] .

فهذه النظرة السوداوية القاتمة لجو الثقافة والمثقفين ولحال الفصاحة في بيئة الكتاب والمتأدبين في هذا القرن ليست عامة شاملة. ثم انها قد تكون رد فعل لما شاع عن الشعوبيين وموقفهم من الدين والعرب . لأن الأخبار تذكر أن مستوى بعض الخلفاء الثقافي والعلمي كان عاليا ، وكان عاملا من عوامل رفعة الفكر والعلم والأدب ، وكان بالمقابل انحطاط مستوى بعض الخلفاء الثقافي سببا في تردي الثقافة والأدب . فالمأمون كان فطنا عالما مثقفا متحفزا

---

(1) شرح أدب الكاتب، الجواليقي ، 7 ، (2) . نفسه ، 24 /
(3) طبقات النحويين ، 158 . معجم الأدباء 19/ 112 و 118 .
(4) أدب الكاتب ، 1 / - 6 .

لصنوف العلم يسعى لطلبه، ويعمل على تشجيع العلماء عليه ، وتقريبهم من مجلسه . وقد بلغ به الاهتمام بالعلم والعلماء أنه عندما دخل بغداد أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته ، فاختيرله من الفقهاء لمجالسته مائة رجل ، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة كان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم ، وبشر المريسي ، وجعفر بن محمد الأنماطي [1] وقد كان عالما باللغة والنحو .

كتب كاتب اسحاق بن ابراهيم المصعبي كتابا جاء فيه : "وهذا المال مالا في حاله كذا " فكتب اليه المأمون : أتكاتبني بلحن يا إسحاق ؟ فاضطر اسحاق ابن ابراهيم الذي كان يشغل منصبا هاما آنذاك، اذ كان حاكما لمدينة بغداد الى تعلم النحو على يد النحوي هشام بن معاوية [2] . ومع هذا فان المأمون لم يكن يفرق بين " السداد " بالفتح و " السداد " بالكسر . وقد عرف بميله الى حرية البحث والمناظرة ، وأمر بترجمة كثير من كتب الروم واليونان والفرس ، وخصص لذلك الأموال الطائلة حتى أصبح عصره أزهى عصور العلم والحضارة الاسلامية العربية ، فأقبل العلماء على نهل العلم بشوق كبير لا سيما وقد وجدوا خليفتهم عالما يقدر العلم والعلماء . لكن فجأة تغيرت الظروف والأحوال في القصر ، وكان طبيعيا أن تتغير حال الثقافة والعلم واللغة بتغير أحوال القصر ورجاله ، حيث اعتلى المعتصم كرسي الخلافة وكان أميا جاهلا ، وامتدت أيدي الأتراك لاستلام أمر المسلمين بهدف السيطرة والنفوذ . وكان ذلك سببا من أسباب عديدة في أفول نور الحضارة الاسلامية .

يروى أن كاتب المعتصم ، ابن شادى أحمد بن عمار قرأ عليه كتابا من صاحب البريد بالجبل يصف فيه خصب السنة جاء فيه : " ومطرنا مطراكثر عنه الكلأ " فقال المعتصم لكاتبه : ما الكلأ ؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه، ثم قال : لا أدري ، فقال المعتصم : انا لله وانا اليه راجعون ، خليفة أمي، وكاتب أمي ؟ فدعا باحضار من يقرب منه من كتاب الدار ، فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات ، فقال له : ما الكلأ ؟ قال : النبات كله ، رطبه ويابسه ، ثم اندفع في صفات النبت من حين ابتدائه الى اكتماله الى هيجه ، فاستحسن

---

(1) تاريخ بغداد / 30-31، وانظر البيان والتبيين 1/ 115، 332-333 .
(2) انظر : أدب الكاتب الصولي / 129 . مجالس ثعلب 1/ 14 . طبقات النحويين / 152 . ومعجم الأدباء 19/ 292 .

المعتصم قوله ، فقال : ليتقلد هذا العرض علي ... وكان له خظ وافر في الأدب والنظم والنثر (1) . ويروى أن الكاتب الحسن بن وهب استعمل الفعل المضارع مرفوعا بعد أن مرتين في نص واحد ، وهو الذي كان يعني بتجويد أسلوب رسائله مما جعل المهتمين بالبلاغة والمعجبين بفصاحته يجمعونها في كتاب لفصاحتها وبلاغتها (2) .

وانحسرت الفصحى عن الألسنة ، وضاق نطاق الفصاحة السليقية حتى أصبحت مراعاة الاعراب ضربا من الحذلقة ، ولم يعد هناك ناطق خلا الأعراب يتكلم عربية خالصة خالية من اللحن . وكان هذا متفاوت الدرجات على ألسنة الناس لتفاوت الفروق في لغة المحادثة ، وطريقة التعبير اللغوي ، ووفقا لثقافة المتكلم ، وتربيته ونسبه ومركزه الاجتماعي . فالفتح بن خاقان كانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة حتى قيل : ثلاثة لم ير قط ولا سمع بأكثر صحبة للكتب من الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحاق القاضي ، وكان الفتح أديبا فاضلا ، زكي النفس ، حسن العشرة ، لطيف الأخلاق (3) .

وكان هذا الوضع الاجتماعي والثقافي واللغوي مؤشرا خطيرا ، حيث أصبحت عربية البدو المثل الأعلى ، والقدوة المثلى ، أصالة وسليقية ، ولا سيما أن الانتقال الى حضارة المدن كان له أثر غير يسير في اللغة كما يبدو ذلك في لغة الأدب في أوائل العصر العباسي من حيث صوغ القوالب ، وتراكيب الجمل والثروة اللفظية ، وطرق التعبير ، ولكن عربية الدولة احتفظت بالتصرف الاعرابي احتفاظا يكاد يكون تاما ، ولم تزل اللغة من حيث بناؤها الحقيقي على الرغم من بعض السمات المولدة محافظة على أصولها وسلامتها ، بحيث كانت حلقات القصر العلمية والثقافية قد أبقتها بعيدا عن التأثيرات باللغة المولدة تأثرا يؤبه له حتى نهاية القرن الثالث ، كما أن الأوساط الأدبية كانت أبعد

---

(1) انظر : أدب الكاتب 7، وشرح أدب الكاتب للجواليقي / 49 ـ 52 والاقتضاب للبطليوسي 26ـ27 . وخزانة الأدب 1/ 405 ، وأدب الكاتب للصولي / 130 .

(2) الفهرست / 177 ، وعيون الأخبار 4/ 32 .

(3) معجم الأدباء 16/ 174ـ178 .

عن نطاق التأثر بها كذلك[1] وقد وصل الأمر أخيرا الى أن أصار للوزير فيه يتكلم اللغة المولدة مثل اسماعيل بن بلبل (ت 277) وهو الذي ولي الوزارة في حكم المعتضد .

قال الجاحظ وأنا أقول ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق بلسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء والفصحاء والعلماء البلغاء[2] .

تذكر لنا المصادر اللغوية مناظرات ، ومساجلات كانت تجري بين العلماء في القصر في مجالس العلم ، وحلقات الدرس بمصطلحات وألفاظ علمية ولدها أصحاب الاختصاص للتعبير عن المفاهيم الجديدة ، والمعاني المستحدثة . فقد كان للمتكلمين ألفاظ ، وللنحويين وللغويين ألفاظ اشتقوها من كلام العرب ، وكان للفقهاء مفاهيم خاصة لم يكن العربي الفصيح يعلم من أمرها شيئا ، ولا يعرف للهمز والجر والنصب والجزم الا دلالاتها الوضعية الجارية على ألسنة الأعراب الفصحاء . فقد حضر أعرابي مجلسا من مجالس النحو ، فقال له الأخفش الأوسط : " ما تسمع يا أخا العرب ؟ قال : أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس في كلامنا "[3] .

وإذا تأملنا المفاهيم النحوية مثلا فاننا قد نجد للمدلول الواحد أكثر من مصطلح . فما تجده عند هذا " جواب الشرط " تجده عند ذاك : " الخبر "[4] كما أننا من خلال هذه المفاهيم والمصطلحات التي تدور على ألسنة العلماء ، نستطيع أن ننسبة النص ، أو المصنف الى صاحبه ، أو معرفة مذهب صاحبه فيه ، وذلك لأن لغة هؤلاء العلماء تتسم بالقوالب الجاهزة ، والألفاظ المتعارف عليها بينهم تتكرر في جل بل كل المؤلفات اللغوية والنحوية وفي كل مجلس علمي . ومن هنا نستطيع اذا قرأنا كتابا أو نصا يعالج قضايا نحوية ولغوية، وكنا نعلم سماته الفكرية ومنطلقاته العلمية ، أن نصنفه في مذهب من مذاهب

---

(1) انظر العربية يوهان فك / 109، 134، 138 . وانظر دلالة الألفاظ العربية وتطورها ، 47 . (2) البيان والتبيين 1/ 145 ، وزهر الآداب 2/ 454 .
(3) أنباه الرواه 2/ 42
(4) المقتضب للمبرد، 2/ 81 .

البحث اللغوي في تلك الفترة من حياة البحث اللغوي عند العرب .

وللمتكلمين ألفاظ وأوضاع اشتقوها من كلام العرب لمعانيهم ليست في كلام غيرهم . حيث اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في اللغة العربية اسم . فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع مثل : العرض والجوهر ، وأيس وليس ، والكيفية والكمية ، والمائية والكمون ، والتولد ، والجزء ، والطفرة ، وفرقوا بين البطلان ، والتلاشي ، وذكروا الهذية والهوية ، والماهية وأشباه ذلك كثير [(1)] .

وألفاظ ومصطلحات العلوم المستحدثة ، والمولدة في هذا العصر ، لا يشك أحد في أصالة مادتها اللغوية ، ولا في موافقتها لسنن العربية ، فأصبح لكل صناعة — تقريبا — كلام وألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فاختصت صناعتهم بعد أن عجزت الأسماء المتداولة المأثورة عن اتساع المعاني الكلامية أو النحوية ، أو غيرها من المعاني الأخرى ...

ولا يفوتنا أن نشير الى أن هناك بعض المعاني الجديدة تشترك فيها أكثر من صناعة ، فنجد لها عند كل أهل صناعة ألفاظا تختلف عما عند غيرهم ، فما يسميه أهل النحو مثلا الأفعال يسميه أهل المنطق : الكلم . وحروف المعاني في النحو صنفها المناطقة أصنافا فكانت : الخوالف [(2)] ، والواصلات [(3)] ، والواسطة [(4)] ، والحواشي [(5)] ، والروابط [(6)] . وقد نجد أن بعض ألفاظ ومصطلحات النحويين يستعملها أصحاب العلوم الأخرى بعينها على معان أخرى مختلفة ، وكذلك قد نجد بعض ألفاظ المتكلمين يستعملها أهل النحو للدلالة على معاني أخرى ، وقد يتفق في كثير من الألفاظ النحوية أن تكون معانيها المستعملة عند جمهور النحويين هي نفسها المستعملة عند أصحاب العلوم الأخرى [(7)] . فاذا كان المتكلم في المنطق خائضا استعملها للدلالة على ما

---

(1) البيان والتبيين 1/ 135 ، وانظر الصناعتين / 134 ، ونقد النثر / 134 .
(2) وهي كل حرف هجائي أو كل لفظ قام مقام الاسم ويخلفه اذا استتر ، مثل: الضمائر المتصلة والمنفصلة . (3) مثل "ال" التعريف ، والموصلات ، وأحرف النداء ، وكل وبعض ، وما يقوم مقامها . (4) هي كل ما قرن باسم ما ، فيدل على أن المسمى به منسوب الى آخر وقد نسب اليه شيء آخر مثل حروف الجر . (5) مثل: ان وليس ، ولا ، ونعم ، وليت شعري ، وكان . ولعل وعسى ، وكم ؟ ومتى؟ واين؟ وغيرها . نلاحظ أنه قد عد ليس في الحروف كما عد عسى ، وكما عد كثيرا من الحروف : اما في الأسماء واما في الأفعال . (6) مثل: اما ، و "ان ... كان" و "كلما .. كان" و "متى .. كان" و "اذا كان" ، ولكن و "الا ... أن" وكي ، و "لام كي" ولأن و "من أجل" و "من قبل" وما قام مقامها . انظر الالفاظ المستعملة في المنطق 44/ 56 . (7) الالفاظ/ 42—49

تعارف عليه أهل هذه الصناعة . واذا كان خائضا في النحو استعملها للدلالة على ما عليه الجمهور . وتداخل هذه الدلالات ، واشتراكها في الألفاظ قد يدخل على المتلقي اللبس وسوء الفهم . وكان الأحسن أن يكون لكل علم ولكل صناعة ألفاظ تخصه .

قال الجاحظ : " صناعة الكلام علق نفيس ، وجوهر ثمين ، هو الكنز الذي لا يفنى ولا يبلى ، والصاحب الذي لا يمل ولا يقلى ، وهو العبارة على كل صناعة ، والزمام لكل عبارة ، والقسطاس الذي به يستبين نقص كل شيء ، ورجحانه ، والراووق الذي يعرف به صفاء كل شيء وكدره ، والذي كل علم عليه عيال ، وهو لكل تحصيل آية ومثال " (1) .

ان حروف هذه الألفاظ وأشكالها وتراكيب عباراتها عربية صحيحة . لكن العربي الفصيح لا يفهم معاني الألفاظ التي يتداولها المتكلمون ، فهي مولدة أو منقولة لمعاني جديدة ، اقتضتها الحياة الثقافية والفكرية الجديدة ، فهي رموز لا يفهمها الا من هو في مثل حال المتكلمين من لطف الطبع ، ومن هو مهيأ لفهم تلك الإشارات ، حتى كأن تلك الطبائع اللطيفة ، وتلك القرائح والأذهان قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة ، يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم ، ولا يعرفها من ليس منهم ، فأنى اذن لمن لم تتوفر له هذه القدرات والطباع أن يفهم شيئا ، أو يقف للطابع والنظام والنحت والسبك الجيد ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكن ، والكلام الذي عليه ماء ، ورونق على معنى ، أو يحلى منه بشيء ، وكيف يعرفه ولربما خفي على كثير من أهله (2) . والعوام والطغام ، ومن لا علم له بالكلام اذا سمعوا ألفاظا لم يعهدوها ولم يقفوا على معانيها ، ربما اعتقدوا في قائلها الكفر ، واستحلوا دمه . وقد روى أن بعض سفلة العوام لما سمع الخليل وأصحابه يذكرون أجناس العروض ، ويقطعون الشعر ، فورد عليه ما لم يفهمه ، فظن أنه زندقة . وشهد عليهم بالزندقة . فقال الخليل فيه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فسببتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا (3)

---

(1) زهور الآداب ، 4/921-922 .
(2) دلائل الاعجاز ، 193-194 .
(3) نقد النثر ، 136 .

وليست الفصاحة والبلاغة في أن يكون المعنى من معاني الخاصة ، وكذلك ليس العجز والعي في أن يكون المعنى من معاني العامة ، وانما مدار ذلك على الصواب وتحقيق المنفعة ، وابلاغ الحاجة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال فمتى كلم غير المتكلمين بهذه الألفاظ كان المتكلم مخطئا ومن الصواب بعيدا ، ومتى خرج عنها باستعمال غيرها في خطابهم كان في صناعة الكلام مقصرا ، كما أن مخاطبة من لم يعرف هذه الأوضاع ، ويلابس علم الكلام بألفاظ المتكلمين جهل وخطأ . قال الجاحظ : " وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام ، فان ذلك أفهم عني ، وأخف لمؤنتهم علي ، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر الى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته أو في حديثه اذا حدث ، أو في خبره اذا أخبر . وكذلك فانه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ، اذ كان المتكلمون لتلك العبارات أفهم والى تلك الألفاظ أميل واليها أحن وبها أشغف (1) .

ونحن وأن كنا في نص الجاحظ السابق في صناعة الكلام أمام موضوع فكري علمي ، فان الجاحظ لم يتخل عن أن يسمه بسماته الفنية وأسلوبه المتميز ، باعتنائه بالازدواج والسجع . كان يعتني باختيار الألفاظ ، وصلفة المعاني ، وتتبعها مستقصيا دقائقها وأسرارها للإحاطة بها حتى يستوعبها ." وقد أوتي بسطة في لسانه وبيانا عذبا في خطابه ، ومجالا واسعا في فنونه " (2) . وكان يسلك في ذلك طريق الاشارات البعيدة ، والعبارات القريبة ، والاستعارات القليلة يتحاشى مختاض الكلام ، ويضمن كلامه الكثير من كلام غيره للإستشهاد ، وللاستدلال (3) . وتظهر خاصية تكرار المعاني القريبة من بعضها البعض في مقدمات كتبه مثل : البيان والتبيين ، والحيوان ، ورسائله الأدبية والاجتماعية حتى كأنه اتخذها أسلوبا له ، وديدنا لا يحيد عنه . قال في مقدمة كتاب الحيوان : " جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين

---

(1) الحيوان 3، 367/ 369 ، والبيان والتبيين 1/ 14 . قال الفارابي : " فأما متى نظرنا في المعاني المشهورة عند الجمهور (جمهور النحاة واللغويين) استعملنا هذه الألفاظ (الألفاظ المشتركة بين النحو والمنطق) بحسب دلالتها عندهم ، لا بحسب دلالتها عند أصحاب العلوم " الالفاظ المستعملة في المنطق، 43 /
(2) تهذيب اللغة 1/ 30 . (3) زهر الآداب 2، 544/ .

المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ..." (1) .

وهذا التكرار الرفيع يقتضيه المقام بغية التأكيد والتدقيق وحرصا على المزيد من الاقناع. وذلك بالاحاطة بالموضوع من عدة زوايا وجوانب ، وهذا يشترك فيه الجاحظ وغيره من الشعراء الذين عاشوا في هذا القرن وخاصة ابن الرومي وهذا يعني أنهم تمثلوا ثقافة العصر المنطقية أحسن تمثل. هذه الثقافة التي تتطلب سبر كنه الموضوع المعبر عنه والالمام بجميع جوانبه وخباياه ، حتى كأنهم لا يتركون لمستزيد شيئا يستأنف الكلام فيه .

ولم يكن الجاحظ يصدر هذه التوجيهات ويرسل هذه العبارات بغير وعي وترو فهو قطب القرن الثالث الهجري واليه انتهت علوم عربية كثيرة وكان فنانا اديبا سمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن وكان صديقه وأخذ الكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، وقد صدر الجاحظ في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم انه استعفى فأعفي وكان سهل بن هارون يقول : ان ثبت الجاحظ في الديوان أفل نجم الكتاب (2) .

وبقوة تأمله ونفاذ خياله هداه فكره الى توليد معاني كثيرة جليلة والى استخبار الصامت الأخرس ، فأخبر ، والى استنطاق الجامد الموات فنطق. وصاغ كل ذلك في أسلوب جميل أنيق يضمنه من حين لآخر استراحات فكاهية لطيفة ، تبرز شخصيته المرحة وأسلوبه في الكتابة ، كما هداه علمه باللغة الى اختراع كلمات لم تعرفها العربية من قبل كتب لها الشيوع في عصره وتتداولها الناس. مثل كلمة " تشكل " للدلالة على اغراء الأنثى للذكر (3) وربما استعمل الجاحظ في كلامه بعض الاستعمالات الفارسية بحسب ما يقتضيه السياق الاجتماعي وما يتطلبه الغرض المقصود (4) .

وقد تعقب بعض اللغويين هذه الألفاظ التي ولدها أو نقلها المتكلمون لمعانيهم فوجدوا في بعضها لحنا ، مثل قولهم : " المحسوسات بدل المحسات

---

(1) الحيوان ، 1/ . ودلائل الاعجاز ، / 76 .
(2) معجم الادباء 16/ 75 - 79
(3) مجلة الاقلام ، ع: 4 ، س: 15 ، 1980 ، ص/ 121
(4) الحيوان 3/ 515

لأنه يقال: أحسست الشيء بمعنى أدركته وكذلك قولهم : ذاتي ، والصفات الذاتية ، نسبة الى ذات . وهذا مخالف للعربية وأوضاعها والأصح أن يقال: ذووي (1) لأن أصل الألف في ذات واو .

ويروى أن النظام قال : "إن كنت سبعا فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والحياض ". ولم يقل ان كنت سبعا ، فيظهر الاعراب (2) . ولم يعد غريبا أن تجد في كلام بعض العلماء تحريفا ولحنا أو تسمع كلاما معدولا به عن جهته الصحيحة حتى كأن اللحن أصبح سنة ، والسلامة منه مروق واخلال بالطبيعة الشائعة في استعمالات اللغة ، وكأن أطراد صحة اللغة وسلامة اعرابها أصبحا شيئا معيبا ومشينا . فأكثر العلماء يلحن في كلامه لئلا ينسب الى الثقل والبغض ، فأما في الكلام وانشاد الشعر فان ذلك قبيح جدا غير جائز البتة . قال أبو عبيدة : رآني أبي أكتب كتابا فقال يا بني إجعل فيه لحنا يزول عنه حرفة الصواب " (3). وقد تفشى اللحن في أواخر هذا القرن وبداية القرن الرابع حتى أصبح القليل منه في الكلام يغتفر ، فأما في الكتاب فغير مغتفر ذلك ، لأن الطرف يتكرر لظهوره فيه ، والرواية تجول في اصلاحه ومراجعته ، وليس كمثل الكلام الذي يجري أكثره على غير روية ولا فكرة (4). وكان لتعدد الثقافات والعلوم والمعارف أثر فعال في النثر العلمي ثم الفني ففي الشعر .

وبالرجوع الى الموروث الثقافي والعلمي لهذه الفترة من العصر العباسي نجد هذه الأخيرة تتميز بخصوصيات أسلوبية يمكن اجمالها فيما يلي :

1 ـ تعدد المناحي الثقافية والعلمية وتنوع المعارف والعلوم وتخصص النصوص والمؤلفات في الفلسفة والطب وعلم الكلام والنحو واللغة ، والبلاغة والنقد ، والحديث والقراءات ، وغيرها .

2 ـ ظهور الألفاظ والمصطلحات العلمية المولدة والمحدثة في العلوم حتى أصبح لكل علم معجمه اللغوي الخاص .

---

(1) ذيل الفصيح ، 5 ـ 24 ، المزهر ، 1/ 320 ـ 321
(2) الحيوان ، 1/ 136 .
(3) شرح أدب الكاتب ، 130 ـ 132 .
(4) نقد النثر ، ابن وهب ، 143 ـ 144 .

3 — إتخاذ الكتاب والعلماء الأسلوب الفصيح الوسط إماما في مؤلفاتهم ورسائلهم يوازنون فيه موازنة دقيقة بين طرافة المعاني، واثارة الجمال في نفس القارئ أو السامع بدون تكلف ولا تمحل .

4 — شيوع الألفاظ الرشيقة المنتقاة ذات المخارج السهلة والتلاؤم الموسيقي في الوسط الثقافي الأدبي. وهو ما شاع عند الوعاظ في العصر الأموي والذي يكسو الكلام بالازدواج والترادف الصوتي البديع .

5 — تكرار المعاني القريبة من بعضها، وهو قليل في هذا القرن بمقارنته بما وصل اليه في القرن الرابع فيما بعد .

وتكاثر في هذا العصر البارعون في الكتابة وبلغت الكتابة الديوانية الذروة المنشودة وظهرت نزعة قوية الى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق، وباختيار الألفاظ ونظمها. وقد بقيت أسماء بعض كتاب وأدباء ذلك العصر تذكر في كل مناسبة وفي كل عصر مثل الفضل بن سهل ، وأخيه الحسن وزيرا المأمون ، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة والجاحظ وغيرهم كثير (1) . قال الجاحظ : " أما أنا فلم أرقط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا (2) " .

واذا أردنا أن نستخلص خصوصيات النثر الفني وخصوصيات النثر العلمي في هذا القرن نجدها كالتالي :

أ — بعد قراءتنا لنصين مختلفين شكلا ومضمونا، أول انطباع يقفز الى ذهننا هو أن النثر الفني مشحون بالوجدان والعاطفة والنثر العلمي باستقصاء الحقائق والأفكار وتتبع أجزائها ، لأن المعارف العلمية هي أساس بنائه الأول عليه فلغة الأول الانفعال ولغة الثاني العقل .

ب — ان الغرض من النثر العلمي نقل الحقائق ووصفها قصد التعليم والتوجيه وخدمة المعرفة واثارة العقل ومن هنا يعتمد الاقناع كهدف له . وغرض النثر الفني هو الاقناع من جهة والتأثير والاثارة من جهة ثانية وذلك بصياغة التجربة المعيشة أو الموقف صياغة فنية جميلة .

---

1) انظر زهر الأدب 4/ 944 — 945 و 2/ 284 — 485 و 3/ 893 — 394 .
2) البيان والتبيين 1/ 137 .

ج - وهذا يقتضي - تبعا لاختلاف الموقف والغرض - اختلافا في العبارة فتكون ألفاظ وعبارات النثر العلمي جاهزة دقيقة محددة مستقصية للموضوع في جميع جهاته وسهلة واضحة ، وتكون الألفاظ والعبارات جزلة وقوية ومثيرة حافلة بجوانب التأثير والجمال من صور خيالية بلاغية وصنعة بديعة والكلمات الموسيقية في النثر الفني هي مظهر الانفعال العميق والاثارة القوية .

د - النثر العلمي خال من تكرار الفكرة وترديدها، لأنه في الحقيقة لا يمكن ايراد المعنى بطرق مختلفة، ولكن في النثر الفني يأخذ الأديب أو الكاتب المعنى أو الفكرة ويعرضها في عدة صور بيانية وبلاغية مختلفة توفرها له الاستعمالات المجازية تبعث على الاجلال والتعظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير الى أن لغة أصحاب الحرف والصناعات وأصناف الفئات الاجتماعية من العامة ... وقد فطن الجاحظ الى هذه الفئات تتداول مصطلحات خاصة لا يفهمها الا من خبرها وتعود سماعها فلا شك أن : المخطراني ، والمستعرض ، والكاغاني ، والأسطيل ، والزكوري، والعواء ، والنشال ، والنشاف ، والمرسل ، واللكام ، والمصاص، والمحلقم ، والمسوغ ، والملغم ، واللطام ، والقطاع ، والنهاش ، والمداد ، والدفاع ...[1] لا يفهمها كثير من الناس بما فيهم الأدباء وأنى لهم أن يفهموها وهي لا تذكر الا في بيئة اجتماعية معينة وفي مواقف حياتية خاصة لا يعيشها الا البخلاء والمتسولون .

والجاحظ بطبعه الاجتماعي وبثقافته الموسوعية يقدم لنا في كتبه أدبا اجتماعيا فريدا في هذا القرن وفي تاريخ الأدب العربي بشكل عام .

كما تحدث عن لغات غير العرب من الموالي ممن اختلطوا بالعرب ونزلوا بينهم وأخذوا عنهم لغتهم وعشقوها لكنهم لم يستطيعوا التخلص من آثار لغتهم الأولى فكانوا يتكلمون العربية بلحونهم المعروفة .

---

1) البخلاء 46-52 , 67 قال الفارابي : " فان التجار انما يخاطب فيما تشتمل عليه صناعة التجارة بالألفاظ المشهورة عند التجارين وكذلك الفلاحة ، والطب ، وسائر الصنائع " . الالفاظ المستعملة في المنطق / 43 .

نتائج الباب الثاني

يمكننا ان نستخلص النتائج التالية في ختام هذا الباب :

1 - بالرغم من ان القران الكريم لم يتضمن تلك الكيفيات التي شاعت في لغات بعض القبائل العربية المحتج بها ، وبالرغم من ان كثيرا من استعمالات العرب لم يرد بها القران ، فان الشيء المقرر الثابت هو ان القران قد نزل بكل لغات العرب . ولم يكن علماء القرن الثالث وخاصة المبرد . ليخرجوا عن هذا الراى ، وهذا يعني انه لم ينزل بلغة قريش خاصة ولا بلغة غيرها خاصة ، وان جاءت حظوظ لغات القبائل مختلفة فيه ومتفاوتة .

2 - ان عجز العرب عن معارضته رغم تحديه لهم حقيقة ثابتة ، لكن تفسير جهة ذلك اوعلته كانت موضع خلاف بين علماء القرن الثالث ، ففريق قال بالصرفة ، وفريق قال بالنظم ، والمذهب الاول المردود باحوال واقوال العرب انفسهم ، فلم يبق الا المذهب الثاني ، وهوالذى كتب له ان يبقى على مر الزمان وتعاقب الحدثين . ولعل ابرز من استوفاه حقه واحاط به ، الباقلاني ، وعبد القاهر الجرجاني ، فالفاظ القران عربية ، وابنيته الصوتية والصرفية عربية ، وابنيته النحوية عربية ، واساليب صياغته للمعاني والصور عربية ، لكن هذا كله جاء على هيئة آسرة ساحرة مبدعة متضمنة اصح المعاني والاخبار . لم يجد ارباب البيان والفصاحة بعدها مزيدا ، ولا وراء ها مطلبا ولم تساورهم انفسهم بانهم يستطيعون ان ياتوا بمثله .

3 - لم يكن التحدى بان ياتي العرب باستعارات مثل استعاراته ، ولا بقصص مثل قصصه ، ولا باعراب مثل اعرابه ، ولا بايقاع موسيقى مثل ايقاعه ، وان كانت القضايا روافد من روافد بلاغته وبيانه ، لان الاساس في التحدى ان ياتوا بمثل نظامه الذى كانت هذه القضايا السابقة من محصولاته ، ومن مقتضياته وتوابعه ، وبذلك ارتبط شكله بمضمونه ارتباطا عضويا الى حد الالتحام والانصهار .

4 - ان الاحرف السبعة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليست سبعة لغات من لغات العرب . ولا هي القراءات السبعة التي اشتهرت في مـــــا

بعد القرن الثالث ، وانما هي كيفيات آدائية سمح بها الشارع. لأن العربي كان يشق عليه أن يجري على لسانه غير ما تعوده من لغته وما تمكن في نفسه وعلى لسانه . وقد تأمل ابن قتيبة وجوه الاختلافات في القراءات التي قرأ بها المسلمون في القرنين الأولين فوجدها سبعة أوجه من التغاير لا تخرج عن لغات العرب وكيفيات بناء كلامهم . ولم تكن القراءات السبعة أو العشرة أو الثلاثة عشر أو ما وراء ذلك مما حدد بعد القرن الثالث في درجة واحدة في الرواية والتواتر فكان بعضها متواترا وكان بعضها شاذا ، والذي اتفق عليه العلماء أو كادوا هو أن القراءة لا يرجع فيها الى القياس الذي استنبطه النحاة انما يرجع فيها الى الرواية ، فقد يبيح القياس ما لم ترد به القراءة فلا يقبل وكل ما وردت به قراءة يقبل ولا يرد .

5 - وقد كان جل العلماء قبل القرن الثالث يرون أن القراءة سنة متبعة واستشهدوا بها في كثير من المسائل اللغوية والنحوية ، وجاء القرن الثالث بعلماء رد بعضهم قراءات متواترة بدعوى أنها شاذة عن القياس المطرد ، وليس لهذا الموقف مبرر موضوعي الا من الناحية الفقهية ، لأن القراء لا يعللون على الأفشى والأقيس في العربية ، بل الأحوط والأقرب الى الموضوعية أن يكون في كلام العرب ما ليس في القراءات،وكل ما في القراءات موجود في كلام العرب، أو له نظائر فيه ، والعلماء يرون عدم جواز الصلاة والتلاوة بما قرئ به كله وان كان صحيحا ، وقد تتبعنا القراءات التي ردها العلماء في القرن الثالث فوجدناها صحيحة فصيحة من حيث أبنيتها الصوتية والصرفية ، ومن حيث أبنيتها النحوية ، وكان جل علماء القرن الثالث يذهبون الى أن في القرآن ألفاظا غير عربية الأصل صيغت في أبنية صوتية وصرفية عربية وشاعت شيوع الألفاظ العربية فأضحت وكأنها عربية القلب والقالب .

6 - وكان لدراسة الاعجاز القرآني أثر كبير في الشعر، وفي آراء علماء القرن الثالث النقدية، وفي النثر أيضا . فكان على الشعراء والكتاب والأدباء أن يراعوا المعايير البلاغية والنقدية التي استنبطها العلماء من فصاحة القرآن الكريم ، ومن الموروث الشعري ، ويراعوا التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصلته

الأمة آنذاك ، ويستغلوا في دائرة هذا كله مواهبهم الفنية وأدواتهم الأدبية فجاء شعرهم آية في الروعة والجمال ومرآة حية نابضة انعكست عليها حياة المجتمع في ذلك العصر ، فكان شعرهم عربيا في نظام أبنيته الصوتية والصرفية والمعنوية ، متضمنا كثيرا من الصور البيانية والبلاغية والمعاني الجديدة أبدعوها واخترعوها ففاقوا في كثير منها الشعراء المتقدمين بغير اخلال بعمود القصيدة العربية ، بل انه في هذا القرن الثالث اكتملت للقصيدة العربية معالمها ونضجت حدودها وهياكلها ، فتحققت فيها الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية حتى أصبحت مثالا يحتذى الى يومنا هذا . وأثبت الشعراء المقتدرون أن عمود القصيدة العربية قادر على أن يستوعب المعاني والصور المبتكرة والأفكار والموضوعات الجديدة أحسن ما يكون الاستيعاب .

7 - كانت الأمة قوية في فكرها معتزة بشخصيتها وثقافتها فكان الشعر قويا جيدا ، فتوفرت للشعر أسباب احتلال مكانة عظمى بوعي الشعراء لأهمية الشعر ورسالته ، وباخلاصهم لفنهم ولغتهم ، وبتشجيع الخلفاء والأمراء لهم ، واهتمامهم به ، ولانفعال الشعراء بتجاربهم الذاتية والقومية وتفاعلهم معها ، فجاء شعرهم حاملا معاني السمو والصدق مع النفس في لغة سليمة فصيحة ، ومطابقا لمقتضيات الأحوال والمقامات ، ولكن سوء ادراك شعرهم وربما قلة الزاد العلمي وضعف الاستعداد الطبيعي لادراك الفن في أي شعر يكون وممن يكون، بالاضافة الى التعصب جر على شعر هذا القرن بعض الانكار وسوء الانصاف والتقدير .

8 - وكان لحرية الفكر والغيرة على الدين والأمة ، ولثقافة الخلفاء ومحبتهم للعلم والعلماء واخلاصهم لأمتهم دور فعال فيما وصلت اليه الثقافة الاسلامية العربية من رقي وازدهار ونشاط فكري ، وفي المكانة التي تبوأتها اللغة العربية في القرن الثالث ، فاضطر العلماء بفعل التطور الاجتماعي والثقافي الى توليد واشتقاق ألفاظ عديدة أثروا بها مفردات اللغة ، والى التعبير عن المعاني الجديدة بأساليب عربية سليمة فصيحة . والفضل في هذا يعود الى حب العلماء للغتهم ، ولما تتسم به العربية من مرونة وقدرة على تمثل الجديد وطبعه بطابعها المميز .

9 - وتعدد المعارف والعلوم تولد عنه تعدد الألفاظ والمصطلحات المختصة ، فأصبح لكل علم أو صناعة معجم لغوي يعرف به لا يفهمه الا أهله وأصحابه ، والعارفون به ، وأصبح لزاما على المتكلم (نحويا كان أو متكلما ، أو فقيها) أن يراعي ثقافة من يخاطب ، ويراعي ألفاظ ومدلولات العلم الذي يخوض فيه ، فلا يخاطب الناس الا بما يفهمون .

10 - واقتضى هذا التطور الثقافي والاجتماعي نوعين من النثر : نثر علمي يتسم بعرض الحقائق العلمية وشرح العلوم والمعارف ، بأسلوب علمي موجه الى العقل والفكر ، ونثر فني يهتم مؤلفه فيه - زيادة على نقل التجربة والاقناع - باختيار ألفاظه وتراكيبه وبصياغته صياغة جميلة فنية ، ليتماشى وذوق العصر وطبعه ومزاجه وثقافته ، وقيمه الفنية ، ومن الناثرين في هذا القرن الثالث من جمع كثيرا من المعارف والعلوم فضلا عن الابداع فكان موسوعيا له في كل مجال صولة وفي كل صناعة جولة ، كالجاحظ الذي عرف بأسلوب متميز .

فتطور المجتمع انعكس على النثر وتطور النثر انعكس بدوره على الشعر، لأن تطور النثر ووضوح معالمه الجديدة يوفر للشعر سبيل التجدد المتيسر والتغير الذي يفرض على العلماء والمجتمع طابعه وقيمه الفنية .

- الباب الثالث -

لغة العامة

" ... وضع أبو حاتم كتابا اعتزم به تقويم ما غيره أهل عصره في كلام العرب ، وسمناه ((كتاب لحن العامة)) . وانما لما تصفحت كتابه هذا رأيته مشتملا على ما يشتمل عليه سائر الكتب الموضوعة في اللغة . ورأيت الفن الذي قصده ، والضرب الذي اعتمده ، ووسم به الكتاب نزرا فيما ضمنه من تفسير الغريب ، وتصريف الأفعال ، وتوجيه اللغات ، فكان الكتاب مؤلفا لغير ما نسب اليه ، وعرف به " .

أبو بكر الزبيدي ، كتاب : " لحن العوام "

6 - 5 /

تمهيد

العامة خلاف الخاصة ، هذا ما تذكره الكتب والمعاجم اللغوية العربية ، واللغويون اتخذوا عامة العرب ، وكافتهم دعامة من دعامات جمع اللغة ، وتقعيدها . فما كثر استعمال العامة له بنوا عليه القاعدة ، وما قل مستعملوه وصفوه بالشذوذ والندرة . فالعامة هنا تعني الأغلبية بغير اعتبار المستوى الثقافي .

والعامة بمعناها الخاص في القرن الثالث ، وقف منها العلماء موقفا يكاد يكون عدائيا ، فهي التي حرفت الاستعمالات الفصيحة ، وولدت ألفاظا وصيغا جديدة . من هنا نجد أن عامة العرب في بيئة الاحتجاج حجة ، وعامة الأمصار والحضر بعد القرن الثاني لا يعتد بكلامها ولغتها . قال الجاحظ : " واذا سمعتموني أذكر العوام ، فاني لست أعني الفلاحين والحشوة ، والصناع ، والباعة ، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار ، ولست أعني من الأمم مثل الببر ، والطيلسان ، ومثل موقان ، وجيلان ، ومثل الزنج ، وأشباه الزنج ... وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا ، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم (الأعجمية) ولم يبلغوا (أي العوام) منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا (1) .

فالفلاحون والصناع والباعة والأكراد ليسوا من الخاصة ، وليسوا كذلك من العامة ، إذ إن العامة في طبقتها الدنيا تتميز عن هؤلاء ببعض الخصوصيات العقلية والأخلاقية والأدبية واللغوية ، ولا تصل في أسمى مستوياتها الى طبقة الخاصة . قال ابن قتيبة : " ولا يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن كتب الى عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يوجز " (2) .

ولهذا لانعجب اذا رأينا العامة تستعمل اللفظ بغير أن تراعي الفصيح والأفصح ، وتتداول ألفاظا متقاربة الدلالة ، ولا تفرق بينها في الاستعمال ، والخاصة يفرقون بينها ويستعملون كلا في أخص معناه ودلالته .

---

(1) البيان والتبيين الجاحظ 1/ 137

(2) أدب الكاتب ابن قتيبة ، 16

فلا تفرق العامة بين المطر والغيث ، وربما مال بها طبعها وذوقها الى أن تستخف ما جاء فيه لغتان أقلهما وأضعفهما ، وتدع ما هو أظهر وأكثر. وقد ينتهي اليها استعمال نادر أو شاذ ، فتستعمله ، وتتداوله ، ويشيع على ألسنتها ، ثم ينتهي اليها الأفصح والأشهر فيكون الأول قد تمكن على ألسنتها وفي أنفسها ، فلا يكون لهذا التالي — أعني الأفصح — مكان في لغتها واستعمالاتها لأنها لا تراعي الاختيار ولا تعمل على انتقاء الأفصح . والمهم عندها هو التفاهم وقضاء الحاجة اليومية . قال الجاحظ عن العامة : " لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ... والعامة ربما استخفت أقل اللغتين ، وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر " (1) .

ومن خلال ما سقناه نقول : ان استعمالات العامة في هذا القرن لم تكن كلها — على الأقل — مغيرة عن أصلها ، أو محرفة عما عرف عن العربي الفصيح .

ونلفت الانتباه هنا الى أن العلماء يستعملون لفظة الناس ، وهم يعنون بها العامة . فلفظة الناس تعني في أغلب استعمالاتها عند علماء هذا القرن العامة .

سئل أبو العباس عن التغيير فقال : " هو كل شيء مولد " (2) وعلى هذا الأساس ، فكل شيء ورد عن العربي الفصيح ، واستعمله في كلامه فهو الفصيح الصحيح ، وكل ما لم يستعمله ، وظهر على ألسنة المولدين فهو مولد، وكذا كل ما غيره المولدون عن أصله فهو مولد .

والمولد منه ما هو مقبول جار على سنن العربية وقياسها وعلى ما ورد عن العرب الفصحاء ، ومنه ما هو غير مقبول مخل بسننها ، بعيد عن قواعد تطورها .

---

(1) البيان والتبيين 1/20 ، وأدب الكاتب ، / 324 — 328

(2) المزهر للسيوطي ، 1 / 310 ، [illegible]
وانظر تاريخ آداب العرب ، الرافعي 1/ 207 .

واللحن والخطأ واللكنة تغييرات وتحريفات مخلة بسنن اللغة وخصائصها، وابتعاد بها عن الصورة التي وردت عليها عن العرب الفصحاء ، لأن كل هذا صرف للكلام عن سننه الجاري عليه ، وحروفه الجاري عليها ، والمؤلف منها. فيزال إعرابه أو يصحف فيه ، وهو معيب عند الأدباء في الجملة ، وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب ، ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب ، والعربي إذا لحن لقربه من الحاضرة ، ونزوله على طريق السابلة ، سقطت عند أهل اللغة منزلته ، ودفعت لغته ، ومتى خوطب العربي الفصيح باللحن لم يفهمه ، فاذا فهمه بهرجه العلماء ، ولم يسمعوا منه اللغة لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة [1] .

واللحن في العربية تمتد بداياته الى صدر الإسلام لمخالطة العرب الأعاجم ، وتصرف الألسنة ، فظهر على ألسنة الداخلين في الاسلام فكانت اللكنة والتحريف ، وتغيرت العادات والسير ، ثم أخذت ظاهرة اللحن والخطأ تتسع حتى سرت على ألسنة العلماء المبرزين ، والأدباء والشعراء والأمراء ، وحتى لم يعد يرى قروي لا يلحن قط في حديثه ، وفيما يجرى بينه وبين الناس ، كأن لسانه لسان أعرابي فصيح ، الا ما تفقده بعض العلماء في أبي زيد النحوي ، وفي أبي سعيد المعلم [2] . وقد ذكر الجاحظ مجموعة من اللحانين البلغاء : كخالد بن عبد القسرى ، وخالد بن صفوان الأهتمي ، وعيسى بن المدور ، والحجاج بن يوسف وهو من هو في الفصاحة والبيان ، كان يلحن في بعض آي القرآن الكريم ، وكان يتعجب من فصاحة كاتب يزيد بن المهلب في خراسان قائلا : ما لابن المهلب ، ولهذا الكلام [3] ، ولو لم تتغير الأحوال وعادات الناس و تفتقد الفصاحة ما كان الحجاج ليقول هذا .

وربط اللحن والخطأ بالأعاجم فيه شيء من المبالغة والافراط ، إذ إن تغير الملكة وظروفها ، وهيئة اكتسابها كان من العوامل التي ساعدت على فشو اللحن . حدث قطرب فقال : دخل الفراء على هارون الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات . قال جعفر بن يحي أنه قد لحن يا أمير المؤمنين .

---

(1) البيان والتبيين 2/ 221
(2) نفسه 1/ 163
(3) طبقات فحول الشعراء 1/ 14 ، وأخبار النحويين البصريين السيرافي 23-24 .

فقال الرشيد للفراء : أتلحن ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت الى الطبع لحنت [1] .

وقد كان الناس في عصور الفصاحة والسليقة وفي بيئاتها يجتنبون اللحن، ويحثون على اجتنابه فيما يكتبون، أو يقرأون، وأثرت فيهم فصاحة القرآن حتى كانوا يرون أن اللحن في منطق الشريف ، أقبح من آثار الجدري في الوجه ، وأقبح من الشق في ثوب نفيس [2]، وحتى كانوا يعدون اللاحن مذنبا .فأما فيما بعد ، فقد تجاوزوا حتى أن المحدث يحدث فيلحن ، والفقيه يؤلف فيلحن ، فاذا نبها قالا : ما ندرى ما الإعراب ، وانما نحن محدثون ، وفقهاء قال ابن فارس : "فهما يسران بما يساء به اللبيب [3]." وقد شاع اللحن ، وكثر حتى غدا اللحن القليل في الكلام مما لا يسلم منه حتى المتأدبون ، وبعض العلماء ، فأما في الكتاب فغير مغتفر لهم ذلك ، لأن الطرف يتكرر بتأمره فيه ، والروية تجول في اصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذي يجري أكثره على غير روية ولا فكرة [4] .

لقد أصبح اللحن واقعا لغويا ، وعادة سارية في الأوساط الاجتماعية ، والتزام الفصحى وحرفة الاعراب في الحديث مع العوام من الندرة بمكان حتى أنه غدا مثارا للنكت والمزح وربما للسخرية في بعض الأحيان ، قال الكسائي : " حلفت ألا أكلم عاميا الا بما يفهم ، ويشبه كلامه ، وذلك أنني وقفت على نجار فقلت له : بكم ذانك البابان ؟ فقال : بسلحتان ، فحلفت ألا أكلم عاميا الا بما يصلحه [5] .

ولم يعد يستحب للمتأدب ان استطاع . أن يستعمل في كلامه الاعراب أو أن يتحفظ عند الكلام مع العوام على الجهة التي تستحقه الألفاظ في صناعة النحو ليتجنب استخفاف الناس وهزأهم ، ولا يستحب له أن يخرج الى مستثقل الكلام والى التقعير والتقعيب [6] .

---

(1) طبقات النحويين ، / 143 . مراتب النحويين ، / 6
(2) الفاضل للمبرد ، / 4 . عيون الأخبار ابن قتيبة 3، / 153 .الخصائص 2/ 8
(3) الصاحبي / 66 . (4) نقد النثر ابن وهب ، / 143ـ144
(5) معجم الأدباء الحموى ، 13/ 197. تاريخ بغداد ، 11/ 413 .
(6) أدب الكاتب لابن قتيبة / 12 ـ 13 ، الاقتضاب للبطليوسي / 56

واختصاص لغة العامة بسد الحاجات اليومية بعيدا عن التدبيج والتنميق ، وعن كثرة المعاني الدقيقة المتشاكلة ، والمختلفة أفقد الحركات الإعرابية وظيفتها ، فكانت لغتها سليمة في مجملها من حيث مادتها اللغوية إلا في الإعـــراب قال أبو الطيب اللغوي : " وإعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج الى التعلم الإعراب " (1) وأشار ابن خلدون إلى أن خطأ العربي في الإعـراب ، كان أول مظهر من مظاهر اللحن ، في أوائل نشأته فتولدت ملكة لاحنة (2)

وأما على ألسنة الأعاجم والمستعربين ، فان اللغة العامية أخذت أشكالا من التحريفات والأخطاء ، وأول مظهر من مظاهرها اللكنة ، فالمستعرب يحاول النطق بالعربية ، فتعوزه ملكة لغته الأولى ، فيدخل في كلامه حروفا منـــها فيحرف الأبنية الصوتية للمفردات العربية ، وقد ذكر الجاحظ أمثلة كثيرة مـــن هذا التحريف كنطق السين شينا ، أو الطاء تاء ، أو الحاء هاء (3) .

وبهذا أصبح التحرر من الاعراب قرينة أكيدة على اللغة العامية ، وليست هذه الأخيرة منحصرة في التحرر الاعرابي . وحالات الخطأ في الاعراب الـتي وردت في أوائل نشأة اللحن ورد بعضها عن شخصيات عربية وأعجمية معـــروفة بأسمائها كالحجاج بن يوسف ، والوليد بن عبد الملك ، وبشـــر بن مـــروان ، وخالد بن عبد الله القسري ، وخالد بن صفوان ، ومحمد بن سليمان والحصين بن أبي الحر ، والحسن ، وعبد العزيز بن مروان ، وعيسى بن المدور ، والفراء وثعلب ، وأبي جعفر الخراساني ، ومهدي بن سليل ، وابن أبي ليلى ، وأيوب السجستاني ، والنظام .

وأما حالات الخطأ في البنية الصوتية والصيغ فقد وردت عن العرب والموالي . وهم كذلك مذكورون بأسمائهم أو وظائفهم ، كعبيد الله بن زياد ، وزيـــاد بن سلمى الأعجم ، وسحيم عبد بني الحسحاس ، وأبي العباس الأحول ، وأبي العباس الأخفش ، وأبي مسلم الخراساني ، وصهيب بن سنان النمرى صاحـــب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسابق الأعجمي ، وزياد النبطي ، وبـــلال بن جرير ، ومولى زياد بن أبيه .

---

(1) مراتب النحويين ، 6
(2) المقدمة ابن خلدون ، / 1060-1075
(3) البيان والتبيين ، 1/ 71-73

واذا أردنا أن نحصر خصائص اللغة العامية نجدها كالتالي : (1)

أ - اللحن في الاعراب .
ب - اللحن في الأبنية الصوتية والصرفية والتركيبية .
ج - اللحن في وضع الكلمات في غير موضعها .
د - اللحن بتصحيف بعض الاستعمالات .
هـ - شيوع الألفاظ الأعجمية ، والاقتصار على الأفصح بالفصيح ؛

ونعالج لغة العامة في الفصول الثلاث القابلة على مستوى البنية الصوتية الصرفية للمفردات ، وعلى مستوى البنية الإبانية الدلالية ، وعلى مستوى البنية النحوية والبنية الدلالية التركيبية ...

---

(1) انظر البيان والتبيين 1 / 71، 72 ، 73، 161 ، 162، 165 ، 2 / 210 ، 211، 213 ، 216، 218 ، 219 ، 220 ، 222 .
والحيوان 3/ 292 .
طبقات فحول الشعراء 1 / 13 . عيون الأخبار 2 / 160 .
أدب الكاتب الصولي / 132 . مجالس العلماء / 23 .
نقد النثر / 144 . أخبار النحويين البصريين / 23 . مراتب النحويين/ 100
طبقات النحويين / 143 . الخصائص 2 / 8 . المحتسب 2/ 24 .
النزهة / 176-177 . معجم الأدباء 10/ 255 .

الفصل الأول

مستوى البنية الصوتية والصرفية

معلوم أن الألفاظ في أي لغة من لغات العالم تتركب من حروفها الهجائية . ومعلوم أيضا أن لكل لغة نظاما خاصا في تركيب حروفها وفقا لطبيعة الأحرف وصفاتها ، ووفقا لطبيعة الناطقين بها وبيئاتهم الاجتماعية الجغرافية . فنظوم الحروف في الألفاظ التي تشيع في لغة ،قد تقل ،أو تنعدم في لغة أخرى . واللفظة في العربية تتركب من حروفها الهجائية التي تخلو من بعضها كلمة في جملة عربية .

والمتتبع لكلام العرب يجب عليه لكي يحدد نسج الكلمة العربية أن يقوم باستقراء واف، وشامل لما روي عن العرب الفصحاء شذ أو اطرد ، قل أو كثر ، بعد أن ما يمكن أن يتركب من هذه الحروف الهجائية يجاوز (12) مليون من الكلمات . قرر هذا الخليل بن أحمد من قبل ، وتقر صنعه الآن العمليات الحسابية الحديثة . ولكن المستعمل من الألفاظ لا يجاوز مائة ألف ، فيها تتردد حروف أكثر من حروف بحسب الصفة من جهة ، وبحسب المخرج من جهة ثانية ، وبحسب مواضع الحروف من الكلمة من جهة ثالثة [1] .

وعلى هذا الأساس رأى العلماء الأقدمون أن هناك حروفا يكاد لا يخلو منها تركيب لفظي ، وهي الحروف الذلق ، والشفوية ، لأن اللسان يعقل بها ، المنطق يستسهلها ، فكثرت بذلك في أبنية الكلمات . فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها أو من بعضها ، فاذا ورد عليك خماسي معرى منها ، فاعلم أنه مولد ، وليس من صحيح كلام العرب ، وأما بناء الرباعي المنبسط ، فإن الأكثر الغالب منه لا يعرى من بعضها ، إلا كلمات قليلة تكاد تحصى على أصابع اليد . فإن ورد عليك بناء رباعي منبسط معرى من هذه الأحرف، فإنه لا يعرى من أحد طرفي الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والدال ، أو أحدهما ، فإن كان البناء اسما — مثلا — لزمته السين والدال ، مع لزوم العين والغين ،

---

(1) دلالة الألفاظ ، ابراهيم أنيس ، 77/

ورأوا أن هناك أيضا حروفا امتنع العربي أن يجمع بينها في الأبنية أو كاد ، وهي الحروف المشتركة في المخرج مثل : الحاء مع الهاء ، والحاء مع العين ، والصاد مع السين أو مع الزاي ، ورأوا أنه لا يجتمع الجيم مع القاف في كلمة عربية ، ولا الصاد مع الجيم ، ولا تكون النون قبل الراء ، ولا تكون راء بعد دال ، ولا شين بعد لام ، ولا تجتمع الباء والسين والدال (1) .

وبعض الألفاظ التي خلت من هذه التركيبات الحرفية ، لم يكن العرب متفقين في تأديتها والنطق بها جميعا ، فقد نجد في اللفظة الواحدة اختلافا بين العرب كبيرا : (2)

- فقد يقع في الكلمة الواحدة لغتان .
- وقد يقع في الكلمة الواحدة ثلاث لغات .
- " " " " " أربع لغات .
- " " " " " خمس لغات .
- " " " " " ست لغات .
- " " " " " تسع لغات .
- " " " " " عشر لغات .

وقد كثرت اللغات في " الأنملة " و " الاصبع " - مثلا - حتى صار النطق بهما كيف شاء لا يكاد يخطيء (3) . وذكر ثعلب في فصيحه تصنيفا للغة العرب المستعملة ، ثم قال : والباب الثالث ما فيه لغتان ، أو ثلاث ، أو أكثر وهي متساوية وأيا قال القائل فصحيح فصيح (4) .

لو أن اللغة العربية كانت تسمح باستعمال كل تلك الملايين من الألفاظ الممكنة ، وبدون شروط وضوابط في استعمالها لأشبهت الحروف بعضها بعضا في شيوعها وكثرتها ، وحينئذ لا يكون للعربية نسج خاص تتميز به تآليف ألفاظها . فقد تخيرت العرب مجموعات صوتية معينة هي التي اختصتها بالدلالة وبالاستعمال ، وأهملت الكثرة الكاثرة .

---

(1) انظر ص 70 من هذا البحث .
(2) الاقتضاب للبطليوسي ، / 209-210 ، والمزهر للسيوطي ، / 160-161 .
(3) الاقتضاب نفسه .
(4) المزهر نفسه .

والملاحظ أن الأجيال اللغوية المتعاقبة لا تتناقل اللغة كما نطق بها الواضع ، أو المستعمل الأول ، بل لا تتناقلها كما نطق بها الجيل السابق ، لأن ميل الناس الى تيسير النطق بالأصوات اللغوية ، والى الاقتصاد في الجهد العضلي أثناء اصدارها بغية تحقيق أكبر قدر من الفائدة بأقل جهد ممكن . وهذا يدعو المتكلم الى إسقاط الكلمات المتنافرة الأحرف إذا وجد ما يقوم مقامها بأحرف متلائمة منسجمة ، أو إذا انقرض مدلولها ، وذلك لصعوبة النطق بها في حياته اليومية التي تتطلب السرعة في المخاطبة وقضاء الحاجة ، كما يدعوه الى الإقتصار على أنماط معينة للتعبير عن حاجياته ، دون التنويع لعدم احتياجه الى الصور التعبيرية المختلفة ، والأخيلة التي تلزم الأديب المبدع والشاعر الفذ .

إن الوضع اللغوى أصل والاستعمال فرع عليه وفي مستوى الاستعمال تجري تغييرات تمس الأصل ، ترجع في مجملها الى الذوق ، والتيسير في النطق ، والتقليل من الجهد . وتندرج في هذا الاطار الظواهر اللغوية الصوتية من ابدال ومعاقبة ، وتخفيف ، وتسهيل ... وذلك لتحقيق الانسجام الصوتي ، والمناسبة بين الحروف .

فالابدال — مثلا — هو : " اقامة حرف مكان حرف مع الابقاء على سائر أحرف الكلمة ، وبذلك تشترك الكلمتان بحرفين أو أكثر ، ويبدل حرف منهما بحرف آخر يتقاربان مخرجا ، أو في المخرج والصفة معا ، ولا بد من شرط التقارب في المخرج بينهما ، فتباعد المخارج ، واختلاف البيئة والقبيلة ، واختلاف المعني بين الكلمتين المتشابهتين ، كل ذلك من موانع الابدال . وليس المراد بالابدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وانما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد ، حتى لا تختلفا الا في حرف واحد ، والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة ، وطورا غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة ، وبالسين أخرى ، وكذلك ابدال لام التعريف ميما ، والهمزة المصدرة عينا ، لاشتراك العرب في ذلك ، ولا يشترك العرب في شيء من ذلك ، انما يقول هذا قوم وذاك قوم (1) . وحروف العلة أحق

---

(1) الابدال ، أبو الطيب اللغوي ، 1/ 9—23 نقول هذا بالنظر الى الكثير الشائع بغير اعتبار النادر والشاذ .

بالابدال من كل ما عداها من الحروف لاجتماع ثلاثة أسباب : طلب الخفة ، والمناسبة بين بعضها وبعض ، والكثرة . لأنه يتمكن بها أو ببعضها من اخراج الحروف ، وفيها من المد واللين ، وبها يمكن تحقيق نوع من التلحين في الشعر ، كما أن مخرجها فيه اتساع ، ثم إن الهمزة لشبهها بحروف العلة من جهات عدة يجري فيها الإبدال . فاذا أبدلت أولا ، جرى اللسان الى جهة القدام من القوي البسيط ، ومن العلو نحو الانحدار والسرعة . فهذا يطرد عليه الابدال ، فلاجتماع الشيئين : من مناسبة حروف العلة ، وأنها من أقصى الحلق يستمر بها اللسان لإخراج الحرف جاز أن تبدل من غيرها (1) .

والابدال اذا جرى في الحرف على ألسنة أفراد قبيلة من القبائل العربية الفصيحة فهو معاقبة ، وبالتالي يكون جاريا وفق سنن التصريف ، وخاصة اذا اطرد فيهما (أي الاستعمالين) في كل معنى ، ويتصرف الفعل فيه ، وليس هذا بمنزلة ما لا يطرد مما اذا أبدلت أحد أحرفه ، مما تكلموا به ، وجدت لفظه لفظ ما هو في معناه من فعل ، أو حد هو الأصل الذي ينبغي أن يكون ذلك داخلا عليه كدخول الزوائد ، وان جرى على ألسنة أكثر من قبيلة يكون لغتين ، أو أكثر من حيث الوضع لافتراق القبيلتين فيهما . وقد يكون من التطور اللغوي .

فالهمز - مثلا - لا يشترك فيه كل العرب ، تذكر المصادر اللغوية والنحوية أن أقواما من العرب كانوا يهمزون ، وأقواما آخرين لا يهمزون ، ومن العرب من يهمز ما ليس بمهموز على التوهم والاشتباه كقبيلة غني ، ومن العرب من اجتمع عنده الهمز والتسهيل ، ومن الصعب تقسيم القبائل العربية في شبه جزيرتهم الى مناطق لغوية جغرافية ، الا اذا راعينا الاستعمال الغالب والأكثر لأنا قد نجد في المنطقة التي عرفت بالتخفيف ألفاظا واستعمالات تحقق فيها الهمز ، ثم إن الهمزة قد أبدلت في كلام العرب من خمسة أحرف هي :

---

(1) المخصص ، ابن سيدة ، 13/ 267 ، 268

الألف ، والياء ، والواو ، والهاء ، والعين ، وقد أفاض العلماء قديما وحديثا في ذكر أحكام التحقيق والتسهيل [1] .

والحروف الأخرى قد يعتقب بعضها بعضا ، فالسين والصاد قد يعتقب أحدهما الآخر ، وقد أجمع العلماء على أن السين إذا كان بعده عين أو غين أو خاء أو قاف ، أو طاء في كلمة واحدة متصلا بهذه الأحرف ، أو منفصلا بحرف ، أو بحرفين ، فالمرء مخير إن شاء جعلها صادا ، وإن شاء جعلها سينا [2] ، لتحقيق نوع من الانسجام الصوتي ، والاعتدال المخرجي بين الأحرف . إلا أن الصاد في بعض الأحيان تكون أحسن ، والسين في مواطن أخرى تكون أجود [3] . فلا يقع اللسان — مثلا — على السين ، وهو حرف مستقل ثم يرتفع مستعليا الى الطاء ، أو القاف ، أو العين ، أو الخاء . فأبدل العرب السين صادا لأنها أقرب الحروف اليها مخرجا . وكان استعمال العرب اللسان في الصاد مع القاف — مثلا — أيسر من استعمالهم هذا الأخير مع السين [4] .

ولا يهمنا في هذا المقام اذا كان السين في موضع أجود ، أو اذا كان الصاد في موضع أحسن بقدر ما يهمنا ما يبيحه نظام تركب الأحرف في الألفاظ ، استعمال العرب ، ومدى استعمال العرب له ، لأن كتب اللغويين والنحويين قد تذكر بعض الاستعمالات التي خرجت عن الضوابط ، والحدود التي استنبطها العلماء لغرض تعليمي تربوي فحسب .

قال ابن دريد : ولم يقل العرب : الصوق بدل السوق ، وذكر يونس ابن حبيب أنه سمع من العرب الصوق بالصاد [5] . وذهب ابن جنى الى أن السين أصل والصاد بدل منه [6] ، والانتقال من الصاد الى السين مخل

---

(1) انظر الكتاب سيبويه 4/ 355 . معاني القرآن للفراء 1/ 459 . اصلاح المنطق ابن السكيت 4/ 157—158 . الكامل للمبرد 1/ 299—300 . الصحاح 1/ 70 . وسر صناعة الاعراب ابن جنى 1/ 82 و102 . المخصص لابن سيدة 14/ 8—12 و13/ 14 . واللسان 1/ 31 و 17— 18 . الاتقان السيوطي 1/ 100—101 .
(2) الكتاب سيبويه 4/ 479—480 . الجمهرة لابن دريد 1/ 12—13 . سر صناعة الاعراب 1/ 220 . المخصص 13/ 268—273 . المفصل للزمخشري / 373 .
(3) العين الخليل 1/ 119 — (4) الجمهرة ابن دريد 1/ 12 .
(5) نفسه 1/ 12 — (6) الخصائص ابن جنى 2/ 142—143 و 227 .

بالتلاؤم الصوتي ، والانسجام بين الأحرف . قال الخليل : و لا يجوز السين في الكلمة التي جاءت القاف فيها قبل الصاد، إلا أن تكون الكلمة سينية ، لا لغة فيها للصاد (1) .

ولهذا رأى العلماء أن الصاد لا تعتقب السين ، الا أن تكون السين متقدمة على أحد حروف الإطباق المستعلية ، وأن تكون هذه الحروف مقاربة لها لا متباعدة عنها ، وأن تكون السين هي الأصل ليحدث الانتقال من الأسفل الى الأعلى طلبا للاعتدال الصوتي ، فإن كانت الصاد هي الأصل لم يجز قلبها سينا لتحقيق الغرض المرجو من المعاقبة ، ولا يقلب الأقوى الى الأضعف، ومع هذا فإننا قد نجد بعض الكلمات أصلها بالصاد قلبت بالسين .

والعرب لم تستعمل كل ما تبيحه نظومها اللغوية لاعتبارات ما ، قد تكون لاستغناء بتركيب صوتي، أو لإستثقال تركيب صوتي أو استخفاف آخر . وقد تكون العرب نطقوا بتركيب صوتي في عصور سالفة ، ثم هجرته الأجيال اللاحقة فدرس ، وإذا كان هذا جائزا ولا يخالف نظام العربية ، فإبدال العامة في القرن الثالث الثاء من التاء ، أو التاء من الثاء ، وهذا حرفان مهموسان غير مفخمين ومخرجاهما قريبان ، وابدالها الغين من العين وهما حرفان رخوان مهموسان غير مفخمين وحلقيان ، لا يتناقض ونظام العربية الصوتي ، وقد وردت نماذج اعتقبت فيها هذه الأحرف بعضها بعضا (2) .

اذا أضفنا الى احتمالات تركب الأحرف الهجائية في الألفاظ احتمالات اختلاف الحركات على الحروف ، فان الأمر يتضاعف بشكل مذهل ، وقد وردت ألفاظ اعتقبت فيها حركتان أو ثلاث بعضها بعضا في بداية اللفظة أو في حشوها . وقد رأينا أن بعض الألفاظ جاءت منها عشر لغات، أو تسع كما في لفظتي أنملة وإصبع ، الا أن هذه الألفاظ الناتجة عن تغير الحركات ليست في مستوى واحد من الفصاحة والاستعمال ، فأفصح الاستعمالات أنملة (بفتح الهمزة ، والميم) وإصبع (بكسر الهمزة وفتح الباء) (3) .

---

(1) العين الخليل ، 1/ 128 .
(2) المخصص ابن سيدة 13/ 280_288 .
(3) الاقتضاب البطليوسي ، 210 .

يذكر علماء القرن الثالث أن العامة تصرفت في الألفاظ تصرفا غير مقبول، وإذا أردنا أن نجمل التغييرات الصوتية التي عرضت للفصيح من كلام العرب على ألسنة العامة أو الناس، فإننا نجدها كما يلي :

أ- مستوى الأحرف :

1- بالنسبة للهمزة يذكر اللغويون أن العامة همزت بعض الفصيح الذي جاء عن العرب بغير همز، وخففت ما ورد عن العرب مهموزا (1).

2- بالنسبة للصاد والسين، ان العامة استعملت بالصاد ما ورد عن العرب بالسين، وبالسين ما ورد عن العرب بالصاد (2).

3- بالنسبة للشين والسين، ان العامة استعملت بالشين بعض ما جاء عن العرب بالسين (3).

4- بالنسبة للتاء والثاء، ان العامة نطقت بالثاء بعض ما ورد عن العرب بالتاء، وبالتاء بعض ما ورد بالثاء (4).

5- بالنسبة للذال والدال، ان العامة تكلمت بالدال ببعض ما جاء عن العرب بالذال (5).

6- بالنسبة للتخفيف والتضعيف، ان العامة تضعف بعض ما جاء عن العرب مخففا، وتخفف بعض ما جاء عن العرب مضعفا (6).

7- بالنسبة للقلب المكاني، ان العامة قد تصرفت في أبنية بعض الكلمات بتقديم حرف، أو تأخير حرف (7).

ب- مستوى الحركات :

رأى العلماء أن العامة قد تصرفت في أبنية بعض الكلمات بتغيير حركاتها فنطقت المحرك ساكنا، والساكن محركا، والمفتوح مكسورا، والمكسور مفتوحا، والمفتوح مضموما، والمضموم مفتوحا، والمضموم مكسورا، والمكسور مضموما (8)

وهذه التغييرات الصوتية في أبنية المفردات لا تتنافى ومنطق اللغة، وليست خارجة عن الممكن تحققه بتراكيب ألفاظ اللغة من حروفها الهجائية. ثم إن هذه التغييرات لم تخل بما سار عليه العربي في تركيب الحروف لبناء

(1) أدب الكاتب ابن قتيبة / 283-289. (2) نفسه 292-300
(3) نفسه 298. (4) نفسه
(5) نفسه 298. (6) نفسه / 289-295
(7) نفسه / 284-286. (8) نفسه / 300-310

الألفاظ فلم تجمع العامة الحاء مع الهاء ، أو الحاء مع العين ، أو الصاد مع السين ، أو مع الزاى ، وما الى ذلك مما امتنع العربي عنه .

وهذه التغييرات قد ورد مثلها في لغة العرب الفصحاء بشكل واسع جدا ، وجل كتب فقه اللغة العربية وكتب الصرف ، والمصنفات اللغوية والنحوية قديما وحديثا تتعرض لها بشواهد من القرآن ولغة العرب وشعرهم ، ولم يغفل العلماء الاشارات الى بعض الكيفيات الأدائية التي لا تدخل في القواعد المضبوطة والسنن المستنبطة لتقعيد اللغة ونصوا عليها ووصفوها بالشذوذ وقالوا: تحفظ ولا يقاس عليها (1) .

وقد تتبعنا هذه الاستعمالات العامية في بعض الكتب والرسائل والمعاجم اللغوية فوجدناها لا تخرج عن الممكن تحققه لتوفر الظروف والملابسات قياسا على غيره ، أو أن العرب نطقت به على غير قياس فاستعملته العامة على أصله وقياسه، أو أن بعض العرب نطق به ، أو تكلم به لكنه قليل ونادر . أو مما نطق به العرب على غير قياس لاشتباه النظائر أو سعيا وراء الخفة ، أو لاستغنائهم عن استعمال باستعمال آخر وان كان الأول جائزا .

ولتخطئة العامة في استعمالاتها للفصيح ، أو للتأكد من سلامة ما تتكلم يجب أن ننظر الى اللغة العربية في سلامتها وصحتها في بيئة الاحتجاج لتحديد خصائصها ، وسنن أنظمتها ، ثم ننظر الى التطور الذي تخضع له اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية متطورة مع فرض حراسة ساهرة لهذا التطور بحيث تظل اللغة العربية مع تطورها ، وتغيرها من طور الى طور محافظة على طابعها الذي يميزها عن غيرها ، وعلى خصائصها الأصيلة التي لا يمكن أن تتخلى عنها بالاضافة الى تطبيق قواعد أقيسة اللغة كما ضبطها العلماء ، وأوضاعها العامة كالقياس ، والسماع ، والتوليد ، والتعريب ، والتطور اللغوى في أبنيتها الصوتية والصرفية الدالة . وبمراعاة هذا نستطيع أن ننظر في لغة العامة فلا نرد ما جاء منها موافقا للقياس أو على خصائص لهجة من لهجات العرب ، أو على كلام مروى عن شاعر يوثق به وبعربيته ، أو عن لغوي ثقة أمين عالم . ولا نرده ما ما أمكن تخريجه على وجه من وجوه العربية الصحيحة في كلام العرب .

---

(1) الكتاب سيبويه ، 3/ 553-554

وعليه فان ما تكلمت به العامة جائز ومقبول ،وقد رأينا العلماء يصفونه في بعض الأحيان بأنه قليل ،أو شاذ ، أو نادر ،أو لغة ،أو لغية ، أو لغة رديئة أو ضعيفة [1] بالنظر الى الشيوع أو كثرة الناطقين به أو قلتهم ،وانكار الجائز غلط [2] .

والذي يبدو لنا من خلال استقرائنا لما جاء عن العامة وأقوال العلماء فيه ومقابلة ذلك ببعضه الآخر، وبالاستئناس عما ورد في الكتب اللغوية والنحوية، أن هؤلاء العلماء — علماء القرن الثالث — لم ينكروا الفصاحة عما تكلمت به العامة ، والا فكيف ينبهوا الى أنها لغة رديئة ، أو ضعيفة ، أو قليلة ،أو . . . والا كيف نفسر ذكرهم له في بعض المواضع من كتبهم أنه لغة فصيحة وغيرها أفصح .

ولم يكونوا يرمون الى الوقوف في وجه التطور اللغوي السليم — كما ذهب جل المحدثين ممن كتب في هذا الجانب من اللغة — لأن ذكرهم لهذه اللغات الضعيفة والشاذة يؤكد ما ذهبنا اليه ، وكل ما هنالك أن غايتهم التعليمية والتأديبية أملت عليهم أن يختاروا مما وصل اليهم مادة لغوية يستوعبها الناشئة ،وأن ينبهوهم الى أن ما يجرى على ألسنة العامة هو فرع عن الأصل الشائع الذي تكلم به العرب الفصحاء . ثم إن العالم مهما بلغت حافظته، وإحاطته باللغة فإنها تبقى قاصرة في كثير ،ولهذا كان العلماء يتفاوتون في العلم بها .

واذا كانت هذه التغييرات العامية مما تبيحه قوانين العربية وسننها فان توسع وتشعب هذه التغييرات والسكوت عنها بحجة أنها من التطور اللغوي سيبطل في يوم ما حجة العلماء المخلصين للعربية على دعاة العامية ،فيقولون هناك عربية فصحى واحدة واستعمالات كثيرة لهذه الفصحى ،وحرص العلماء على الفصحى حرص على توحيد الفكر في الأمة وجمع شمل شعوبها المختلفة ولن يحدث هذا اذا ذهب كل قطر بل كل قرية أو مدينة في الأقطار العربية

---

(1) انظر أدب الكاتب ابن قتيبة / 283، 284، 295، 298، 309، 314، 321، 366، 369 . . . والاصلاح ابن سكيت / 162، 151، 166، 186، 190، 191، 194، 208، 240، 236 . وكنز الحفاظ / 118 ،والألفاظ لابن السكيت / 72 .
(2) تثقيف اللسان ابن مكي : / 45 .

في تغيير الألفاظ الفصيحة مذهبا لا ترجع فيه الى التوحيد والاتفاق مع الآخرين. فتتشتت الكيفيات وتزداد انقطاعا وتوسعا عن أصلها ويتسع البون بين الفرع والأصل حتى تؤول اللغة العربية الفصيحة المقدسة الى أشلاء ممزقة والى ما آلت اليه اللغة اللاتينية .

من هنا تتبين لنا الأهمية التي أولاها علماء العربية للانماء اللغوي ، مع العمل الدائب على فرض رقابة ساهرة على ذلك تضمن للغة استمرار ما يقيها من الجمود ، والتخلف ،أو من المسخ والتحريف ،ويجعلها دائما على مستوى الرقي الفكري في كل جيل من الأجيال .

وعندما فقد هذا الحرص في زماننا هذا أصبح العلماء والمثقفون أنفسهم: في الاقتصاد والحقوق والسياسة والأدب والتاريخ ... وما الى ذلك من صنوف المعارف المصرية والتقليدية — معاول هدم لا يهتمون في محاضراتهم مع طلبتهم باللغة حتى تولدت قطيعة خطيرة بين اللغة العربية والطلبة ، واتسع الشرخ ليشمل الطلبة والأساتذة في معاهد اللغة العربية وآدابها .

وقد ارتأينا أن نقف على أمثلة مما جاء على لسان العامة بخلاف ما جاء عن العرب وندرسه من جوانبه الصوتية والصرفية :

أ— الفسطاط : جاء في اللسان(1) : الفسطاط : بيت من الشعر ،وجاءت فيه عن العرب لغات : فسطاط،وفساط ، وفستاط ، وكسر الفاء لغة فيهن " . ويبدو لنا أن الضم أكثر وأشيع من الكسر.فهذا الأخير لغات فيهن وليس أصلا، وهي كلها صحيحة فصيحة من حيث أنها وردت عن العرب الفصحاء فنبه العلماء على أن الضم أفصح والكسر فصيح ، ولكنه في الاستعمال ضعيف أو نادر أو قليل فلا يعرج عليه في تقعيد اللغة .

ثم إن الفستاط لغة فيه وليست أصلا ،والتاء بدل من الطاء ، وعلة ذلك أنهم يقولون في جمعه فساتيط ،وقالوا فساطيط وفساسيط . أجاز هذا الأخير ابن السكيت قياسا على الأول رغم أنه لم يستعمل(2)، ومعلوم أنه اذا وردت لغتان فيهما حرفان معتقبان لا يحكم على أنهما أصلان في اللفظ اذا جاءت منهما كل أوجه التصريف ،والا حكم على أوسعها في التصريف بأنه الاصل ،

(1) انظر اللسان ابن منظور 371/7، والخصائص ابن جنى 87/2 . وسر صناعة الاعراب له 174/1 .(2) اصلاح المنطق 133/1

والثاني لغة ، فالطاء في فسطاط أعم تصرفا ، وهذا يؤيد أن التاء في فستاط انما هي بدل من طاء فسطاط أو من سين فسّاط ، لأنه وان كانت التاء أشبه بالطاء منها بالسين فإننا إذا حكمنا بأن التاء بدل من سين فسّاط يكون فيه شيئان جيدان على حد قول ابن جني :

أحدهما : أن تغيير الثاني من المثلين أقيس من تغيير الأول منهما ، لأن الاستكراه يكون في الثاني لا في الأول .

والآخر : أن السينين في فسّاط ملتقيان والطاءين في فسطاط مفترقان منفصلان بالألف بينهما ، واستثقال المثلين ملتقيين أخرى من استثقالهما منفصلين ، وأيضا فان السين والتاء جميعا مهموسان والطاء مجهور .

بـ أبرق وأرعد [1] :

ذكر العلماء في باب ما جاء غير مهموز والعامة تهمزه : أبرق وأرعد بمعنى تهدد ، وأوعد . وكان الأصمعي ينكره ويراه مولدا . وقد سمعه بعض الثقات ، ورووه عن بعض أعراب بني كلاب ، ويحتجون ببيت للكميت ، وبيت لذي الرمة .

قال علي بن حمزة ورد الأصمعي لقول الكميت تعصبا عليه كما كان الشيباني متعصبا لتشيعه لعلي بن أبي طالب الذي قطع يد أبيه لسرقته [2] . وأهل اللغة مجمعون على أن العرب يقولون : أبرقت الناقة اذا شالت بذنبها للقح ، وانما ذلك مشبه بلمعان البرق [3] .

والبرق قال الليث دخيل في العربية وقد استعمله العرب وجمعه البرقان يقال : أرعد القوم ، وابرقوا وأغيموا : أصابهم رعد ، وبرق وغيم ، ومنه قالوا :

1- أبرقنا بمكان كذا وكذا أي رأينا البرق والرعد أو امناه وقصدناه ، ودخلنا في البرق والرعد ، وأصابنا الرعد والبرق .

2- برِق (بكسر الراء) معناه فزع ففتح عينية من الفزع ، والدهشة والحيرة .

3- برَق (بفتح الراء) من البريق ، أي شخص ولمع ومنه قوله تعالى : " فاذا برق البصر " [4] .

---

(1) اصلاح المنطق / 193، 212، 216، 252، أدب الكاتب / 289، وفصيح ثعلب / 10، كتاب فعلت وأفعلت أبو حاتم / 173 . تهذيب اللغة 2/ 208، و9/ 131-132، والصحاح 1/ 471-472، والاشتقاق ابن دريد / 447 ، والخصائص 3/ 293-294 ، والأمالي للقالي 1/ 96 . واللسان 10/ 14، معجم الراغب الاصفهاني / 41
(2) التنبيهات لعلي بن حمزة / 245 (3) نفسه / 249-250 (4) القيامة الآية / 7 .

فلا علة إذاً لرد أبرق وأرعد لأن برق وأبرق سواء وقد وردت بهما الرواية وهما قياسان فمن " فعل " قاسوا " أفعل ". يقال برق الرجل وأبرق اذا أوعد وتهدد . وكذلك برقت السماء وأبرقت ولا عبرة هنا لاجماع اللغويين على أن الاختيار ترك الهمز .

جـ - عامر بن لؤي : قال ابن السكيت : والعامة تقول : لوى بلا همز [1] ، فأصله الهمزة والتخفيف لغة فيه ، ثم ان العرب مختلفون فيه :

- فمن جعل اشتقاقه من اللأي همزه واللأي الثور الوحش .

- ومن جعل اشتقاقه من اللّوى، لوى الرجل. وهو مقصور أو من اللواء لواء الجيش وهو ممدود لم يهمزه .

ومن هنا فان نطق العامة به مخففا ليس خطأ ، وهم في ترك الهمز مصيبون وللعرب متبعون [2] .

ويقال: لبؤة على مثال سبعة. فهذه اللغة الفصيحة. ويجوز أن تجعل همزتها الفا لأنها مفتوحة وقبلها ضمة لبوة ، ويجوز أن تسكن بعد ذلك على لغة ربيعة فيقال : لبوة [3] وترك همزة لؤى لا يختلف كثيرا عن ترك همزة لبوة

د - وفي باب فعلت بالفتح مما تكسره العامة أو تضمه [4] قالوا : ذوى العود يذوي ذويا ، وقد ذأى يذأى ذأوا . فالأولى نجدية والثانية لأهل الحجاز .

قال الأصمعي ولا يقال ذوي ، وثعلب لم يذكر ذأى [5] . قال أبو زيد: قيس تقول : ذأى العود يذأى ذأيا ، وتميم تقول : ذوى ، وقال غيره: ذأى علوية وذوى تميمية . وقد ذكر يونس لغة ثالثة [6] هي التي أنكرها الأصمعي وهذا ما يفسره قول ابن السكيت " وقد يجيء في بعضه لغة الا أن الفصيح الفتح ". [7] . ولا نؤاخذ ثعلبا وقد أشار في فصيحه الى أن هناك لغات يعتبرها من الأفصح ولا هي من الفصيح، لأن ذلك يخرجه عما أراده لكتابه. قال : هذا كتاب اختصرناه وأقللناه لتخف المؤنة على متعلمه الصغير والكبير

---

(1) اصلاح المنطق / 16 و 146 .
(2) التنبيهات لعلي بن حمزة / 285-286 (3) ديوان أبي تمام= / 353-354 .
(4) اصلاح المنطق / 190 . أدب الكاتب / 366 . وانظر الصحاح 6/ 2344 .
(5) التنبيهات / 176 .
(6) نفسه ، وأدب الكاتب / 366 ، واصلاح المنطق/190 ، والمزهر 2/ 215 .
(7) اصلاح المنطق / 190 .

وليحرف به فصيح الكلام، ولم نكبره بالتوسعة في اللغات، وغريب الكلام. ولكن ألفناه على نحو ما ألف الناس ونسبوه الى ما تلحن فيه العوام"[1].

والملاحظ أن العلماء في هذا القرن لم يعيبوا ترك الهمز في كلام العرب لأن الهمز أصبح شعار اللغة الفصحى رغم نشأته في تميم كما ذهب الى ذلك الدكتور رمضان عبد التواب[2] بل نراهم يعيبون من يهمز في كلامه[3]! ثم متى كان الهمز شعار العربية الفصحى ؟.

وعلى الرغم من أن الهمز وترك الهمز لغتان عربيتان قديمتان فأن اللغويين في القرن الثالث أشاروا في مصنفاتهم المختارة الى الاستعمالات الوضعية الأصلية المهموزة، والى غير المهموزة. فأرادوا التنبيه الى أصول هذه الاستعمالات اللغوية حتي يفرق المتأدبون والمتعلمون بين الأصل وما وصل اليه في تطوره.

يرى البصريون أن فعَل و" فعْل " (مفتوح العين وساكنها) مما عينه ولامه حرف حلقي ينبغي أن يؤدى كل واحد كما سمع ، وهما لغتان منفصلتان ، فنشز ونشز لغتان وشعر وشعر لغتان .

أما الكوفيون فيصلون ما جاء وليس عينه حرفا حلقيا ، ولا يقيسون فيه شيئا نحو نشز ونشز فأما ما كان ثانيه حرفا من حروف الحلق فانهم يقيسونه ، ويقولون: ان شئت فحرك ، وان شئت فسكن ، ويجعلون الأمر في ذلك الى المتكلم[4].
ومن هنا فلا حجة اذا لرد مثل الوخل من الوحل ، والسحنة من السحنة ، والوعر من الوعر[5].

بقي أن نشير في ختام هذا الفصل الى ما شاع بين الباحثين ، أن المعرب والدخيل قد أخذ طريقه على ألسنة العامة بشكل سافر . وقد كان الداخلون في الاسلام يستعملون لغاتهم في التعبير عن حاجاتهم اليومية

---

(1) فصيح ثعلب / 104.
(2) لحن العامة والتطور اللغوي عبد التواب / 129—130.
(3) أدب الكاتب / 286 ، الاصلاح / 212، 226، 251، 252، 253، 340 ، فصيح ثعلب / 93، 96.
(4) المنصف ابن جني 2/ 305—306 .
(5) أدب الكاتب / 297—298 .

واعتاد العرب ذلك حتى أصبحوا يفهمون عنهم ، ويذكر الجاحظ بعض استعمالات العامة للدخيل (1).

والجدير بالذكر أنه في أثناء تتبعنا للغة العامة في كتاب أدب الكاتب بن قتيبة قابلنا فصل بعنوان " ما تكلم به العامة من الكلام الأعجمي "(2). وذكر المحقق في الهامش أنه وجد في احدى النسخ التي اعتمدها في التحقيق هذا الفصل بعنوان " ما يتكلم به العرب من الكلام الأعجمي " . ودعانا هذا الى تتبع مجموعة الألفاظ المذكورة في الفصل في كتب لغوية أخرى فوجدنا جلها ورد في أشعار كثير من الشعراء المحتج بشعرهم وبكلامهم كالفرزدق ، ولبيد ، والعجاج ، وأوس بن حجر ، والأعشى ، ورؤبة ، والشماخ ، وعائذ بن محصن العبدي ، والكميت ، وامرئ القيس ، وأبي دؤاد ، ثم أن الفصل لم يدرج . في "كتاب تقويم اللسان" لأن هذه الألفاظ معربة ومقيسة على أصول عربية فأدرجها في باب الأبنية . ولم نتردد بعد هذا في القول: إن العنوانَ المرجحَ عندنا لهذا الفصل هو ما ذكره المحقق في الهامش .

---

1) البخلاء الجاحظ ، / 22 .
2) أدب الكاتب ، / 383-390.

الفصل الثاني

مستوى البنية الافرادية الدلالية

إن من ألفاظ اللغة ما هو اصطلاحي ، فالرجل مثلا يواضع قومه على اسم ابنه بتسميته ،زيد ، فتصبح لفظة زيد دالة على ابنه ، كما قد يتواضع علــى أفراد مجتمع لغوي على أن يسموا ذلك الحيوان ، المفترس ، القوي ، الشــرس بالأسد . فإذا نطق أحد بكلمة أسد للدلالة على السبع توارد الى ذهــن السامع جميع شرائط لفظة أسد ، لأن المتكلم أراد بها ما يعلم أنه وقع لــه في الوضع المصطلح عليه ، ولا يحتاج في هذه الحال أن يتصور له أصل آخر ، أداه الى دلالة السبع ، من أجل التباس وعلاقة بينهما ، بمعنى أن لفظة أسد باستعمالها ، فيما وضعت له لا يمكن أن تدل على بعض ذلك الحيوان ، أو أن تدل عليه بواسطة ما لعلاقة بينهما ، فهي دالة على تمام ما وضعت لــه أصلا . وتسمى هذه الدلالة وضعية أو حقيقية .

أما اذا استعملت اللفظة للدلالة على معنى بواسطة ، فتكون غير دالــة على تمام ما وضعت له على الحقيقة ، وتسمى هذه الدلالة : عقلية أو مجازية ، فنحن نستعمل لفظة أسد للدلالة على زيد ، لعلاقة شبه بينهما ، بغير أن تتخلى عن دلالتها الوضعية الأصلية ، ومن ثم تبقى لفظة أسد دالة علــى ما استعملت له في الكلام ، بغير أن تنفصل عن دلالتها الوضعية ، أي أن اللفظة تنقل من دلالتها الحقيقية الى غيرها نقلا غير لازم ،فتكون هنـــاك العارية أي مرتبطة بالتركيب فقط إذا فصلت عنه اقتصرت على الدلالة الحقيقية .

والدلالة المجازية[1] : إما أن تستعمل اللفظة للدلالة على جزء مـــا وضعت له ، وتسمى دلالة التضمن .

وإما أن تستعمل للدلالة على شيء خارج عنها ، وتسمى دلالة الالتزام ، ويشترط في هذه الدلالات ، القرينة اللفظية أو الحالية . كما أن معرفة الدلالة الحقيقية أساس في معرفة الدلالة المجازية فنحن اذا قرأنا :

---

(1) منطق المشرقيين ابن سيناء/ 37-38. تلخيص المفتاح للقزويني 112-113، والايضاح في علوم البلاغة له أيضا / 326 . واللغة بين العقل والمغامرة د. محمد مندور / 179 .

- أكل الحصان علفه .
- أرسل الأمير عيونه في البلاد .
- صخرٌ كثير الرماد .
- أنزل الله الرزق من السماء .

نجد أن لفظة الحصان تتطابق مع دلالتها ، ولفظة عيون تدل على ما هي جزء فيه ، وكثير الرماد تدل على خارج عنها ، وكذا لفظة الرزق ، أي أن دلالة لفظة الحصان تتطابق مع الدلالة الوضعية لها .

- والعيون تنتمي الى الانسان وهي جزء فيها .
- وكثير الرماد تتلازم مع الكرم ، لأن الأولى تتلازم مع الثانية .
- والرزق تتلازم مع المطر ، أو الغيث ، لأن الأولى مسببة عن الثانية .

يذكر لنا علماء القرن الثالث أن العامة تستعمل ألفاظا في غير دلالاتها . قال ابن قتيبة : " باب ما يضعه الناس في غير موضعه "[1]. وقد تتبعنا هذه الاستعمالات العامية فوجدناها لا تخرج عما ضبطه العلماء من قواعد وسنن لتطور الدلالة اللغوية .

ففيما يتعلق بالدلالة اللغوية ، ويقصد بها دلالة أصوات اللغة وألفاظها وأوزانها ، وتراكيبها على معان ، وتشتمل على كل ما يمكن أن تدل عليه بنية أصوات اللغة ، والتراكيب ، والصيغ الصرفية فيها ، فنحن نجد أن لفظة " تصدق " تعني أعطى ، والمتصدق تعني المعطي ، ولكن صيغة " تفعّل " ، تستعمل في الشيء الذي يؤخذ جزء بعد جزء ، فتقول : تحسّيت وتجرّعت الماء ، أي فعلت ذلك شيئا فشيئا ، وأصل معنى " تصدق " صدق صيغ على وزن " تفعل " ، فكانت دلالته التمس الصدقة شيئا فشيئا . وقد يكون السائل متصدقا ، والمعطي متصدقا . وعلى هذا يمكن تأويل قوله تعالى : " وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين "[2]. فالأولى تعني السؤال ، والثانية تعني المعطي . ولا مجال إذاً لانكار قول العامة : فلان يتصدّق اذا سأل ، وان كان قليلا في كلام العرب[3] .

---

(1) أدب الكاتب ابن قتيبة ، 17/ـ36
(2) يوسف الآية ، 88/
(3) الاقتضاب للبطليوسي/110 ، والأضداد ابن الأنباري ، 110/ .

ولفظة الطرب تعني خفة تصيب المرء لشدة السرور ، أو لشدة الجزع [1]
قال النابغة الجعدي :

وأراني طربا في اثرهم   طرب الواله ، أو كالمختبل

فطرب تدل على الخفة في دلالتها الاجتماعية الوضعية ، واكتسبت عن طريق الصيغة دلالة لغوية صرفة .

ونحن لا نستطيع أن نحدد دلالة لفظة ، الا بالرجوع الى القرائن الحالية ، اواللفظية . وهي ما يسمى عند المحدثين بالسياقات اللغوية ، والاجتماعية ، والسببية .

فالسياق اللغوي وهو ما يكتنف اللفظة في الاستعمال من قرائن لغوية ، يساعد على فهم دلالتها واستبانتها ، وبدون هذا لسنا الا أمام وحدات صوتية من معجم ليس فيه غناء ، اذ أن رصيدا هائلا يحيط بكل لفظة : رصيدها الصوتي ، ورصيدها الإعرابي ، ثم رصيدها المعجمي الذي لن يعرف الثبات الا عندما تتحول الوحدة من أفق الى أفق ، مع تحول حضاري مرموق ، كذلك الذي تحولت الألفاظ الجاهلية اليه ، بعد أن نشر المسلمون عقيدتهم وحضارتهم [2] .

فلفظة العرض ، استعملتها العامة للدلالة على سلف الرجل من آبائه وأمهاته ، وأهل بيته ، وهي تعني في أصل معناها موضع أو جهة الذم أو المدح من الانسان . لكن سياقاتها اللغوية التي جاءت فيها جعلت دلالتها تتعدد بحسب المعنى المقصود من الكلام ، فقد تعني : الحسب ، وقد تعني النفس ، وقد تعني ريح الرجل الطيبة ، أو الخبيثة ، وهذه الدلالات السياقية المختلفة أدت الى اختلاف العلماء في تحديد دلالتها الوضعية [3] .

والسياق الاجتماعي أو المقام ، يساعد على فهم الدلالات ، وعلى التميز بين مجال الحقيقة ومجال المجاز ، فهو ضروري في الفهم والتفهيم ، ثم إن

---

(1) أدب الكاتب ابن قتيبة / 18.
(2) اللغة بين العقل والمغامرة د . محمد مندور / 139-140 .
(3) فصيح ثعلب / 37 والاقتضاب / 112 .

تغير السياق الاجتماعي قد تتغير معه دلالة اللفظ الحقيقية ، "فوثب" في المجتمع الحميري تعني أقعد وفي غيره تعني اقفز [(1)] .

والسياق السببي ، وينتسب في الحقيقة الى السياق اللغوي ، اذ يقصد به أن يعلل اللغوي ،أو النحوي استعمال الدلالة ،أو الصيغة على ما هي عليه . ففي أدب الكاتب مثلا يقول ابن قتيبة : وظل الليل سواده ،لأنه يستر كل شيء ، والفيء لا يكون الا بعد الزوال ، ولا يقال لما قبل الزوال "فيء" وانما سمي بالعشي "فيئاً" ، لأنه ظل فاء عن جانب ،أي رجع عن جانب المغرب الى جانب المشرق [(2)] . وقال أيضا : الجاعرة ، يذهب الناس الى انها حلقة الدبر وهي تحتمل أن تسمى "جاعرة" ، لأنها تجعر ، أي تخرج الجعر [(3)] . وقال: يقول الناس ! خرجنا نتنزه ، وليس هذا عندي خطأ ،لأن البساتين في كل مصر ،وفي كل بلد انما تكون خارج المصر ،فاذا اراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه عن المنازل والبيوت ، ثم كثر هذا، واستعمل حتى صارت النزهة : القعود في الخضر والجنان [(4)] .

والمتعارف عليه في الدراسات اللغوية أن دلالات كثير من الألفاظ، تتطور تبعا لمقتضيات التطور الفكري والرقي الفني ، والتطور الدلالي في عصور العربية اتخذ مسلكين مختلفين :

1 - مسلك عشوائي ، لاشعوري سلكه الأعاجم غير العالمين بأسرار العربية ، ونظمها وسنن تطورها ، وتفشى هذا المسلك عند اختلاط العرب بالأعاجم .

2 - مسلك اعتمد أصحابه التفكير ، والروية ،ومراعاة سنن العربية ، وقواعد تطورها ، سلكه العرب الفصحاء والمولدون الذين تعلموا العربية وأتقنوها [(5)] .

واذا كان اللغويون يعزون التطور الدلالي عادة الى عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته : هما الاستعمال والحاجة ، فان الاستعمالات التي رويت

---

(1) انظر اصلاح المنطق ، 162 .
(2) أدب الكاتب / 23-24 ،الصحاح 1/ 63 ،تهذيب اللغة 14/ 357 .
(3) أدب الكاتب / 28 ،واصلاح المنطق / 318 ،345 .
(4) أدب الكاتب ، 34 .
(5) وقد تسلكه المجامع اللغوية أو الهيئات العلمية عند الحاجة .

عن العامة في القرن الثالث الهجرى لم تخرج عن هذين العاملين و لا عن عناصرهما التي سنراها فيما بعد :

أ — الاستعمال : رأينا في السليقة أن الفرد الذي ينشأ في مجتمع لغوي ما يكتسب ألفاظ لغته ، ودلالاتها في تجاربه الحياتية محفوفة بألوان وظلال متباينة ، يبني الفرد لكل لفظ دلالة معينة هي جزء في عقله ومن نفسه، ويؤثر على امرئ نواحي معينة في دلالات الألفاظ ، ويستمسك بهذه وتلك ، ويذود عنها في كل موقف نقاش أو جدال ، وأوضح عناصر الاستعمال : سوء الفهم ، وبلي الألفاظ ، والابتذال لأسباب اجتماعية أو سياسية أو نفسية .

ب — الحاجة : والتطور في الدلالة قد يكون وليد الحاجة الى التجديد والتغيير ، وهو الذي يقصد اليه قصدا . ويتم عن عمد في ألفاظ اللغة ، ويتم هذا النوع من التطور عادة على يدي الموهوبين من أصحاب المهارة في صناعة الكلام كالشعراء والأدباء (1) .

والدلالات التي أوردها العلماء لا تخرج عن القضايا التالية :

1 — تخصيص الدلالة : إن الألفاظ اللغوية تتأرجح فيما بينها بين أقصى العموم ، وأقصى الخصوص ، وهناك أوساط بينهما ، فلفظة الفقر تدل على الإحتياج . والفقير هو المحتاج ، وقد تبلغ دلالتها في بعض جزئيات معانيها دلالة لفظة مسكين ، والعامة لا تفرق بين بين الفقير والمسكين، ودلالة الفقير لها درجات من حيث قوة الاحتياج ، فصل هذا ، الثعالبي ، في كتابه فقه اللغة في : " فصل " في تفصيل الفقر وترتيب أحوال الفقير (2) . وذكر فيه لكل حال لفظا خاصا بها تتضح دلالته في السياقات اللغوية ، ثم اختصت لفظة الفقير بالدلالة على من ليس له بلغة يتبلغ بها .

ولفظة المأتم تعني في أصلها : اجتماع النساء ، أو الرجال في الفرح ، أو الحزن . ثم كثر استعمالها وشاع حتى صيروها في الموت خاصة ، أي للدلالة على المصيبة فقط (3) .

---

(1) دلالة الألفاظ ، ابراهيم أنيس ، / 134—151 . وانظر فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ، / 212—216 .
(2) فقه اللغة وأسرار العربية الثعالبي ، / 42—43 .
(3) أدب الكاتب ، / 20—21 ، الفاخر للمفضل ، / 185 .

ولفظة التنزه في أصلها تعني التباعد على الاطلاق ، ثم استعملت في التباعد عن المياه والأرياف . واختصت عند العامة بالدلالة على الخروج الى البساتين ، وصارت النزهة تعني عندها القعود في الخضر والجنان (1) .

ولفظة العترة تعني في أصلها النسل ، والرهط الأدنين ، وذوي القربى ، والسياقات والقرائن اللغوية ، هي التي تحدد دلالتها فتدل في سياق على الأولاد ، وفي آخر على أهل البيت ، وفي سياق آخر على ذرية الرجل وعشيرته الأدنين ، ولكن العامة اختصتها بالدلالة على ذرية الرجل خاصة (2) .

وكذلك لفظة الطرب تعني في عمومها ، الخفة في الحزن وفي الفرح ، واختصتها العامة بالدلالة على الفرح دون الجزع (3) .

وكذا فعلت العامة في حاشية الثوب ، اختصتها بالدلالة على جانب الثوب الذي لا هدب فيه (4) .

2 — تعميم الدلالة وتوسيعها (5) : لم تكن العامة تفرق بين بعض الألفاظ التي لها دلالات متقاربة في بعض جزئياتها المعنوية ، ومختلفة في بعضها الآخر .. ومعلوم أن الدلالات المختصة قد تأخذ على مر الزمن وفي حركة التطور الدلالي دلالات واسعة وعامة ، ولم تخرج استعمالات العامة عن هذا الحد .

فلفظة بخيل تدل على الشحيح الضنين والعامة وسعت دلالتها ، حتى أصبحت تدل على الذي جمع الشح ، والضن الى مهانة النفس ، ودناءة الآباء . وتساوت بذلك عند العامة مع اللئيم ، وكذلك توسعت دلالة الفيء حتى أصبحت تدل على ما تدل عليه لفظة الظل ، لأنهما تشتركان في الدلالة على الستر .

ولفظة الشكر ، تعني الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للنعمة ، ولفظة الحمد تعني : الذكر بالجميل على جهة التعظيم المذكور به أيضا ، وتصح على النعمة ، وغير النعمة ، والشكر لا يجوز الا على النعمة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أفضل الدعاء الحمد لله ، لأنه يجمع ثلاثة أشياء :

---

(1) أدب الكاتب / 34 ، اصلاح المنطق ، / 287 ، 314 ، والتنبيهات ، لعلي بن حمزة / 298 — 299 .

(2) أدب الكاتب 28 ، تهذيب اللغة 2 / 264 ، الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، / 276 ، اللسان 4 / 538 .

(3) أدب الكاتب / 18 ، — (4) نفسه ، / 35 . (5) ونعني بها النقل المجازي .

ثناء على الله ، وشكراً له ، وذكرا له)) . وتطورت دلالة لفظة الشــكر ، وتوسعت لتدل على ما تدل عليه لفظة " الحمد " ، ولم تعد لكل منهمــا دلالة مركزية جوهرية تنفصل بها احداهما عن الأخرى [1] . والتعميم والتخصيص يجمعان في حقيقة الأمر الى المجاز الذي يعدل اليه عن الحقيقة لمعانــي ثلاثة وهي : الاتساع في اللغة ، والتوليد ، والتشبيه [2] . ويلجأ اليــه الناس والمبدعون والموهوبون خاصة ، فينقلون مجالات دلالات الألفاظ وفق قواعد يسلن تفيض المصنفات البلاغية في توضيحها والتمثيل لها ؛ ولهذا النقــل مبرراته ولدوافعه التي لا تخرج في مجملها عما ذكرنا .

رأينا في بداية هذا الفصل دلالتي التضمن والالتزام ، ورأينا العلاقات بين الدلالات الحقيقية والدلالات المجازية . والعامة تقول : أشفــار العيــن للدلالة على الأهداب ، فهذا استعمال مجازي صحيح للعلاقة بينهما ، فأصل استعمال الأشفار هو حروف العين التي ينبت فيها الشعر ، وشفر كل شــيء حرفه وحده ، ونقل اللفظ من دلالته الأصلية الى الدلالة العقلية المجازيــة لعلاقة الالتزام بين الأشفار والأهداب ، أي لعلاقة التجاور والاتصال . وقــد قال بعض العلماء : سمي الهدب شفرا ، تسمية النابت باسم المنبت للمجاورة بينهما ، ومثله ليس غلطا ، وقد جاء منه كثير في كلام العرب ، وشعرهم وفي القرآن الكريم [3] .

ومثلها لفظة " حمة الزنبور " او العقرب : تستعملها العامة للدلالة على السم ، ودلالتها الأصلية هي الإبرة . والعلاقة بين الحمة والسم علاقة الشيء بآلته ، حيث أن الحمة هي وسيلة لذغ ، تفرغ بها العقرب سمها ، وهمــا متلازمان متجاوران .

ولفظة الملة : أصل استعمالها للرماد الحار ، وقيل للحفرة التي يكــون فيها الخبز ، والعامة تستعملها للدلالة على الخبز نفسه ، والعلاقة بين الملة والخبز علاقة سببية أي أن الملة سبب في صيرورة العجين خبزا ، والعرب قد يحذفون المضاف ويقيمون المضاف اليه مقامه .

---

(1) قيل الحمد والشكر مترادفان ، مقدمة الكلام على البسملة المورد ، مج 7 ، ع 3 ، 4/ 244-245 . (2) الخصائص ابن جني ، 2/ 442-443 .
(3) الاقتضاب ، 1/ 121 .

ولفظة القافلة : أصل معناها ، الرجوع ، فالقافلة هي الراجعة من السفر [1] . ولما كان الذاهبون في سفر للتجارة — مثلا — لا يؤمن عليهم مشاق الطريق ، وتعرضهم للاعتداء والسلب أطلقوا لفظة قافلة للدلالة على الذهاب على سبيل التيمن والتفاؤل ، وذهب ابن الأعرابي وتبعه الأزهري إلى أن حصر دلالة القافلة في الرجوع غلط ، فالعرب ما زالت تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة ، تفاؤلا بأن ييسر لها القفول ، وهو شائع في كلام فصحائهم [2] .

واستعملت العامة لفظة الجبهة بمعنى ، الجبين ، وبينهما علاقة مجاورة والتزام .

ومن خلال ما استعرضناه من استعمالات العامة ، وما ذكرناه فيما يتعلق بتغيير مجالات الدلالة للألفاظ ، يمكننا أن نقول : إن كثيرا من المفردات التي تجري على ألسنة العامة قد استقر مجازه ، وشاع استعماله حتى أصبح كالحقيقة في أذهان الناس ، ومكن الاستعمال له ذلك .

ويكاد يجمع الباحثون المحدثون ممن درسوا اللحن على أن ابن قتيبة ، وابن السكيت ، وحتى ثعلب ، ومن لف لفهم قد وقفوا في وجه التطور اللغوي للعربية ، وأنهم لم يعرفوا سنن التطور اللغوي ، ووصفوهم بصفات ما أنزل الله بها من سلطان كالتزمت ، والتصلب ، والتعصب ، والجمود ... ورموهم بتنقية اللغة ، وهذا ليس غريبا في زمن عرف فئة من العلماء أشاحوا بوجوههم عن كل قديم ، وتنكروا له ورموا صانعيه بشتى أنواع القذف والاتهام ، وفي زمن يعاب فيه كل أصيل ، ذنب أهله فيه أنهم أجهدوا فكرهم واجتهدوا مخلصين في خدمة أمتهم ولغتهم ، فتركوا لنا مادة لغوية وعلمية يحسدنا عليها كثير من الأمم .

فعصرنا ، عصر تعدد الاختصاصات ، ومناهج البحث اللغوي الصادرة عن وجهات نظر ، وأسس فكرية وتوجهات مذهبية مختلفة ومتنافرة ، وفي الأخذ بهذا المنهج أو ذاك دون مراعاة سمات ، وخصائص العربية ، ودون اعتبار

---

(1) أدب الكاتب / 20 ، فصيح ثعلب / 25 ، إصلاح المنطق / 255
(2) شرح أدب الكاتب للجواليقي / 124

تراثها وطموحات أهلها جنوح ، وجناية في حقها ، وتنكر لما توصل اليـــه السلف من آراء قيمة ، ليست في حاجة الى تزكية من الشرق والمستشرقين، ولا من الغرب والمستغربين .

فالعلماء لم يقفوا في ذلك العصر في وجه التطور اللغوي ، ولا هـــم كانوا يجهلون سننه ، لأن الألفاظ شأنها شأن الكائنات الحية ، قد ينقرض بعضها ، وقد تتغير شحنة بعضها الدلالية من القوة الى الضعف ، وربمـــا يحدث العكس ، حسب ظروف استعمالها الخاص في الأزمنة المتعاقبة ، والبيئات المختلفة . فليس من المعقول والأمر هكذا أن نشرح القصيدة الجاهليـــة بالمعنى المتداول حاليا للألفاظ ، أو الذي شاع في العصر الأموي ، أو العصر العباسي ، أو بأول ما يصادفنا في المعاجم اللغوية ، هذا بالنسبة للفصيح . أما بالنسبة لما تتداوله العامة فللحديث عنه شأن آخر أدنى من أن يذكر ، أو يلتفت اليه في الشعر الجاهلي خاصة (1) .

والعلماء في هذا القرن ذكروا الألفاظ التي تستعملها العامة — الا نزر — في غير مواضعها مقطوعة ومفصولة عن سياقاتها اللغوية ، والاجتماعية ، فدلالة اللفظة في النظم تتجدد وفق المعنى المقصود ، وتتشكل حسب الغرض الذي يريد المتكلم التعبير عنه .

ولكل لفظة في وضعها الأول دلالة مركزية أصلية تتميز بها عن غيرها من الألفاظ، وعلى هذا المستوى تنتفي ظاهرة الترادف ، لأن اختلاف اللفظتيـــن اختلاف جوهر الدلالة ، وأسها هو وجه القياس ، والقياس يقتضي أن تختص كل دلالة بلفظة ، وأن تختص كل لفظة بدلالة ، فتختلف كل من (2) الحشمة والقرآن والسؤال ، والظل ، والآل ، والخلف ، والفقير ، والخائن ، والبخيل ، والتلاد ، والحمد ، والجبهة ، واللبة ، والأعجمي ، والأعرابي ، والأشلاء ، والهجنة ، فـــي دلالاتها المركزية الأصلية الشائعة عن أبناء اللغة الأوائل جميعهم ، عـــن دلالات كل من الاستحياء ، والتصدق ، والفيء ، والسراب ، والكذب ، والمسكين ، والسارق ، واللئيم ، والتليد ، والشكر ، والجبين ، والنقرة ، والعجمي ، والعربي ،

---

(1) انظر دراسات في اللغة والنحو العربي ، حسن عون ، / 18 .
(2) انظر أدب الكاتب ، ابن قتيبة ، / 17 — 35 .

والإيساد ، والإقراف ، . وهذا هو الذي رمى اليه علماء القرن الثالث ، عندما نبهوا الى استعمالات العامة ، واستعمالات العرب لنفس الألفاظ ، ولم يكونوا يجهلون ولا يتجاهلون أن السياق اللغوي والسياق الاجتماعي قد يلبسان اللفظة دلالة جديدة لغرض إبلاغي كالتوضيح والتأكيد ، الا أن غاياتهم لم تكن التنبيه الى هذا ، والا فما معنى ذكر امتحان الخليفة لكاتبه قائلا : " ما الكلأ؟ "(1) . فالسؤال عن دلالتها المتعارف عليها بين المللمين بلغة العرب العرب أنفسهم . وما تأويل قول ابن قتيبة حين ذكرت عيون الرقيق : " فما رأيت أحدا منهم (يعني جماعة وجوه الكتاب والعمال والعلماء الحاضرين) يعرف فرق ما بين الوكع والكوع ، ولا الحنف من الفدع ، ولا اللمى من اللطع اللطع (2)؛ والفروق بينهما عند العلماء باللغة شائعة ومعروفة .

وما يدعم رأينا في هذا أن ابن قتيبة وابن السكيت وثعلب أوردوا لبعض الألفاظ اشتقاقاتها وتصاريفها ليعللوا دلالتها الأصلية الوضعية مثل : لفظة الملة ، يقال مللت الخبزة في النار أملها ملا ، ومنه قيل فلان يتململ ، والأصل يتملل فأبدل من أحد اللامين ميما (3) ولفظة الإيساد ، تقول : آسدته تسيده وسدته اذا أغريته (4) ، والفيء من فاء يفيء ، وتفيء فيئا (5) . وكذلك فعلوا في لفظة الدلج (6) .

فلا يمكن أن يكون اختلاف اللفظين ، واتفاق الدلالتين قد قصد في الوضع الأول ، كما أنه لا يمكن أن يكون اتفاق اللفظتين واختلاف الدلالتين كذلك . ولكن اذا تقاطعت الدلالتان في بعض دلالاتهما الجزئية ، فان استعمال اللفظ مجازا لا تنكره عبقرية اللغة ، ولا يتناقض وقواعد تطورها السليمة ، فاذا غلبت الدلالة المجازية وشاعت في الاستعمال ، وأصبحت كالعرف ، صارت بمنزلة الحقيقة او الأصل .

يرى ابن قتيبة أن اللفظة قد تنقل من دلالتها الأصلية الى دلالة مجازية ، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء لما يلي :

---

(1) أدب الكاتب ٥/ 7 . - (2) نفسه / 8 . - (3) نفسه ٥/ 33 .
(4) نفسه / 35 . - (5) نفسه / 23-24 .
(6) نفسه / 25-27 .

1 - اذا كان مجاورا له ، مثل الأشفار للأهداب ، والجبين للجبهة، والحمة للسم .

2 - اذا كان منه بسبب : مثل : الخبزة من الملة [1] .

والناس يذهبون في : خرجنا نتنزه ، الى الخروج الى البساتين . قال ابن قتيبة : وليس هذا عندي خطأ ، لأن البساتين في كل مصر ، وفي كل بلد ، انما تكون خارج المصر ، فاذا أراد الرجل أن يأتيها ، فقد أراد أن يتنزه ، أي يتباعد عن المنازل والبيوت . ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت النزهة : القعود في الخضر والجنان [2] . فهو يؤكد ويبرر استعمال العامة كما برر ما انتهت اليه دلالة لفظة الجاعرة عند العامة [3] .

والمجاز مختص بالمجال الابداعي أصلا ، لأنه يكسب العمل الأدبي خصوصيات فنية وبلاغية ويمثل مرحلة الطراوة في التطور اللغوي الدلالي .
وفي هذا الاطار يشير عبد القاهر الجرجاني بذكائه الفائق، وحدسه الفريد الى جانب خطير في التطور اللغوي حيث يرى أن الدلالة تمر بالمراحل التالية [4] :

1- مرحلة الابداع والحسن ودقة التفصيل ، تكتسب فيها الدلالة طراءة وجدة وعزة ، وترتبط فيها بصاحبها وتنسب اليه ، مثل : " لا يشق غباره " .

2- مرحلة الشيوع والشهرة .

3- مرحلة فقدان الطراءة والعزة فتتصف بالإبتذال .

4- مرحلة الاشتراك في الدلالة مع غيرها ، رغم اختلاف الأصل وتصبحان كأنهما وضعتا من أول مترادفتين . وفي هذه المرحلة تجري على ألسنة عامة الناس وخاصتهم مجرى الحقيقة، تقولها الوليدة الصغيرة ، والعجوز الورهاء ، فتبدو فيها عبارة " لا يشق غباره " كأنها مشتركة في الدلالة من أصلها مع عبارات ، يلحق ، ولا يدرك ، وهو كالبرق، ونحو ذلك .

وفي ختام هذا الفصل نشير الى أن بعض الألفاظ رويت عن العرب الفصحاء بدلالتين، والعامة آثرت احداهما فشاعت في كلامها وبقيت الثانية مقتصرة على الجانب الفني الأدبي للغة ، مثل : لفظة الفزع ، وردت في كلام العرب على وجهين، أي دلالتين :

احداهما : ما تستعمله العامة وتريد به الذعر .
والآخر : الاستنجاد والاستصراخ (5) .

---

(1) أدب الكاتب / 17 . وذكر أنه عقد بابا بعنوان "تسمية الشيء باسم غيره"، وذكر نماذج لذلك في ص 52 ، (2) نفسه / 34 ، (3) نفسه / 28 .
(4) أسرار البلاغة / 165-166 (5) الكامل للمبرد 3/1٠

الفصل الثالث

مستوى البنيـة التركيبيـة :
النحوية (خارج السياق) ، والبلاغية (داخل السياق)

ثبت لدينا في الفصلين السابقين أن لغة العامة على مستوى البنيـة الصوتية والصرفية ، وعلى مستوى البنية الافرادية الدلالية ليست فاسـدة ولا ملحونة ، وبقي لنا مستوى البنية التركيبية في جانبيها : النحوي والبلاغي ، وهذا ما سنتناوله في هذا الفصل . فما أحدثت العامة في هذا المستوى ؟

تذكر الكتب اللغوية والأدبية القديمة أن ملكة اللسان العربي قد فسدت على مستوى الحركات الاعرابية عند تقهقر الفصاحة السليقية وانزوائها في البادية الى حين ، لتذهب بعد ذلك الى أن يشاء الله . ولو كان الفساد حدث في الألفاظ لما وجدنا اليوم في لهجاتنا العربية كثيرا من ألفاظ العرب الفصحاء تزل في موضوعاتها الأولى ، وعلى أبنيتها الصوتية الأصلية . قال ابـن خلدون : " ولم يفقد من أحوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط[1] " وقال الجاحظ : " واللحن في أهل المدينة فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو غالب[2] فلغة العامة لم تكن بعيدة عن لغة الكتابة ، وعن لغة العرب الفصحاء في مادتها اللغوية اذا كان من شروط هذه اللغـة مجانبة الاعراب .

وبالتخلي عن الحركات الاعرابية ، فسدت الملكة اللغوية الفصيحة وتولـدت ملكة أخرى لاحنة لأن الاعراب هو " بعض أحكام اللسان "[3] وأصبح الاعراب هو الفصل بين لغة الأعراب وبين لغة غيرهم ، فهو مرتبط بالتركيب أشـد ارتباط ، والتركيب مرتبط بالملكة ارتباط اللحمة بالسدى ، فلا يكون هـذا الا ذاك ، وهذا يعني أن هذه الملكة التي تولدت تختلف عن الأولى في أساسها . قال الجاحظ في مقدمة كتابه البخلاء : " وان وجدتم في هذا الكتاب لحنـا أو كلاما غير معرب ، ولفظا معـدولا عن جهتـه ، فاعلمـوا أنـا انمـا

(1) المقدمة ، ابن خلدون ، / 1074
(2) البيان والتبيين ، الجاحظ ، 1/ 146
(3) المقدمة ، / 1074

تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغّض هذا الباب ويُخرجه من حده ، إلا أن أحكي كلاما من كلام متماقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون ، وأشباهه (1) وقال أيضا في موضع آخر : " اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة ، والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخير لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا "(2) فلسنا بحاجة الى التنبيه الى أن الإعراب هنا ليس مقتصرا على أواخر الكلم فحسب بل بالاضافة الى ذلك يشمل الأسس النظمية للكلم ، ولسنا بحاجة الى التنبيه الى أن خلو نوادر العوام من الاعراب لا يعني شيوع ذلك في كل كلامها .

واذا كان الإعراب ضروريا في كلام العلماء والشعراء والكتاب فإن العامة بحكم اقتصار لغتها على قضاء الحاجات اليومية المباشرة قد استعاضت عن الحركات الاعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور وكيفيات أخرى . وعليه يمكن حصر سمات لغة العامة فيما يلي :

1 — خفة التعابير على الألسنة ، وذلك بالتخلي عن الكثير من مظاهر الثقل كحركات الإعراب ، والجمل الطويلة ، وبحذف بعض عناصر الجمل ، وتسكين أواخر الكلم للتخفيف ظاهرة تميمية نقلها القراء عن ابن عمرو بن العلاء ، وشواهد ذلك في القراءات والشعر والكلام المنثور كثيرة(3) .

2 — الإستعاضة عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بالنغمات وبالمواقف الكلامية في السياق الاجتماعي وبطريقة التنغيم ، وقد رأينا في فصل الإعراب أن بعض القبائل قد استعاضت عن ذلك بزيادة بعض الحروف أوالحذف.

3 — اقتصارها في التعبير عن المعاني المحسوسة المشاهدة يوميا ، وهذا لا يتطلب كبير عناء في الفهم والافهام بخلاف المعاني السامية والصور البلاغية المعقدة .

4 — القوالب التعبيرية الجاهزة ، فلم تعد لأجزاء الجملة حرية الحركة داخلها ، وبالتالي فان موقعية الأجزاء نابت الحركات في بعض دلالاتها نتيجة لتكرار المواقف الحياتية المباشرة ، كما قد ينجم عنه تكرار العبارة الواحدة في

---

(1) البخلاء ، 33/ .
(2) البيان والتبيين ، 1/ 146.
(3) انظر فصل فصاحة القرآن الكريم في الباب الثاني ص 96

في موقف كلامي واحد أكثر من مرتين أو ثلاث .

5 - عدم الإعتناء باختيار الألفاظ ونظمها، وبانتقاء المعاني، وصياغتها بعدم اهتمامها بالفصيح والأفصح والأجود والجيد، وبالحُسْن والجمال، وبتفقد ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال .

ان الاستعمالات اللغوية تخضع للمزاج والذوق، وللتطور الاجتماعي والثقافي، ومن ثم فقد تشيع استعمالات لغوية في مصر من الأمصار وتشذ أو تنعدم في مصر آخر . وليس شرطا أن تكون استعمالات العامة موافقة لاستعمالات الأدباء والشعراء ، ويكفي العامة أن تكون لغتها صحيحة سليمة ، ولو استخفت أقيل اللغتين ، وأضعفهما ، واستعملت ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتركت ما هو أظهر وأكثر ، ولا يضيرها أن تقول [1] : نصحتك ، وشكرتك، وبينا نحن كذلك إذ جاء فلان، وتدع نصحت لك ، وشكرت لك ، وبينما نحن كذلك جاء فلان ، ما دام ما تنطق به صحيحا .

وقد روي في بغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة نوع من الشعر سقطت منه الحركات الإعرابية عرف بالمواليا [2] .

ومما أورده العلماء من استعمالات العامة ، وهو قليل في أصل اللغة وفي استعمال العرب الفصحاء ما يلي :

تقول العامة : " كاد فلان أن يفعل كذا " [3]

و " كاد " من أفعال الترجيح ، واقتران خبرها ب "أن " قليل نادر، ويأتي الغالب مجردا منها بخلاف عسى .

قال سيبويه يقولون " عسى أن يفعل " و " كدت أن أفعل " لا يجوز أفعل الا في الشعر لأنه مثل كان [4] . فهو ضرورة شعرية عند سيبويه . ولكنه عند غيره لغة جائزة في غير الشعر، وان كانت قليلة. قال ابن جنى في

---

(1) أدب الكاتب / 327 ، اصلاح المنطق / 194، فصيح ثعلب 26 .
اعراب ثلاثين سورة ابن خالويه / 20 .
(2) مولد اللغة العربية جورج الكافور / 75-76.
(3) أدب الكاتب / 323 .
(4) الكتاب 3/ 12 .

القليل في الاستعمال المقبول في القياس : " ومن ذلك استعمال (أن) بعد كاد، نحو : كاد زيد أن يقوم ،ثم قال: هو قليل شاذ في الاستعمال ، وان لم يكن قبيحا، ولا مأبيا في القياس "(1) واليه ذهب ابن مالك .

فالعامة وان كانت تستعمل (أن) في خبر كاد فقد جاء في نصوص فصيحة من غير الشعر، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب ". وقال: " كاد الفقر أن يكون كفرا ". وقال الشاعر :كادت النفس أن تفيض عليه .

قال محمد محيي الدين عبد الحميد : " والصواب ما ذكره ابن مالك من أن تجرد خبر كاد من أن المصدرية كثير في كلام العرب ، واقترانه بأن قليل ، لكنه ليس شاذا وهو في هذا تابع لسيبويه (2).

وذكر المبرد أن علي بن القاسم قال لأعرابي فصيح : ما معنى قولهم في المثل : كاد العروس أن يكون أميرا " لم كاد ذلك ؟ فقال : لأن الأكفاء يخدمونها في تلك ، وأن ابنة الخس ، قالت: " كاد النعام أن يطير ، وكاد المنتعل أن يكون راكبا " . ويرى أنها كانت بليغة فصيحة (3).

والعرب عندما يدخلون أن على كاد يشبهونها بعسى إلا أن الأجود في كاد التجرد ،وفي عسى الاقتران (4).

وتقول العامة : "إياك أن تفعل كذا "(5) قال ابن قتيبة : وقد جاء في الشعر ،وهو قليل ، وقيل : واسقاط الواو جائز في قواعد اللغة .

وتقول العامة : ضربتيه في موضع ضربته،فتزيد ياء في خطاب المؤنثة ، وهي لغة لربيعة لكنها رديئة ، ويصلون فتحة الضمير، وكأنه ألف فيقولون: قمتا، واقا ، ويقولون في مولاي : : مولِي ، وهي لغة حمير ، وقال الزمخشري سمعت أهل السروات يقولون يا سيدي يا مولِي (6) .

---

(1) الخصائص، 1/ 100
(2) انظر أوضح المسالك الى الد ابن مالك، 1/ 314 ، 315 ، وشرح ابن عقيل، 1/ 326 ، 330 ، 331 .
(3) الفاضل، المبرد ، / 115 . (4) شرح المفصل ، 7/ 122.
(5) أدب الكاتب، / 322-323 . وذيل الفصيح ، / 23 .
(6) شفاء الغليل ، الخفاجي ، / 215 .

وتقول : مكره أخاك لا بطلْ .
- واذا عز أخاك فهنْ .
- وذهبت إلى أبو زيد .
- ورأيت أبي عمرو .

قال الجاحظ: والعرب لا يفهمون قول من يقول هذا [1] .

واذا تأملنا هذه الأمثلة الأربعة نجد أن المثالين الأولين يوافقان لغة من يجعل الألف في أب وأخ ثابتة نصبا ورفعا وجرا ، وقد رأينا في الفصل التمهيدي أنه جاء عن بعض العرب : قيد بعيراك ورأيت أخواك ، ورأيت رجلان [2] . وذكر ابن جني : " هذا أبا " ، ورأيت أبا ، ومررت بأبا ، أي على لغة من يعرب أب وأخ اعراب المقصور بالألف [3] . والمثال الثالث قد يكون اسما تاما لرجل كمحمد ، وعلي ، وعثمان ، وليس مركبا اسناديا ، أي ليس كنية .

ومما يجري على ألسنة العامة من أبنية دلالية تركيبية مأثورة عن العرب الفصحاء ، ولا تعلم العامة أصل معانيها ، ولا سياقاتها الإجتماعية التي قيلت فيها لأول مرة ما يلي :

عقد ابن قتيبة بابا بعنوان : باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل [4] ، ذكر فيه مجموعة من الحِكم ، والأمثال العربية الأصيلة ، ونبه الى أصولها المعنوية وسياقاتها الاجتماعية ، وقد خصص المفضل بن سلمة كتابا لهذه الاستعمالات ، قال في مقدمته " هذا كتاب معاني ما يجرى على ألسن العامة في أمثالهم ، ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك فبيناه " [5] .

وليس تبيين ذلك بالشيء الميسور ، لأن المتكلم به في أول الأمر لم يعد معروفا ، ولأن هذه الأقوال والعبارات سارت بين الناس وشاعت بين أجيال حتى غدت أمثالا وحكما ، والحكمة والمثل يكونان في بدايتهما عزيزين مخصوصين في الدلالة ، وبعد فترة تأخذ هذه الدلالة طابع العموم ، وربما تنفصل عن

(1) البيان والتبيين ، 1/ 162 . وانظر همع الهوامع ، 3/ 154 .
(2) راجع ص من هذا البحث .
(3) الخصائص ، 1/ 339 ،
(4) أدب الكاتب ، 42/ ، 54 . (5) الفاخر ، للمفضل ، 1/ .

دلالتها الأولى وتتخلى عنها نهائيا لعوامل اجتماعية وحضارية ونفسية ...،
وعلى هذا الأساس كان العلماء أنفسهم يختلفون في تفسير هذه الحكم، والأمثال وفي ارجاعها الى أصولها، فكيف بالعامة ، ثم إن المفضل لم يشر الى أن العامة كانت تلحن فيها من جهة أبنيتها الدلالية أو النحوية، ولا من جهة الإعراب .

كان غرض العلماء في هذا أن ينبهوا المتأدبين والمتعلمين الى أصول هذه العبارات المعنوية والدلالية، وينبهوا الى سياقاتها الاجتماعية الأولى ، وعندما تتبعنا هذه العبارات، ونظرنا فيها، وجدنا أن العلماء لا يذكرون الدلالات والسياقات التي تستعملها فيها العامة، وهذا يعني ضمنيا أن العامة لم تخطيء فيها، وأن ما انتهت اليه لا يخرج عن سنن التطور اللغوى الدلالي، بل إن ابن قتيبة ذهب يعلل ويبرر صحة بعض الاستعمالات العامية في هذا المستوى .

– ومما تقول العامة : " هو في أمر لا ينادى وليده ".(1)

لم يذكر العلماء فيما تستعمله العامة ، واختلفوا في تأصيله ، وفي ذكر ظروفه، وملابساته الأولى، وبالتالي لم يتفقوا في تحديد دلالته الأولى :

قال الأصمعي : أصله في الشدة تصيب القوم حتى تذهل الأم عن ولدها وتنساه ، فلا تناديه لما هي فيه ، واليه ذهب ابن قتيبة ، وتطورت دلالته ، وشاعت حتى صارت مثلا لكل شدة، ولكل أمر عظيم، فتغيرت من التخصيص الى التعميم .

قال أبو عبيدة : هو أمر عظيم لا ينادى فيه الصغار ، إنما ينادى فيه جلة الكبار .

قال أبو العميثل الأعرابي : الصبيان إذا رأوا شيئا عجيبا تحشدوا له مثل القراد والحاوى ، فلا ينادون ، ولكن يتركون يفرحون ، والمعنى أنهم في أمر عجيب .

قال ابن الأعرابي : أمر لا ينادى وليده ، أي ما فيه مستزاد ، أي قد استغنى بالكبار عن الصغار ..

قال الكلابي : أصله الكثرة والسعة ، فإذا أهوى الوليد بيده الى شيء

---

(1) أدب الكاتب / 46–47 والفاخر / 13–14، اصلاح المنطق / 317 .

لم يزجر عنه حذر الفساد لسعة ما هو فيه ، ثم اتسعت دلالته وشاعت وتعممت حتى صارت مثلا لكل كثرة .

قال الفراء : وهذا يستعار في كل موضع يراد به الغاية ،وأنشد :

لقد شرعت كفا ليزيد بن يزيد شرائع جود لا ينادى وليدها

فالعلماء يؤمنون بالتطور اللغوي الدلالي ويعرفون سبل ذلك ، ورغم اختلافهم في تحديد أصله فهم متفقون في دلالته العامة، لأن جريانه على ألسنة الناس وكثرة ترديدهم له لم يفقده دلالته المركزية العامة .

ويذكر العلماء أن العامة قد غيرت الأبنية النحوية لبعض هذه الأمثال وترتب عن ذلك تغيير في أبنيتها الدلالية .

— قال العرب : " تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها "(1)

وأصل معناه أنها لا تهتك نفسها، وعرضها، فتبدى منها ما لا ينبغي أن تبديه، ولا تكون ظئرا . أول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى ،وأوله ابن قتيبة بأنه لا تسترضع فتأخذ على ذلك الأجر .

والعامة تقول : " تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها ".

قال ابن قتيبة يعنون " أنها لا تأكل لحم الثدي"، وهذا في نظرنا بعيد، لأن المعنى الذي ذهب اليه في تأويله لقول العامة لا يستقيم ولا وجه لقولها إلا بمراعاة أشياء أخرى. فقد يكون في سياق الكلام ما يوحي بمعنى اللباء، وبالتالي لا يمكننا تأويل القول الا بعد ربطه بسياقه والظروف التي يتم فيها .

واستبعد البطليوسي تأويل ابن قتيبة ورأى أنه لا وجه له، وذهب الى جواز قول العامة "... لا تأكل ثدييها " على تأويلين :(2)

أحدهما : أن يراد أجر ثدييها أو ثمن ثدييها، ويحذف المضاف ويقام المضاف اليه مقامه ، وهذا كثير في كلام العرب والقرآن الكريم .

الثاني : على غير حذف ويكون المعنى أنها أكلت أجر ثدييها فكأنها قد أكلت الثديين نفسهما ،وهو كثير كذلك في كلام العرب والقرآن على

---

(1) الفاخر / 89 ،أدب الكاتب / 319 ، فصيح ثعلب / 78 .
(2) الاقتضاب للبطليوسي /221 .

-بيل التعظيم والتهويل .

- وقالت العرب : " حُلِبت الشاةُ عشرة أرطال ".(1)

والعامة تقول : " حَلَبَت الشاةُ عشرةَ أرطال ".

وليس هذا مما يعد خطأ اذ أن قواعد اللغة النحوية والبلاغية تبيح هذا بل يعتبر أصلا من أصولها ، ووجه من وجوهها ، فالشاة لا تحلب نفسها في أصل المعنى ولا تقوم بالحلب البتة ، وإنما الانسان هو الذي يحلبها ، لكن لما كثرت عملية الحلب عدل المتكلم عن البنية المتعارف عليها بين الناس الى بنية جديدة قصد المبالغة ، وليجعلها كأنها هي التي تحلب ، وهذا ما يسمى في البلاغة بالمجاز العقلي أو الحكمي وذلك باسناد الفعل حلب لما ليس له في الحقيقة لعلاقة بينهما . والأمثلة على ذلك كثيرة في العربية الفصيحة وفي القرآن الكريم .

- وقال العرب : " النقد عند الحافرة ".(2) قال المفضل يتكلم بهذا في الشرى والبيع ، وأصله الرجوع ، أي عند أول كلمة ، ومنه قوله تعالى : أئنا لمردودون في الحافرة ".(3) أي في أول أمرنا ، أو أول خلقنا .

والعامة تقول : " النقد عند الحافر" ، يذهبون الى أن النقد عند قيام الإنسان ، ويجعلون القدم معنا الحافر .

وقد حكى بعض اللغويين صحة قول العامة.(4)

وقال آخرون : كانت الخيل أفضل ما يباع ، فاذا اشترى الرجل الفرس ، قال له صاحبه : النقد عند الحافر ، أي عند حافر الفرس ، قبل أن يزول من موضعه.(5) فتغيير البنية النحوية صاحبه تغير في البنية الدلالية التركيبية ، وان كان المثل يحفظ كما جاء دون تحوير وتغيير .

والملاحظ أن دلالتي البنيتين في عموميتهما متقاربتان جدا . فدلالة الأولى دفع الثمن عند أول كلمة بغير انتظار ولا تريث ، ودلالة الثانية دفع الثمن بدون مماطلة وتباطؤ قبل أن يزول حافر الفرس من موضعه . فكلتاهما

(1) أدب الكاتب /322-311 (2) الفاخر / 214 ، أدب الكاتب / 320 .
(3) النازعات الآية / 10 (4) الاقتضاب / 221-222 .
(5) أمالي القالي / 1 / 26-27 .

تفيدان الاسراع بدفع الثمن .

- وقال العرب : "بنى فلان على أهله" [1] وأصله أن الداخل بأهله كان يضرب قبة ليلة دخوله بها ، فقيل لكل داخل بأهله " بان "

والعامة تقول : " بنى فلان بأهله " ورده ابن قتيبة [2]. وجوزه غيره قال الجوهري : وأعرس بأهله ، بنى بها [3].

وهذه الدلالة ألصق بحياة البدو والأعراب لأنهم يضربون القباب، وأهل المدر تشبهوا في مغناهم بأهل الوبر ، قال ابن جنى : قد بنى فلان بأهله، وابتنى بالمرأة ، هو افتعل من هذا اللفظ ، وأصل المعنى منه ، فهذا كله على التشبيه لبيوت الأعراب دون الأمصار " [4].

وضرب القباب ليس من طبيعة الحياة الحضرية ولا هو عادة من عادات أهل المدر والحضر ،فغيرت العامة بنية هذا التعبير لتصبح " بنى بأهله "، بمعنى " دخل بأهله " الحياة الزوجية ، ثم إن ابن قتيبة عقد بابا بعنوان " باب دخول بعض الصفات مكان بعض " [5] مثل الباء تدخل مكان على ، وعلى تدخل مكان الباء ، وتفيد كل منهما نفس الدلالة وعليه يمكن حمل قول العامة على هذا الأساس .

- قال العرب : " رميت عن القوس " [6] ويقولون رميت عليها .

لأن عن قد تعتقب على وتفيد دلالتها ، كما قد تعتقبهما الباء وتعتقبانها ، والعامة تقول : " رميت بالقوس " ولم يجوزه ابن قتيبة .

إلا اذا أرادت العامة أن تلقي القوس عينها من اليد ، وليس أحد من العلماء يرد هذا غيره . وقد ذكر ابن قتيبة نفسه في باب دخول بعض الصفات مكان بعض الذي سبقت الاشارة اليه ،أن " على " تدخل مكان " عن " وتفيد معناها وذكر " رميت على القوس " بمعنى عنها ، وأن عن تدخل مكان الباء ، مثل : رميت عن القوس" بمعنى بالقوس [7] ،وربط القول بالموقف الكلامي يرفع اللبس،

---

(1) أدب الكاتب ، / 323 ، الصحاح 6/ 2286 ، مختار الصحاح ، / 65-66.
(2) أدب الكاتب ، / 323.
(3) الصحاح ، 6/ 2286 ، ومختار الصحاح / 423 . (4) الخصائص 1/ 39 .
(5) أدب الكاتب ، / 394-415.
(6) أدب الكاتب ، / 323 ، اصلاح المنطق ، / 343 ، شرح أدب الكاتب ، للجواليقي ، / 353 . (7) أدب الكاتب ، / 396 ، 399.

وينجلي المعـــنى .

وما لا يجب أن نغفله هنا هو أن الباء تدخل مكان عن أو على أو العكس في سياق لغوي دون سياق ، وذلك حسب الملابسات والأحوال الداعية الى ذلك والمتنوعة له ، فاما أن ذلك مطردا في كل سياق لغوي وعلى كـــل حال فلا ، وعلة ذلك أن الفعل اذا كان بمعنى فعلٍ آخر ، وكان أحدهمـا يتعدى بحرف والآخر بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقّع أحد الحرفين موقـــع صاحبه ايذانا بأن الفعل في معنى ذلك الآخر ، فكذلك جيء معه بالحـرف المعتاد مع ما هو في معناه [1] فتقول العامة : " بنى بأهله " ، وهي تقصد أعرس بأهله ، أو دخل بأهله ، وقد تكون الباء بمعنى على أو عن فتقول العامة " رميت بالقوس " ، وهي تقصد رميت عن القوس ، أو عليها .

- قال العرب : " افعل كذا أو كذا وخلاك ذم " [2] أي عُذِرت ، وسقط عنك الذم .

والعامة تقول : " افعل كذا أو كذا وخلام ذنب " .

وليس هذا خطأ ، فقد كان العربي أحرص ما يكون على شرفه وعرضه ، ويـــذود عنهما بكل ما أوتي من قوة ، ولذا فهو يفعل كل ما يعود عليه وعلى قبيلتـــه بالمدائح والرفعة على باقي القبائل ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يخدش كرامته وشخصيته أو يكون موضع طعن في قبيلته وحوضه فكان المعنى ألصق ببيئتـــه وطبيعته ولما انقلبت معاييره الاجتماعية والأخلاقية والاعتقادية لم يعد يخشـــى ما كان يخشاه في سابق حياته فأضحى الذم ذنبا في عرف العقيدة الجديدة ، ثم إن المرء في كلتا الدلالتين يحس بتأنيب داخلي وان كان الباعث مختلفا .

فقول العامة : " افعل كذا وكذا وخلام ذنب " يتفق وضوابط وتوجيهات العقيدة الجديدة ، وينسجم مع المعايير الاجتماعية والدينية الجديدة .

وكذلك قال العرب : هو مني مدى البصر [3] والعامة تقول : هو مني مـــد البصر وهما لغتان [4] .

---

(1) الخصائص ، 2/ 307 ، 308 .
(2) أدب الكاتب ، / 320 ، فصيح ثعلب ، / 78 ، الصحاح ، 6/ 2331 .
(3) أدب الكاتب ، / 318 .
(4) مختار الصحاح ، / 619 ، اللسان ، 15/ 275 ، الشفاء ، / 179 .

ـ وقال العرب : " دخل في خمار الناس "(1) أي فيما يستره ويواريه منهم حتى لا يستبين ، وهو مأخوذ من خمر الوادي ، وخمره ما وارى من جرف وغيره .

قال ابن قتيبة في " باب المبدل " عن الفراء قوله : غمار الناس وخمارهم(2)، والعامة تقوله بالغين ، وقد رده المفضل بن سلمة .

ـ وقال العرب : إن فعلت كذا وكذا فبها ونعمت " بتاء ثابتة في الوقف ، ومن العرب من يقول : فبها ونعمْت (بكسر العين وتسكين الميم) يذهبون الى النعيم(3) .

والعامة تقول : إن فعلت كذا وكذا فبها ونعمة ، يذهبون الى النعمة . وليس هذا خطأ لأن من العرب من شبه الوقف بالوصل فقال : عليك السلام والرحمتْ ، ومنهم من قال : الجحفت ، ومسلمت ، والغلصمت ، وهي لغة فاشية حكاها أبو الخطاب ، كما شبه الوصل بالوقف فقال : ثلاثهْ وأربعهْ يريد ثلاثة وأربعة(4) .

ـ وتقول العامة : فلان مستأهل لكذا ، وهو سائغ في القياس(5) .

ـ وتقول "ركَضَ الدابةَ والفرسُ" وهو مستعمل . وقال ابن بري بجواز هذا وصحته : " وسبب هذا يعود الى كثرة استعمالهم لهذه الصيغة ، وهو بذلك فرع من أصل هو : ركض البعير وركض الفرس (ببناء الفعل للمجهول)(6) . وقواعد البلاغة لا تنكره فهو مجاز عقلي ، أو حكمي لعلاقة بين الركض والبعير (مفعولية) .

ـ وتقول : ما سرني بذاك مفروح : جوز ابن جنى أن يكون مفعول بمعنى فاعل وقال : أما مفعول فلا يجوز الا مفروح به(7) .

ـ وتقول : هو حديث مستفاض : وهو جائز(8) وأنكره بعض العلماء وقال : لا يجوز الا مستفاض فيه .

والمثالان الأخيران يجوز أن يكونا على الحذف اذا دل على المحذوفين شيء في سياق الكلام ، والعرب يحذفون ، ويختزلون من الكلام ما لا يتم الكلام

---

(1) الفاخر ، / 187 . (2) أدب الكاتب ، / 376 .
(3) أدب الكاتب ، / 320 . الفصيح ، / 99 . اصلاح المنطق ، / 313 .
(4) الخصائص 1 / 304–305 . (5) ذيل الفصيح ، / 9 .
(6) مختار الصحاح ، / 255 ، واللسان ، 7 / 564 . (7) الخصائص 13 / 133 .
(8) اللسان ، 7 / 212 .

على الحقيقة الا به ، استخفافا وايجازا اذا عرف المخاطب ما يعنون به.[1]

— وتقول : شتان ما بينهما ، جوزه ثعلب وغيره ، لأنه اذا تباعد ما بينهما فقد تباعدا وفارق كل واحد منهما صاحبه[2] .

— وتقول : سخرت به ، وهي لغة جائزة صحيحة ، وزاد الأخفش "ضحكت به ، وضحكت منه ، وهزئت به ، وهزئت منه ، وكل يقال"[3] .

— وتقول : سكران ملطخ (بتضعيف الخاء) وهو صحيح.[4]

— وتقول : فلان يندى علينا[5] ، وراس العين[6] بدل راس العين .

وبعد هذه الوقفة على نماذج مما كانت العامة تتداوله من أبنية نحوية ودلالية ، ورأينا أنها ليست مما يمكن وصفه بالخطأ واللحن ، نخلص الى القول :

اذا كانت منظومة اللغة العربية الصرفية والنحوية تبيح كثيرا من الأبنية النحوية والصرفية فإن العرب لم يستعملوا كل ما تبيحه منظومة لسانهم ، ثم إن من المستعمل ما كثر على ألسنتهم ، ومنه ما قل ، ومنه ما شذ ، وكل صحيح فصيح .

ولكن العلماء رأوا أن يضبطوا منظومة الملكة اللغوية عند العرب ويوضحوا أطرها وخصائصها ليسهل عليهم تعليمها ، ويسهل بالتالي تعلمها على الناشئة والمتأدبين ، ولتنميتها بالقياس وبالتوليد بالارتكاز على المطرد الشائع ، والمقتاس ، وهذا ما عاملوا استثناء ما شذ عن هذه القواعد والمقاييس لأنهم لم يرضوا للقاعدة الصحيحة أن تختل وأن تنهدم أو يعتورها بعض الخلل ؛ وما نعتوه بالشذوذ حينا ، وبالغلط واللحن أحيانا فانهم لم يكونوا يقصدون اتهام العرب بذلك حسب المدلول الظاهر للكلمتين الأخيرتين خاصة ، انما يقصدون أنه شاذ على القياس الموضوع ، وخارج عما يلتفت اليه بعض المحدثين.[7] فقد كانوا يرون أن كل متكلم على لغة من لغات العرب فصيح ، ولغته فصيحة ، واذا اختار القليل وترك الكثير الشائع يكون مخطئا للأشيع والأفصح غير مجانب للفصيح الصحيح .

---

(1) أدب الكاتب ، / 182 . تأويل مشكل القرآن ، / 162 ، 169 — 170 ، 235
(2) أدب الكاتب ، / 312 ، الفصيح ، / 79 — 80 ، اصلاح المنطق ، / 313 ، 381 — 382 ، شرح المفصل ، 4 / 68 .
(3) مختار الصحاح ، / 290 ، اللسان ، 4 / 352 — 353 . الامتاع والمؤانسة ، 3 / 185
(4) اصلاح المنطق ، / 328 ، 344 . (5) اللسان ، 15 / 315 .
(6) اللسان ، 6 / 92 .
(7) انظر المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، / 155 .

قال الفراء : " واعلم أن كثيرا مما نهيتك عن الكلام به من شـــاذ اللغات ومستكره الكلام ، ولو توسعت باجارته رخصت لك أن تقول : رأيــــت رجلان ، ولقلت : أردت عن تقول ذلك ، ولكن وضعنا ما يتكلم به أهـــل الحجاز وما يختاره فصحاء أهل الأمصار فلا تلتفت الى من قال : يجوز فإنا قد سمعناه الا أنا نجيز للأعرابي الذي لا يتغير، ولا نجيز لأهل الحضـــر والفصاحة أن يقولوا : السلام عليكم ،ولا " جيت من عندك ". وأشباهه مما لا نحصيه من القبيح المرفوض " (1) فالفراء في تشدده لم ينكر من القبيـــح المرفوض والمستكره من الكلام سلامته وصحته إنما فعل ذلك من حيث انه لا يجوز أن تذكر الشاذ والقليل مع توفر المطرد الأشهر وبالتالي نضيع على المتعلمين والمتأدبين فرصة التعلم وتحصيل اللغة ولهذا رأوا وجوب اختيار الأفصـــح الأشيع وهو الأولى بالتعلم وبمعرفته .

وللإحاطة بما استعمله العرب يجب الرجوع الى كل المصنفات التي تركها العلماء الأوائل في شتى المعارف، وفي مختلف العلوم مع الأخذ بعين الاعتبار أن كثيرا من كلام العرب قد ضاع . " ومن تبحر في كلام العرب وعـــرف أساليبه الواسعة ووقف على مذاهبه القديمة فإنه إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع الي النكير فيه ، والتلحين ، وروي عن ابن ابن الخطاب أنه قال : أنحى الناس من لم يلحن أحدا " (2) .

وفي ختام هذا الفصل نشير الى أن الجاحظ قد تنبه الى مستويات اللغة واستعمالات الفئات الاجتماعية على اختلاف طبقاتها وأصنافها فنقل صورة حيـــة عن استعمالات العامة والحشوة والطغام ، واستعمالات أصحاب الحرف والصنائع مما نطقوا بها . فمن أمثال العامة " أحمق من معلم كتاب ". والأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطإ فاحش ، والحائك ليس عنده صواب جيد في فعال ولا مقال ، ولذلك قال : والحاكة أقل وأسقط من أن يقـــال لها حمقى وكذا الغزالون .

---

(1) تكملة إصلاح ما تلحن فيه العامة، للجواليقي ، / 5 .
(2) بيان إعجاز القرآن ، الخطابي ، / 46–47 .

نتائج الباب الثالث

بعد أن وقفنا عند استعمالات العامة في مستوياتها الثلاثة وحللناها وناقشناها على ضوء قواعد اللغة وسننها ، وعلى ضوء المنهج الذي آثرناه الذي اعتمدناه في بحثنا يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

1 - إن الاحاطة بمفردات اللغة العربية شيء بعيد المرام إن لم يكن مستحيلا ، خاصة في ظروف العلماء الأولين ، ومع هذا فقد استطاعوا بوسائل بسيطة أن يجمعوا لنا مادة لغوية هائلة، وتركوا لنا تراثا لم يتوفر لأمة من الأمم الأخرى ، رغم البيئة الجغرافية المترامية الأطراف، وتعدد أمزجة الناطقين بالعربية وطباعهم، وتفاوت قدراتهم على البيان والفصاحة ، ولهذا نرى أن الحكم على العلماء الأقدمين من خلال مجموعة قليلة من المصادر ودون ربط ما صنفوه بغاياتهم التعليمية والتأديبية ليس من الموضوعية في شيء ، ونرى أنه لا يمكن للبحث اللغوي أن يكون مخلصا ونزيها وعلميا الا اذا رجع على قدر الامكان - الى المصادر اللغوية والنحوية والفقهية ومصنفات القراءات وما الى ذلك ، ولا جرم وظروف العلماء الأولين هذه أن نجد هذا العالم يعرف استعمالات لا يعرفها آخر والعكس ... وهكذا ...

2 - إن المصنفات اللغوية في القرن الثالث كانت مختصرات تعليمية ، يستفيد منها الناشئة ، وتعلمهم أصول اللغة العربية ، فنبه العلماء الناشئة والمتأدبين الى هذه الأصول ، والى قواعد التوليد والتفريع وسنن التطور حتى يقيسوا ويولدوا عند الحاجة بعد إتقانهم هذه الأصول ، ونبهوهم الى أن ما تتداوله العامة ، منه ما يمثل مرحلة تطورية عن الأصل والوضع الأول في اللغة العربية ، والى أنه قد يكون في البنية الصوتية والصرفية أو في البنية النحوية أو البلاغية استعمالات أفصح وفصيح والعامة استعملت الفصيح فتكون أخطأت الأفصح وان كان ما جاءت به فصيحا صحيحا . بل قد يكون لغة لقبيلة عربية ، وليس من توليدات العامة أو تغييراتهم ، ولذا فالعلماء لم يردوا استعمالات العامة من حيث عدم صحتها وعدم جوازها ، إنما ردوها من حيث اعتبارها أصلا لأن انكار الجائز خطأ وغلط .

3 - كان العلماء يعرفون سنن التطور اللغوي ويدركونها أقوى الادراك ، ولذا نراهم لا يردون ما انتهت اليه الاستعمالات على ألسنة العامة ، واكتفوا بالتنبيه الى أصولها الأولى، واستعمالاتها عند العرب حتى تشن أو تفسر النصوص الأدبية والخطابية بما هو متعارف عليه في تلك البيئة العربية، وبما هو شائع في أوساط ذلك المجتمع العربي ، « لأن اعتماد الألفاظ في صورها وفي دلالاتها التي انتهت اليها لا يساعد الدارس على فهم نصوص أدبية كتبت في عصور خلت ، ومن ثم يتعذر على الأجيال بعد قرون فهم الأدب الجاهلي والقرآن الكريم . " فإنك لا تفصل في شعر الهدليين إذا أنت لم تعرف بين شاية وساية ، وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في حزم تبايع وعروان الكراث ، وشس عبقر ، وأسد حلية ، وأسد ترج ودقاق ، وتضارع ، لأنه لا يلحق بالفطنة والزكاء كما يلحق مشتق الغريب » (1) .

4 - لم يرد العلماء أن يثقلوا على قدرة المتعلم أو المتأدب الاستيعابية بإعطائه أكثر من وجه في الأداء ، ولم يصفوا الوجوه التي أصابها التغيير بالخطأ واللحن ، فاعتمدوا الاختيار منهجا لهم ، فقد بات يقينا عندهم أن أسبقية اكتساب هؤلاء المتأدبين للمطرد الأفصح على الأقل اطرادا، واكتساب الشاذ النادر يأتي بعد ترسيخ اللفظ المقيس ، وهذا لا يعني اقتصارهم على المستوى الأدبي من التعبير ، فالمتأدب تختلف مقامات كلامه ومقتضيات الأحوال التي يجري فيها الكلام ، والنظر الى مصنفات علماء القرن الثالث على أنها كتب علمية ذات منظور شامل للغة العربية لا يقف أمام أبسط الانتقادات .

5 - لذا اهتم العلماء الأولون بتحصيل المرء والمتأدب المنظومة الصرفية النحوية البلاغية ، وللتصرف في الكلام على الصورة التي ورثت عن العرب المحتج بلغتهم ليسهل على المتأدبين تحصيل الملكة اللغوية للعربية ولترسخ في أذهانهم الأبنية افرادا وتركيبا ، ولتحصل لهم بذلك مهارة التبليغ بتوفر الظروف والملابسات الحقيقية التي تحيط بمجرى المخاطبات ، وبتوفير ما

---

(1) الشعر والشعراء ، / 9 .

تقتضيه هذه الملابسات من الألفاظ، والتراكيب المناسبة لها . وبالتالي لا يأخذ المتأدب أو الناشيء القواعد النحوية جافة مفصولة عن القواعد العملية للبلاغة .

6 - وتحصيل المنظومة الصرفية النحوية البلاغية بما فيها الحركات الاعرابية تشكل أساسا من أسس الملكة اللغوية للعربية واحدى خصائص نظامها المتميز ، وبالتالي فإن توجه العامة الى التخلي عن الحركات الإعرابية يؤدي - ان لم تتدارك - الى تغيير جذري يمس جوهر نظام اللغة ، تستحيل بسببه الى لغة أخرى مثل ما حصل للغة اللاتينية عندما أصابها التحول في صميم نظامها فصارت شيئا فشيئا لغة بل لغات متعددة مختلفة في أسسها وخصائصها ، لأن الإعراب حكم من أحكام النظام اللغوي الجوهرية ، وملكة اللغة ونظامها هي في التركيب ، فإذا اختل نظام الاعراب صار نظام العربية الى نظام لغوي آخر .

واسقاط الحركات الاعرابية تغير يؤدي - في رأينا - الى الخروج عن نظام اللغة العربية ، لذا لا ننظر اليه على أنه تطور بل هو لحن وخطأ نرفضه ونكشف خطورة الآثار التي تترتب عليه .

الخاتمـــــة

لن نعيد ذكر جميع النتائج التي توصل اليها بحثنا في كل باب عـــلى حدة ، وإنما سنعمد الى التركيز على أهمها واجمالها فيما يلي :

1 – لم يربط العلماء الأولون السليقة بالدم العربي ولا بالبداوة .

2 – لقد كانت العربية التي يتكلمها العرب في شبه الجزيرة موحدة فـــي نظامها، وأصولها، والقول باللغة المشتركة ينقضه الواقع اللغوي في شبه جزيـــرة العرب .

3 – لا تتفاضل الألفاظ فيما بينها إلا من جهة عدم الغرابة وعــــدم مخالفة القياس ، وعدم تنافر الحروف ، ويتفاضل الكلام بصياغة معانيه .

4 – القياس عند العربي المحتج بلغته قياس عملي ابداعي لا شعـــوري ، والقياس عند النحويين واللغويين علمي تعليمي .

5 – يوفر القياس طريقا علميا لفهم التطور اللغوي ، وطريقا عمليا لتوليـــد المصطلحات والألفاظ العلمية .

6 – كل ما جاء مقيسا على أصل ،أو جاء عن عربي فهو صحيح فصيـــح شذ أو اطرد قل أو كثر .

7 – للإعراب أهمية كبيرة في إفهام وفهم المعاني المتشاكلة والمختلفـــة ، ويعطي لوحدات الجملة نوعا من الحرية داخل الجملة ، فتتغير مواضعها بحسب ما تقتضيه الأغراض .

8 – نزل القرآن بكل لغات العرب، وليس بلغة قريش لوحدها ،ولا بـــأي لغة قبيلة أخرى لوحدها .

9 – لم يكن التحدي في الاستعارات لوحدها، أو في التتابع الايقاعـــي لوحده،أو في القصص ، أو في العلم بالغيب لوحده ، وكان بالنظم الفريد الذي انتظم سور القرآن من أولها الى آخرها، فتكون بالتالي الاستعارة .... وما اليها من مقتضيات النظم، ومن محصولاته .

10 – ليست الأحرف السبعة ، سبع لغات من لغات العرب،ولا هـــي القراءات السبعة .

11 – ان القراءات التي ردها بعض علماء القرن الثالث صحيحة سليمـــة

وان كانت شاذة .

12 - الشعر في القرن الثالث صورة حية للتطور الثقافي، والاجتماعي وللنضج الفكري والفني لذلك القرن .

13 - اكتملت للشعر والنثر أسباب التطور الفني فجاء موحد الموضوع ، مترابط الأجزاء، في غير اخلال بأساليب التعبير العربي ، في لغة سلسلة سهلة .

14 - كثرت الألفاظ، والمصطلحات العلمية التي اشتقها العلماء للمعاني الجديدة بسبب تعدد المعارف والعلوم .

15 - وتعددت أغراض النثر العلمي، والفني التي عبر عنها العلماء، والأدباء بلغة بعيدة عن الغريب والوحشي، ومترفعة عن السوقي المبتذل .

16 - لم تكن لغة العامة في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية كلها لحنا وخطأ، ولا هي خارجة عما ورد عن العرب أو عما يبيحه قياس العربية .

17 - لقد كانت السمة الظاهرة على لغة العامة هي إسقاط الحركات الاعرابية ، ذات الأهمية الكبيرة في نظام اللغة العربية وفي الكلام خاصة .

18 - لم يكن العلماء يجهلون سنن التطور اللغوي، ولا كانوا يقفون في وجه التطور اللغوي بتنقية اللغة .

19 - لقد كان غرض العلماء تعليميا تربويا، وليس علميا متخصصا وشاملا .

وعلى ضوء هذه النتائج العامة المجملة نرى استخلاص مجموعة من الملاحظات للاستفادة منها في معالجة وضعنا اللغوي المعاصر :

أ - إن اللغة ظاهرة لصيقة بالإنسان ، يبلغ بها تجاربه وخواطره وتتواصل بها الأجيال ، تقوى بقوة التجارب والمعاني التي تعبر عنها وتسمو بسموها ، وتضعف بضعفها فهاهتها ، وهي نظام متكامل دقيق لا يقبل التنازل عن أي جزء منه ، واكتساب نظام العربية لا يتحقق الا في ظروف بيئية معينة ليست بالضرورة بدوية ، ولذا فإن أي طفل بدويا كان أو غير بدوي يستطيع تحصيله إذا ما توفرت الظروف والملابسات التي تحقق اكتساب النظام اللغوي للعربية سواء أفي البادية أم في غير البادية، وحين تحققت هذه الظروف تحصلت للعربي ملكة لغته أحسن ما يكون الحصول .

ب - بالرغم من أن نظام اللغة العربية واحد، والملكة اللغوية عند العرب

كانت موحدة، فقد كانت لغات القبائل العربية مختلفة في تأدية هذه الملكـــة اختلافا يعكس تباين هذه اللغات في تطورها . فالكيفية الشائعة الكثيرة تعكس مرحلة تطورية معينة ، والكيفية النادرة القليلة تعكس بدورها مرحلة تطورية قديمة سابقة ، أو جديدة طارئة . والشائع والنادر كلاهما صحيح فصيح اذا وردا عن عربي فصيح ثقة .

ج - والألفاظ المفردة لا توصف بالفصاحة إلا من جهة ثبوتها في اللغة ، وخلوها من تنافر الحروف التي تثقل على اللسان ، ومن الغرابة ، ومن مخالفة القياس الصرفي ، لأن الفصاحة بمعنى الإبانة تتجاوز المستوى الإفرادي إلـــى المستوى الإخباري الذي تراعى فيه معاني النحو، ووجوهه، وفروقه فيما بين معاني الكلم بحسب المعاني، والأغراض المرتبة في النفس على ما يقتضيه الفكر والرويـة ، والذي يتبارى فيه الشعراء والأدباء ، ويتفاضلون بما أوتي كل منهم من خيال وذوق، واقتدار على التعبير عن المعاني المختلفة .

د - والفصيح من الكلام ما وافق كلام العرب الفصحاء وسنن لغتهم ،وكل ما لم يوافق هذا فهو اللحن والخطأ واللكنة والعجمة . وهذا يعني أن كـل تطور لغوي -في جميع مستويات اللغة- لا يتنافى وسنن التطور اللغوي، ولا يتعارض ونظام اللغة ليس خطأ ولحنا . وأن كل الاستعمالات اللغوية التي لم تخـرج عن سنن العربية ونظامها وقواعد تطورها صحيحة فصيحة ، وأن الكلام الفصيح لا يقتصر على عصر من العصور ولا على جيل من الأجيال بل يمتد امتداد المجتمع اللغوي المحافظ على أصول اللغة وسننها .

هـ - بهذه النظرة توصلنا الى أن جل استعمالات العامة في القـــرن الثالث في تطورها وفي صورتها التي انتهت اليها قد أخذت منحى تطوريـــا صحيحا ،الا في اسقاطها الحركات الاعرابية ، والإستيعاض عنها بأحوال الكـلام ومقاماته وسياقاته، وترتيب أجزاء الجملة ووحداتها ترتيبا واحدا ،وعلى نسق واحد ، والتخلي عن الحركات الإعرابية ليس أمرا هينا . فالحركات الإعرابية دعامة مـن الدعائم الأساسية التي تنبني عليها ملكة اللغة وقواعدها .

و - لذا فإن الدعوة الى التخلي عنها ، والإقلال من أهميتها بدعـوى

التسهيل ، والتيسير هي دعوة هدم، وليست دعوة بناء ، فبإسقاط العامة لها أدى الى جمود الجملة العربية وسكونها ، ومنه الى التعبير عن معان مختلفة متكافئة ببنية تركيبية واحدة ، ثم إن اسقاط الحركات الإعرابية يعني إهمال كثير من الأبنية البلاغية والأساليب التعبيرية والإبلاغية للتعبير عن دقائق المعاني والأغراض ، ونحن نرى أن استغلال الطاقات البلاغية الدقيقة للإعراب تقتضيها دقة الفكر ، ولطف الخيال ، وسمو الذوق والطبع ، ونرى أن عدم هذا يقتضي عكس ذاك ، بالإضافة الى أن التخلي عن الإعراب هو قطع للصلة بيننا وبين أصالتنا وحضارتنا . والدعوة الى ذلك تعني الحيلولة دون فهم عقيدتنا وديننا .

ز — وحرصنا على الإبقاء على نظام العربية وسننها الأول — وهو باق ما في القرآن شئنا أم أبينا — لا ينفي التطور اللغوي الذي يحترم هذا السنن بل يؤكده ويزكيه ويحدد اطاره العلمي . فالتطور الثقافي والاجتماعي في القرن الثالث فرض على الشعراء والعلماء أن يشتقوا ألفاظا ومصطلحات في شتى العلوم والمعارف للمعاني الجديدة ، ويؤلفوا أبنية جديدة لصور بيانية مبتدعة، ومولدة تتماشى، وهذا التطور ، وتحترم سنن العربية وخصائصها .

ح —وكانت غاية العلماء في القرن الثالث من مصنفاتهم ومختصراتهم اللغوية تربوية تعليمية ولم تكن علمية ، وكان لخلط بعض الباحثين المحدثين بين مهمة العالم اللغوي صاحب النظرة الكلية الشمولية وبين مهمة المعلم صاحب النظرة التدريجية الإختيارية شأن كبير في إصدار أحكام ، لو تروى أصحابها قليلا ما كانت لتصدر عنهم .

ط — إن نزول القرآن بكل لغات العرب أعجزهم بنظمه الفريد ، وفصاحته الساحرة ، ومعانيه السامية . نظروا فيه فوجدوا ألفاظه في أبنيتها الصوتية الصرفية ، وفي أبنيتها النحوية ليست غريبة عنهم ، بل هم أعرف الناس بها . ولكنهم وجدوا أن فصاحته وبيانه فوق قدرتهم البلاغية . ووجدوا أنه نتج عن نظمه تتابع صوتي خلاب ، وصور بيانية مبدعة ، ومعان سامية منظمة نظما محكما في ألفاظ منتقاة ، يألفه الناس ويسحرهم ، ويفهمه من تحصل له نصيب من العلم والمعرفة بقدر، ويفقهه الراسخون في العلم بقدر أيضا ، وكل يجد له حلاوة وطلاوة،

بقـدر كذلـــــك .

ى — وكان نزول القرآن بالعربية حدثا فريدا في تاريخ الإنسانية والأديان واللغات ، فبالنسبة للغات فقد تعدى بالعربية الإقليمية الضيقة الى العالميـــة الواسعة . فأصبحت مقدسة عند أكثر من أمة ، ثم إن تعهد الله بحفظه آية باقية لدعوة الاسلام ، حقق على مر الأعصر والأجيال استمرار العلاقة الوطيدة بينـــه وبين فصاحة اللغة العربية ، وبلاغتها الساحرة . فلم يزدها توالي الأجيال وتعاقب الأزمان إلا تفاعلا مع القرآن لتبقى ببقائه وتخلد بخلوده ، ولولا ذلك لكان تغير بيان العربية ممكنا ، ولأصبحت اللهجات العربية لغات مستقلة لا علاقة بينهـــا ، لما اتسعت رقعتها لتمتد الى كل المسلمين في أنحاء العالم يقرأون القرآن بها يتعبدون بحروفها . كما أثبت القرآن للعربية الإقتدار البالغ علميا وانسانيا على تحمل واستيعاب المفاهيم الحضارية على أي مستوى والتعبير عنها ، وأثبت لـــها بذلك مكانة خاصة في نفوس المسلمين والعرب ساعدت على دحض دعاوى المنادين باللهجات المحلية ، أو باستبدال الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية ، أو بالتخلي عن الحركات الإعرابية ، أو بإغراقها في سيل من الألفاظ الأعجمية دون قيـــد شــــرط .

ك — إن أثرها بما تحمله من الثقافة الإسلامية العربية خلال أربعة عشـــر قرنا كان كبيرا جدا ، واستفراغها من جوهرها ومحتواها الذي امتزجت بـــه والتحمت ، وابعادها عن رسالتها الدينية جعلها تؤول إلى هذا الوضع المتخلف في حياتنا العلمية والعملية ، والى اتهامها بعدم القدرة على استيعاب المفاهيم الحضارية المعاصرة ، وعلى التقدم . وقد استطاعت رغم المعوقات التي يبثـــها عصرنا ، وتصطنعها أجهزة اعلام معادية أجنبية ، ومحلية أن تكشف مرونتها ، وقدرتـــها على الاستجابة للتحديات ، وأن تثبت جدارتها وسيرورتها رغم كيد الحاقديـــن والجفـــاة . .

ل — فاللغة في ذاتها ليست سببا في تخلف أمتنا وتعثرها ، لكن المصدر الحقيقي الأساسي هو الوضع الحضاري الشاذ للشعوب العربية الاسلامية ، وفقدان الثقة بالنفس وبالقرآن ، والتراث . هذا الوضع الذي لا يتحمل مسؤوليته كلـــه الاستعمار ، لأننا نتحمل بعضا من المسؤولية ، فلقد كانت الأمية في القبائل ،

مثلا في الشمال المغربي •خلال فترة الاستعمار العسكري والسياسي لا تتعدى نسبة 5 ٪ ، وبعد ثلاثة عقود ـ تقريبا ـ من السنين في ظل الاستقلال أصبحت الأمية تتعدى نسبة 95 ٪ ، لأن المواطن المسلم آنذاك كان يشعر بأن إيمانه وعقيدته لا يكتملان إلا إذا حفظ القرآن ، والأحاديث والأدعية ، وهل يحفظ هذا بغير اللغة العربية الفصحى ؟ والتلميذ أو الطالب اليوم يهمه أن يتعلم بغير اعتبار الوازع الديني ، فاليوم هناك وازع آخر ، وازع وطني ، وازع المواطنة ، وازع اجتماعي ، وهي طبعا أقل بكثير من الوازع الديني [1] . والقرآن الكريم لا يحفظ اللغة العربية فقط ، انما يساعد على صقل الذوق وتهذيب الطبع والخيال ، وعلى السمو الانساني ، وعلى صياغة قيم فنية جمالية راقية يهتدي بها الشعراء والأدباء ، ويوقظ في التلاميذ الإحساس بالجمال ويوجهه ويربي فيهم روحا نقديا يميزون به بين الأدب السامي اللطيف ، وبين الأدب الغث والبسيط .

م ـ وتوسيع الفجوة بين الفصحى والعامية ، واختلاف العداء بينهما نفخهما روح التطرف في الحرص والحيطة ، لأننا نجد في كل اللهجات المعاصرة مئات الألفاظ ذات الأصول العربية الفصيحة ، بيد أن بعضها ميت أو قليل الاستعمال ، وبعضها الآخر تغير وفق ما يقتضيه قياس العربية وقواعدها ، ولا يعرف أصولها العربية إلا المتضلعون في فقه اللغة العربية ، ولذا فإننا نرى أن النظرة الوصفية البنيوية الوظيفية المشفوعة بالنظرة التطورية التاريخية تحل كثيرا من التعقيدات اللغوية الراهنة ، ونرى أن تطور وسائل النشر والإعلام في ربوع أمتنا ، بالاضافة إلى الوعي القومي المتزايد والنهضة المتبصرة الواعدة سيحدان من إخلال العامية بسنن العربية الفصحى ، ولن تحول بذلك العاميات دون انتشار الفصحى . ونرى كذلك وجوب توعية الناطقين بالعربية بأن هناك مستويين للاستعمال اللغوي : مستوى التخاطب اليومي ، ومستوى الأدب ، ينتظمهما نظام لغوي واحد ، وإن اختلفا في كيفية الإجراء ، لأن لكل منهما شروطا لا يتم إلا بها .

---

(1) لقاء مع مدير مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ، مجلة الدوحة ، 43/ ، ع 49 ، س : 4 ، 1980 .

ن - ودراسة العامية كواقع لغوي انتهت اليه العربية على ألسنة العامة في هذا العصر أمر مشروع. ومقبول اذا لم يكن هدفها تمزيق الأمة العربية بتقطيع علاقاتها بالفصحى أحد المقومات الأساسية لأية وحدة عربية إسلامية .

والمطلوب من المخلصين لهذه الأمة في هذه الحال أن يبينوا فساد آراء المغرضين، والحاقدين على اللغة العربية، لأنها تحمل رسالة ، وعلى تراثها، وأن يكشفوا نياتهم البعيدة تماما عن هدف الإصلاح اللغوي الذي لا يمكن أن يتحقق - في نظرنا - إلا في إطار الفصحى ، وأن يضعوا حدا للعزلة الخانقة التي تعيشها الفصحى في أوطانها بعيدة عن مجالات العلم، والتكنولوجيا، وتدريس العلوم الانسانية، وغير الانسانية بالجامعات العربية، والمؤسسات التربوية، والتعليمية ، ومراكز البحث .

س - ولا يكفي أن توضع المصطلحات التكنولوجية، والعلمية في التعليم العالي وفق قواعد اللغة، وطرق الاشتقاق، والتعريب المعروفة قديما بل يجب أن يكون ذلك ضمن تخطيط ثقافي تربوي شامل متكامل تراعى فيه أصالتنا وتميز تراثنا مع الإستفادة ما أمكن من المناهج العلمية والتربوية الحديثة ، ويراعى فيه الجانب العملي السياقي للغة بعدم الفصل بين النحو والبلاغة ، وبمراعاة مراحل التحصيل اللغوي التي تتماشى ونمو الطفل العقلي والنفسي ، ويشفع هذا كله بتعبئة متكاملة ماديا ومعنويا ، وبتوعية شاملة لجميع المواطنين ، يحدو هذا التخطيط الشامل المتكامل ارادة سياسية عليا مخلصة للحكام والمديرين .

وأرجو أن أكون قد حققت بعض ما صبوت اليه باختياري لهذا البحث ، وأن يجد فيه المختصون والمهتمون المخلصون جديدا يساعدهم في علاج الوضع اللغوي المعاصر لأمتنا خاصة ، وفي ايجاد سبيل قويم لاعادة الاعتبار الحضاري للأمة الاسلامية والعربية عامة .

ومن الله التوفيق ..

- ملحق -


All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- تمهيـــد -

نردف البحث الملحق التالي ، المحتوي على بعض الاستعمالات المنسوبة الى العامة ، وعلى وصف العلماء لها ، لننظر : هل كانت الاستعمالات خارجة عن سنن العربية وعما أثر عن العرب المحتج بلغاتهم ؟

عمدت في هذا الملحق الى أخذ عينة عشوائيا ، وتتبعتها في مصنفات اللغويين لتحديد مستواها في الفصاحة . ولمعرفة وصف العلماء لها .

وبعد أن جمعت آراء كثير من العلماء استقرأت ما جمعت ، فألفيت بعض ألفاظ العينة بغير ملاحظات ، فأسقطتها .

صنفت هذه الألفاظ الباقية صنفين :
- الصنف الأول: ما جاء في لغة العامة مغير الحروف .
- الصنف الثاني: ما جاء في لغة العامة مغير الحركات .

أدرجت ألفاظ كل صنف في جداول مقسمة إلى ثلاثة أعمدة ، جعلت العمود الأول للألفاظ مرتبة ترتيبا ألفبائيا لتسهل مراجعتها في المعاجم والكتب اللغوية ، وجعلت العمود الثاني لوصف الألفاظ في المصادر اللغوية ، مع الاشارة الى مصادرها برموز خاصة لتفادي طول العناوين ، وخصصت العمود الثالث لما جاء منسوبا الى قبيلة أو الى بعض العرب ، ولما جوزه علماء القرن الثالث أنفسهم ولبعض الملاحظات العامة .

وقد لاحظت أن علماء القرن الثالث ومن ألف بعد هذا القرن في لحن العامة يثبتون صحة بعض الاستعمالات العامية .

وأشرنا الى نطق العامة للألفاظ باللون الأحمر ، والى ما نقله اللغويون بالأخضر .

(1) انظر رموز المصادر اللغوية الواردة في الجداول في الصفحة الموالية لهذا التمهيد .

مصادر الملحق ورموزها

الرقم	الرمز	عنوان المصدر	المؤلف
01	أ ع	اعراب 30 سورة	ابن خالويه
02	أمق	الأمالي	للقالي
03	أمز	الأمالي	للزجاجي
04	تا	تاج العروس	للزبيدي
05	ته	تهذيب اللغة	للأزهري
06	تث	تثقيف اللسان	ابن مكي
07	تن	التنبيهات	لعلي بن حمزة
08	تم	تأويل مشكل القرآن	ابن قتيبة
09	ج	الجمهرة	ابن دريد
10	خ	الخصائص	ابن جني
11	خز	خزانة الأدب	للبغدادي
12	ذ	ذيل الفصيح	القالي
13	ذ م	ذيل الأمالي	القالي
14	سص	سر صناعة الاعراب	ابن جني
15	ش	الإشتقاق	ابن دريد
16	شج	شرح أدب الكاتب	للجواليقي
17	شد	شرح ديوان ابن الدمينة	
18	شش	شرح الشافية	الاسترابادي .الرضي
19	شم	شرح المفصل	لابن يعيش
20	ص	الصحاح	للجوهري
21	ع	العين	الخليل
22	غ	شفاء الغليل	الخفاجي
23	ف	الفاخر	للمفضل

الرقم	الرمـــز	عنــوان المصـــدر	المؤلــــف
24	فــص	الفصيـــــح	ثعلـــب
25	فــز	فعلــت وأفعلــت	الزجـــاج
26	ق	الاقتضاب في شـرح أدب الكـــاتب	البطليـــوسي
27		أدب الكـــاتب	
28	ك	أدب الكـــاتب	ابــن قتيبـــة
29	كــت	الكتـــاب	سيبـــويه
30	كــم	الكامل في اللغـــة والأدب	المبـــرد
31	ل	اللســـان	ابــن منظـــور
32	لــف	الألفـــاظ	ابــن السكيــت
33	م	اصلاح المنطـــق	ابــن السكيــت
34	مــز	المزهـــر	السيـــوطي
35	مــخ	المخصـــص	ابــن سيـــدة
36	مــن	المنصـــف	ابــن جـــنى
37	مــع	المعـــرب	الجواليـــقي
38	مــص	مختـــار الصحـــاح	الـــرازي
39	مــك	مقدمة في الكـــلام على البسملة ...	زين الدين أبو يحي زكريا الأنصاري
40	لــن	لغتنا الجميلـــة	فاروق شـــوشة

* مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج : 3 ، ص : 56 ، رمضان 1401 هـ

أ- نماذج مما نقله اللغويون غير مهموز الأول والعامة تهمزه

اللفظة	وضعها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
أبرقت	لغة، فص/ 10، ته 2/ 208، تن/ 245، 250، ش/ 447، ص، 1/ 471 - 472، فع ز/ 3، خ، 3/ 252، 293 - 244، أم ق 1/ 96، م/ 193، 226.	
أجابة (1)	جائزة، ل 1/ 293.	
أجنبت (2)	لغة، ل 1/ 282.	
أحدرت	لغة، ق/ 194-195، وتث/ 257.	
أدبرت (2)	لغة، ل 1/ 282.	
أرعدت	مثل أبرقت.	
أرفدت	لغة، ق، / 194.	
أركنت	جائزة ذ/ 20، ق، / 194.	قال بعضهم: مخ، 14/204.
أسعرت	لغة ك/ 335، ته 2/ 87 - 88، ق/ 194، ك، 4/ 365.	
أشغلت	لغة مك/ 356، ل 11/356، تث/ 237، رديئة مز 1/ 224. ن/ 23.	قال ثعلب: ما أشغله في التعجب، ل 11/ 356.
أشملت (2)		يقال أشمل يومنا: ته 11/371.
أهبت (2)	لغة، ل، 1/ 282.	
ألفت	لغة، ق، / 193.	
أعزب	لغة، جائزة ته 2/ 147، ول 1/ 596.	
أقبلت (2)	لغة، ل، 1/ 282.	

(1) "في المثل اساء سمعا فاساء جابة تنطق بغير همز وفي غيره فقد لا يهمز.

(2) يقال: شملت الريح وجنبت، وهبت، وقبلت، ودبرت.

اللفظة	وضعها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
أقلبته	لغة ،م ، / 226 ،ل ،685/1.	
أكرة	لغة ، ق / 199.	
أمط	لغة ،ك ،/ 336 وته ، 14/ 45 ـ 46 . ق ،/ 195 .	
أنعشة	لغة ،ك / 339 ، ق / 194 ، ل ، 6 / 355 ـ 356 .	
أوتدت	لغة ،ق / 194 ،و 415 ذ / 41.	لغة أهل الحجاز المورد مج / 7،ع 3 ،/ 170 .
أوقفت	لغة ،ته ، 9/ 333 ،ق / 188 ، 194 ،ل 9 / 359 ـ 360 ، رديئة مز 1 / 225 .	
أوعزت	لغة ،ك / 339.	
أخير	لغة رديئة مز 1/ 224 ،جائزة ل 4/ 264 .	القياس فيهما الهمز وسقطت الهمزة فيهما التخفيف خف / 232 .
أشر	لغة رديئة مز 1 / 225 مص : / 334 .	

ب — نماذج مما نقله اللغويون مهموزا والعامة حققته أو نقلت همزته .

اللفظـــة	وضعـــها في المصادر اللغويـــة	مـــــــلاحظات
الجـــراة	جائــزة ، ل ، 1 / 44 .	
الدنـــاة	جائــزة ، ل ، 1 / 78 .	
زررت	جائــزة ، ك ، / 273 .	
سحـــاة	جائــزة ، مخ ، 13 / 6 .	
شُلـــت	جائــزة ، ل ، 11 / 376	ذكر في اللسان شال السائل يديه اذا رفعهما يسأل بهما .
غامـــت	جائــزة ، مذ ، / 31 ، وته ، 18 / 216 .	
غلقـــت	لغة ل 10 / 291 ، رديئـــة مز 1 / 225 . كت 4 / 63 .	ذكر ابن السكيـــت (م / 145) غلّقـــت الأبواب للتكثيـــر .
غفـــوت	لغـــة ، ته ، 8 / 207 .	
قريـــت القـــران	لغة ، ته ، 9 / 271 — 272 ، مخ ، 13 / 6 ، خز 3 / 16 ، تث / 77 ، 228 ، ل ، 15 / 180 ، و 1 / 129 — 130 .	
يلاومـــني	جائــزة ، ل ، 12 / 531 .	
مســـاة	جائزة ، مخ ، 13 / 136 ، و ل ، 1 / 95 ، 97 .	
مُنيـــة	جائــزة ، ف ، / 214 .	
هَبتـــه	لغة ، ت ، 1 / 15 ، و ل 1 / 217 .	
وِزة	جائــزة ، من ، 2 / 271 .	نطق بها بعض العرب ، ل 5 / 428 — 429 .
أيســـت	لغة م / 151 ، ته ، 13 / 143 ، مخ 14 / 17 ، شش ، 1 / 3 .	قلـــب مكاني مخ ، 2 / 439 ، 70 ، 72

ج- نماذج مما نقله اللغويون مهموزا والعامة أبدلت همزته واوا .

اللفظة	وضعها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
واكلته	لغة ، ته ، 10/ 365 ، أ م ق ، 1 / 217 .	لغة لأهل اليمن ، ته ، 14 / 352.[1]
وازيته	جائزة ، تش ، / 75 .	
واخذته	لغة ، ق ، 190/.	
وامرته		لغة لأهل اليمن ، ته ، 14 / 352.[2]
وأخيته	لغة ، مز ، 1/ 214 . لغة ضعيفة ، مز ، 1 / 214 .	
واسيته	لغة ، ف ، 9/ 9 ، تن / 94- 95. لغة ضعيفة ، ص 6 / 2268 .	لغة لأهل اليمن ، ته ، 14 / 352.[3]
وازرته	لغة ، ش ، 396/	
واتيته		لغة لأهل اليمن ، ته ، 14 / 352.[4]

(1) + (2) + (3) + (4) جاء في التهذيب " وانما جعلوها واوا على تخفيف الهمز في يواكل ويوامر ونحو ذلك ، ته ، 14 / 352 .. ونسب رمضان عبد التواب هذه اللغة الى طيء . مجلة مجمع دمشق ، ن : 3 ، مج : 56 . 1981/ 691

د ـ نماذج مما نقله اللغويون مهموز اللام والعامة تخففه .

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
بـذرت	جائزة كت 4/ 48 ، ص، 6/ 2279.	
خبيت	لغة جائزة ل 1 / 62.	
خشوت		
داريته	لغة مخ ، 14/ 19.	
أرفيت	لغة ش/ 488 ، ته 15/ 245 ، ل ، 1/ 87.	عن بعض العرب ، ل 1/ 87.
رويت	لغة جائزة ل ، 1/ 90 ، مخ ، 14/ 7 ، ص، 6/ 2364.	
طروت	لغة جائزة مل ، 1 / 114.	
ناويت	لغة جائزة ، مخ ، 14/ 19.	
نشوت		ورد عن العرب ، ل 1/ 170 ـ 171.
توضيت(1)	لغة مخ 3/ 152 ـ 154 ، ل ، 1/ ـ 84 .	قالها بعض العرب ، ل 1/ 22 و 195.
توكيت	لغة جائزة ، ل ، 1/ 201 .	
توطيت	جائزة ، ل ، 1/ 199.	

(1) - قال ابن جني مخ 3/ 152 ـ 154 ، فأما الابدال على غير قياس فقولهم : قريت واخطيت ، وتوضيت ، يحمل على التخفيف ، لانه لم يأت منه افعل .
- وقال البطليوسي ، ق/ 189 : اخطات واخطيت بالهمز وترك الهمز ، وقد حكى ان من العرب من يفعل ذلك بالافعال المهموزة .
- وقال ابو عمرو الهذيلي : قد توضيت فلم يهمز وحولها ياء وكذا في أشبه هذا من باب الهمز ، ل 1 / 22 .

هـ- نماذج مما نقله اللغويون بالصاد والعامة تنطقه بالسين.(1)

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
بسق	لغة ل، 10/ 21. ته8/385-418.	
بخست	لغة ق/ 204، ته 15/ 152،189، ل 7/ 4.	
سفج	لغة، شد/ 93، مص/364. تث / 317.	
سلق		
السماخ	لغة، ل 3/ 34.	الصاد لغة تميمية والسين فيه، ته157/7.
السندوق	لغة، ته 9/ 386-392. اع / 28 - 29.	
أساخ	لغة، ل 3 / 35.	
قسس	لغة جائزة. ل، 7/ 74.	
قارس		
لسق	لغة، مص / 597، ك، 376/ (2)، ته 8/ 367، 407، 431، تم 6/ 233.	لغة قيس، ته 8/ 371.

(1) قال البطليوسي، ق / 204 " هذه الأشياء كلها تقال بالصاد والسين حكى ذلك عن الخليل وغيره فاما البخس الذي يراد به النقصان والسنجة التي يراد بها مثاقيل الكتاب فبالسين لا غير.

(2) بالصاد لغة تميم، وبالسين لغة قيس، وبالزاي لغة ربيعة، ته 8/ 371، وانظر ك / 376، وخ 1/ 374، و3/ 305.

و ـ نماذج مما نقله اللغويون بالسين والعامة نطقته بالصاد .

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
الرصغ	لغة ، ته 8 / 23 .	
شموس	لغة ، ل 7/ 49 ، ته 11/ 297 .	

ز - نماذج مما صحفته العامة فأبدلت الثاء تاء أو السين شينا أو الغين عينا.

اللفظــــة	وصفهــا في المصادر اللغويــــة	مــــلاحظات عامــــة
التـــوت	بالثاء لغة فيه ق / 203	
شــــن	لغـــة ق / 202	قال ابن جني سص ، 1/ 210 السدة في معنى الشدة .
نعـــق	لغة ق / 202 - 203، له 10/356-357 ، ص 668.	حكاهما الخليل ،وابن جني ق / 203

ح ـ نماذج مما غيرته العامة من أسماء البلدان والمواضع .

اللفظـــة	وصفـها في المصـادر اللغويـــة	ملاحظــات عامــــة
البصــــرة	لغة ل 4/ 67.	فيها ثلاث لغات.
الحـــوْ ب	جائزة ، ل ، 1/ 289 . مخ16/109، و14/ 15.	
رأس العين	جائزة ، تن ، / 307 .	
النهروا ن	لغة ، مع / 339 .	عن العرب بفتح الراء وضمه.
بغداد (1)	لغة ك / 332 . فص / 83 . أمق 2/ 238 .	فيها أربع لغات : بغداد بحدان مغدان بحداذ .

ط ـ نماذج مما غيرته العامة من أسماء الأعـــلام .

أزد شنوة	جائز ادغام الهمزة في الواو . شم - 9 / 108.	
جهينـــة	جفينة عن ابن الاعـــرابي ، فص / 77 و مص / 145.	
	حفينة عن أبي عبيد ة ، فص / 77 .	
رجبيـــة الكلـــبي	يجوز فيه غير الفتح لقول ابـــن قتيبة " .. . بفتح الدال قـــول الاصمعي وحذ ه " ك / 328.	
ذ بيـــا ن	كسر الذال لغة ك/329و455 .	
ســـد وس	ضم السين وفتحه لغتان ، ك/329 .	
عامر بن لؤى	التخفيف جائز، تن/285ـ286 .(2)	
عائشـــة	بلا ألف وبالتخفيف لغة نادرة ، غ / 134.	
كســـرى	بالفتح فصيحة مع/282، غ/ 171، ل ، 5/ 142 .	
وهـــب	بفتح الهاء فصيح ، ل 1/ 805 .	وذكر في اللسان أنه سُمع.

(1) كان الأصمعي يسميها مدينة السلام لأن بغ : صنم ، وداد : عطية بالفارسيـــة ، كأنها عطية الصنم ، ولا يقـــول بغداد ، وينهى عن ذلك .ـ. ك / 332 .
(2) قال علي بن حمزة: "وما للعامة في هذا صنع وهم في ترك همزه مصيبون وللعرب متبعون ". ثم ان العرب فيه مختلفون .

ي ـ نماذج مما نقله اللغويون مفتوح الفاء والعامة تكلمت به مكسورا.(*)

اللفظـــة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
الابريســم	جائزة مص/ 48، ك / 301 .	قاله بعضهم ك / 301.
الدجاجـة	لغة ضعيفة أو رديئة ك/ 326، 437 ، م / 118/ 182 ، ق / 205 ، جائزة تث / 228.	
الرصـاص	لغة قليلة ل 7/ 41، وك/ 326 .	والفتح أجود.
ضفــة	فصيحة ك/302(1) ق/ 206 ، ل 9/ 207.	وقيل الفتح أشهر .
الطيلسان	بكسر اللام لغة فيه. ق/ 204.	وزاد طالسان عن ابن الاعـرابي .
الغيــرة	جائزة ق / 205.	
زنيـــة	لغـة مص / 244.	
النســر	جائزة ل 5/ 204.(2)	
الهندباء	كسر الدال لغة فيه ك/301.	عن بعض العرب ك/301.

(*) قال البطليوسي معلقا على هذا الباب ق/ 205: "وهذه كلها (يعني الألفاظ) قد حكى فيها الفتح والكسر" (كسر الفاء وفتحه).

(1) فيه خلط ، فقد جاء في ك / 301 أن الفتح هو الفصيح ثم ذكر في/302 ان الكسر هو الفصيح ، وقال البطليوسي ،ق / 206 " في الضفة لغتـان حكاهما الخليل وغيره والفتح فيهما أشهر من الكسر ".

(2) جاء في هامش اللسان 5/ 204 والنسر طائر هو مثلث الأول في شرح القامـوس .

ك ـ نماذج مما نقله اللغويون مفتوح الفاء والعامة تضمه

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات
تخوم	جائزة ك / 305 ، ل 12/ 64 ـ 65.	
ستوق	لغة جائزة م/ 132 مص/ 286 ، مع / 203.	ذكرها ابن السكيت.
شلت يده	جائزة ، ل ، 11/ 360 .	
الغرور	جائزة ، ل 5/ 11 ـ 13.	
اللصوصية	لغة جائزة ، ته 8 / 115 ، مص/ 598 ، ل/ 7 / 87 .	
المصوص	لغة ل 7 / 93 .	
الانطة	لغة فص / 46، ق / 209 ـ 210 ، امق 2/ 287 ، خ 3/ 212 .	

ل ـ نماذج مما نقله اللغويون مجرور الفاء والعامة تفتحه.

الجنازة (1)	لغة ضعيفة ك / 326، 443، م/ 125 ، ول 5/ 324	
حبر	لغة ك/ 303، 325، 424، ته 5/ 33 .	
ضفة	لغة ك / 301 ، ق / 206 .	
ضفدع	لغة ، خ / 6 ، ول 8/ 225.	
الديوان	لغة جائزة مخ ، 13 / 8 .	

(1) جاء في اللسان الجنازة بالكسر السرير ، وبالفتح الميت ، وقال آخرون بالكسر الميت نفسه ، والعوام يقولون انه السرير ، وقال بعضهم الجنازة الرجل أو السرير مع الرجل .

م - نماذج مما نقله اللغويون مكسور الفاء والعامة ضمته.

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
الخوان	لغة ك/ 326 ، مع / 129 (1) ، أمق ن/ 278، ق / 211 - 212.	
سهريز شهريز	لغة ،مع / 119 (2)	عن اعرابي مع/ 199.
السفل العلو	لغة ك / 426، خ 2/ 102، ل 11/ 337، مل 15/ 83.	السهريز ويقال الشهريز والسين اعرب ته6/ 521.
فسكل	لغة ، ل 11/ 519	

1) قال الجواليقي : ولغة أخرى دونهما وهي " إخوان ".
2) ذكر الجواليقي أن الاصمعي قال : وسمعت اعرابيا يقول شهريز فجاء بالشين معجمة وضمها ، والقياس الكسر".

ن ـ نماذج مما نقلته اللغويون ساكن العين والعامة حركته.

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
حفر	لغة رديئة ك/295، 325، 423. لغة، ته، 5/ 18 .	
حلقة	لغة مص، / 149 ـ 150.	
وعر	لغة، ل، 5 / 285.	
وغر	لغة ك، / 295، ته 8 / 186، مخ، 13 / 128 ، ل، 5/285ـ286	

ش ـ نماذج مما نقله اللغويون مضموم الفاء والعامة فتحته.

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
طلاوة	لغة ضعيفة، ك/ 326، 443، ق،/ 210، م /112، نث،/ 219.	وذكر بعضهم ثلاث لغات: ضم، وفتح، وكسر.
دفعة	لغة مص، 1/ 207، ل 8/ 87، 88.	
نقاوة	لغة جائزة ل / 15 / 338ـ339.	
النكس	لغة مخ، 13 / 49.	
حوارى	لغة، ل 4/ 220.	

س ـ نماذج مما نقله اللغويون مضموم الفاء والعامة كسرته.

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
ذكر	لغة، ك / 306، 426، وم/37، 168.	
ظفر	ل، 4 / 517.	
لعبة	جائزة ص 1/ 219.	
الفلفل	ج 1/ 162، ولم ينكره نث/ 228.	
الفسفاط	لغة ك / 465، م / 133، مخ 2/ 87، مص / 503.	حكى ابن السكيت وابن قتيبة فيها ست لغات وكذا ابن جني.

ع-نماذج مما نقله اللغويون مفتوح العين والعامة تسكنه.

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
الأقط	جائزة ، ل ، 7/ 257.	
تحفة	لغة ، ل ، 9/ 17.	عينها حرف حلقي.
بحسب..	لغة ، ك ، 422 ـ 423 ، ول ، 1/ 311.	
الحلف	لغة جائزة ، ل 9/ 59.	
الذبحة	لغة ، مص ، / 219 ـ 220 .	لامها حرف حلقي.
السحنة	لغة ، ك/ 423 ، ومص/ 219 ـ 220.	عينها حرف حلقي.
سلف	جائزة ، ل ، 9/ 158.	
شرع	لغة ، ل ، 8 / 178	لامها حرف حلقي .
الصبر	لغة ، ق / 201 ، خ/ 123 ، ل 4/ 442 .	
الصلعة(1)	لغة جائزة ك/ 435 .. ع ، 1/ 303 ، ل ، 8/ 204 .	لامها حرف حلقي .
الشرط	جائزة ، ل ، 7/ 341 .	
الضلع	لغة قليلة ، ك/ 298 ، 429 .	لامها حرف حلقي.
الطيرة	لغة قليلة ، مخ 13/ 24 .	
القزعة(1)	لغة جائزة العين ، 1/ 303 .	لامها حرف حلقي.
الكذب	لغة ، مص ، 565 ، ل ، 1/ 704 .	
اللقطة	لغة ل ، 7/ 392 ـ 393 ، مخ 13/ 63.	
نخل	لغة ، مص ، / 219 ـ 220.	لامها حرف حلقي .
الوسمة	لغة ، ك / 36 ، 4 مص / 721.	

(1) أورد ابن السكيت ، الصلعة ، والقرعة ، والنزعة ، والكشفة ، والفطاسة ، والقطعة ، في باب ما يفتح أوله وثانيه ، ومن العرب من يخفف ثانيه " اصلاح المنطق / 172 ، 173 . وانظر العين ، 1/ 304 ، وقد رأينا في الفصل الاول من الباب الثالث ان كل لفظة كان لامها أو عينها حرفا حلقيا جاز التحريك والتسكين فيها .

ز - نماذج مما نقله اللغويون مفتوح العين والعامة كسرته.

اللفظـــة	وصفـها في المصــادر اللغويـــة	مـــلاحظات عامـــة
أجـــن	لغة أمق ، 2/ 239.	
حرصـــت	لغة ، المختسب ، 4/ 9 ، ق/212 قليلة مز 1/ 215 ، رديئة تـة ، 4/ 239 ، ل 7/ 11.	
درد	جائزة ق ، / 213.(1)	
عجـــزت	لغة ل ، 5/ 369 ، م / 218.	
غشـــت	جائزة ته ، 8/ 186 ، مخ ، 5/ 81 ، ل 15/ 116.	
قنـــع		
نكلـــت	لغة ق / 212 ـ 213 ، ص / 679.	قال ابن قتيبة قد تغير عين مضارعه ، ك / 309.

(1) قال البطليوسي ، ق / 213 ، ذكر في هذا الباب درد له الحلب يدر والكسر فيه جائز ، وهو أقيس من الضم ، لانه قد قال بعد هذا الباب في الكتاب ان كل ما كان على فعلت بفتح العين من ذوات التضعيف غير متعد بالعين ، من فعله المستقبل مكسورة الالفاظ شذت فجاءت بالضم.

ﺥ — نماذج مما نقله اللغويون مفتوح العين والعامة تضمه .

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
حمض	لغة جائزة ،خ 1 / 381 .	وجاء في ك/ 309 البصريون يقولون : حمُض .
خثر	قليلة م / 232 ،و ك / جائزة خ 381/1 ،ته 333/15 ، مخ 15/ 62 ،	ذكر ابن السكيت خثُر لغة ثالثة م/ 232 .
عثر	لغة قليلة، ل 230/4، جائزة ل 4/ 539 .	
شحب	لغة ك / 325 ،م / 232، ص 1/ 152 ، ته 4/ 192 ، مخ 15/ 62 ، ل 1/ 484 .	

ح — نماذج مما نقله اللغويون مكسور العين والعامة تفتحه .

اللفظة	وصفها في المصادر اللغوية	ملاحظات عامة
بررت	جائزة ق / 212 .ل 4/ 53 .	
برعست	لغة مص/ 100، ل 46/8 . مز 1/ 218 .	
زردت	لغة ضعيفة ك / 325 .	
سففت	لغة ، ل 9/ 152— 153 .	
قصصت		قاله بعض العرب ، ته 8/ 130 .
نقمت	لغة م / 188 .	
مسست	لغة مص / 624 .	

ف ـ نماذج مما نقله اللغويون مخففا والعامة تشـــدده .

اللفظـــة	وصفـها في المصـادر اللغويـــة	مـــــــــلاحظات
ترب (1)	لغة جائزة ، ص 1/ 91 ، مخ13/ 6، ل ، 1 / 228.	
دفـــي	جائزة ق / 198، ل 1/ 76 ، 77 .	
ارتـــج	لغة جائزة كم 1 / 170.	
شآميـــة	جائزة ل 12 / 316 .	
... شـج شجيـــة الشجـــي	جائزة ق/ 197 ـ 198 . ك/ 193. ص ، 6/ 2389 ـ 2390.	قالوا : اذا كان بالياء فهو مخفف واذا كـان بالواو فهو مشدد وقد ورد موافقا للسماع والقياس
طماعيـــة	لغة جائزة ، ل 8 / 240.	
عيرت (2)	لغة جائزة ق / 198.	
غلقت (3)	لغة جائزة ق / 197 ، ل 9 / 271.	
قشرت (4)	لغة جائزة ل 5 / 93.	
قصرت (5)	جائـزة .	
قلبت (6)	لغة جائزة ل 1 / 685.	
كناني (7)	لغة مص ، / 580 .	
لطخني (8)	جائـزة .	
مـــلاحي	لغة جائزة مك / 292 ، قليلـة ل 2/ 603، م / 182.	

(1 .... 8) قال البطليوسي ، ق / 198: " هذه الألفاظ كلها ممتنعة مـــن التشديد اذا قصد بها غير المبالغة " يعني أنه اذا قصد بها المبالغـــة تشدد كلها . وانظر ل 5 / 96 .

ق ـ نماذج مما نقله اللغويون مشددا والعامة تخففـــه .

اللفظـــة	وصفـها في المصـادر اللغويـــة	ملاحظـــات عامـــة
بخاتي [1]	جائزة ك / 291.	
أترجـــة	حكى ترنج ، وترنجة ك / 290 .	
إجـــاص	حكى انجاصة، لغة ل 7/ 3 .	قوم من أهل اليمن يقولون انجاص، انجانة بدل اجاص واجانة ، ق/195 .[2]
تزيـد ت	جائزة ق / 195 ـ 196.	
الدوجلة	جائزة م / 200.	
ســراري	جائزة ك / 291 .	
عـــلالي	جائزة ك / 291 .	
عنســت	أجازها أبو زيد ك/ 291 ، م / 376، ته 2/102ـ103، ل 5/427ـ428. ع 1/337.	
تعهـد ت	جائزة ق/195ـ196 . ص 1/ 522 .	قال ابن السكيت : يجوز تعاهدهم/ 200 .
الفلـــو	جائز بكسر الفاء وتسكين اللام ق / 195 .	
تقعـد ت	جائزة ، ص 1/522، ق/195ـ196.	يجوز تقاعدت ص 1/522 .
القوصـرة	جائزة م / 200، لغة ، ل 5/ 93.	
كـــع	لغة جائزة ، ق/ 196، م / 232.	
أمـــاني	جائزة ك / 291.	
أواقـــي	جائزة ك / 291 .	
وعـــزت	لغة ق/ 196، ل 5/ 427 ـ 428 . ك / 339 .	

(1) قال ابن قتيبة ك / 291 : " ... وهذه بخاتي ، وعلالي ، وسراري ، واواقي ، واماني ، وان شئت خففت ، وكذلك كل ما كان واحده مشددا " .

(2) انكر ابن السكيت ، انجاص ، وانجانة ، م / 198 .

ض — نماذج مما استعملته العامة في غير معانيه الأصلية .

اللفظــة	استعمــال العامــة	وصفها في المصــادر اللغويــة .
الآل	بمعنى الســـراب	جائزة ، ل 11/36ـ37، ل 465/1 .
المأتـــم	بمعنى المصيبـــة	جائزة ، ف / 185 ـ 186.
التـــلاد	بمعنى التليــــد	جائزة ، ل 3 / 99ـ100 .
الجاعـرة	للدلالة على حلقة الدبر	جائزة ، ك / 28 .
الخلـــف	بمعنى الكـــذب	جائزة قليلة ق / 113 .
الحشمـة	بمعنى الاستحيـــاء	جائزة ، مخ 13 / 108 .
حمة العقرب	للدلالة على الشوكـة	جائزة بالمجاورة مجازاً .
الربيـــع	فصل الكمأة والنــور .	ورد عن العرب ، ك / 23 ، ل 8 / 102 ـ 103 .

يتبــــع

اللفظة	استعمال العامة	وصفها* في المصادر اللغوية
أشفار العين	للدلالة على الشعر	جائزة، غ/ 121، ل، ط/ 780، مك/244
الشكر	بمعنى الحمد	جائزة، ل 3/ 155–156، أع / 19–20، بع / 29 – 30.
يتصدق	بمعنى يسأل	جائزة، ق / 110. ل، 10/ 196.
العترة	ذرية الرجل خاصة	جائزة، ل، 4/538، مص / 410، ك / 149، ذم / 162، ته، 2/ 264.
العرض	سلف الرجل من آبائه وأمهاته	جائزة ق/111–112، شج /138–139، ل7/ 170–172، أمق 2/ 117–118.
العبير	أخلاط من الطيب	جائزة، ل، 4/ 531.
الفقير	بمعنى المسكين (1)	اختلف فيهما، شج / 143، كم/2/ 163، لف / 16. أمق 2/ 282– 283، ق / 114–115. تن/317–318. ل 5/60 – 61.
الفيء	بمعنى الظل	جائزة، ل مز11/ 415.
القافلة	الرفقة في السفر ذاهبة أو راجعة	قالها العرب، شج / 124، ذ/ 11.
النقرة	بمعنى اللبة	جائزة صحيحة شج، / 145.
الملة	للدلالة على الخبزة	جائزة شج / 147، ق / 116.
نتنزه	الخروج للبساتين	جائزة، ك / 34. ف/ 94. تن/298–299.

(1) واختلف العلماء في مستهل هذا القرن حول معناهما : فقال فريق أن هناك ثلاث مراتب تبدأ بالفقير فالمسكين فالبائس ، وقال فريق أن الفقير لا شيء له وأن المسكين له قدر ضئيل من العيش لا يكفيه ، وقال فريق ثالث أنهما من صنف واحد . انظر . لغ ، / 98 – 99 .

المصـــــــادر

القرآن الكريم

((أ))

الأنباري ، محمد بن القاسم .

- كتاب الأضداد ، تح ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة حكومة الكويت ، 1960 .

ابن الأنباري ، كمال الدين أبو البركات .

- الانصاف في مسائل الخلاف ... تح محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة حجازي ، القاهرة ، ط 2 ، 1953 .

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار النهضة ، القاهرة ، 1957 .

- أسرار العربية ، مطبعة بريل ، لندن ، 1886 .

الأنصاري ،ابن هشام .

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ،ط : 16 .

- أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ط : 16 ، 1974 .

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

الأنصاري ، أبو زيد .

- النوادر في اللغة ، تح محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، بيروت ، ط : 1 ، 1981 .

الأنصاري ، زين الدين أبو يحي .

- مقدمة في الكلام على البسملة ، تح صالح مهدي العزاوي ،المورد ، مج : 7 ، ع : 3 ، 1978 (ص 239) .

الأشموني .

- شرح الأشموني ،مطبعة حسين بك حسني ،ط : 3 ، 1287 هـ .

الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين .

- كتاب الأغاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

الأزهري ، خالد بن عبد الله .
- شرح التصريح على التوضيح ، دار احياء الكتب العربية ، الحلبي
الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد :
- تهذيب اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، دار القومية العربية للطباعة ، 1964.
الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر .
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تح السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، 1961.
ابن الأثير ، ضياء الدين .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تح أحمد الحوفي وغيره ، مكتبة النهضة مصر ، ط : 1 ، 1960 .
الأسطراباذي ، الرضي ، شرح الشافية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1975 .
((ب))
البطليوسي ، ابن السيد .
- الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، 1901 .
- التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين ... تح أحمد حسن كحيل وحمزة عبد الله النشرتي ، دار الاعتصام ، ط : 1 ، 1978.
الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب .
- اعجاز القرآن ، تح أحمد السيد صقر ، دار المعارف ، بمصر ، ط : 5 ، 1981 .
البخـــاري .
- صحيح البخاري ، دار الفكر.
البغدادي ، عبد القادر بن عمر .
- خزانة الأدب ، ولباب لسان العرب ، تح عبد العزيز الميمني ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349 .
البغدادي ، الخطيب ، أبو بكر أحمد .
- تاريخ بغداد ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .

((ت))

التهانوي ، محمد علي الفاروقي .
- كشاف اصطلاحات الفنون ، تح لطفي عبد البديع ، وغيره ، مطبعة السعادة ، 1963 .
التميمي ، أبو الطاهر محمد بن يوسف :
- المسلسل في غريب لغة العرب ، تح محمد عبد الجواد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، بغداد .
أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي .
- ديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، دار المعارف بمصر ، 1964 - 1969 .
التبريزي .
- تهذيب الألفاظ ، تح الأب لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، 1895 - 1898.

((ث))

الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك :
- فقه اللغة وأسرار العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
ثعلب ، أبو العباس :
- كتاب الفصيح ، تح محمد عبد المنعم خفاجي ، المطبعة النموذجية، مصر ، ط : 1 ، 1949.

((ج))

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
- البيان والتبيين ، تح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1949.
- الحيوان ، تح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى الحلبي ، ط : 1 ، 1938 - 1943.
- البخلاء ، تح طه الحاجري ، دار المعارف بمصر ،ط : 4 ، 1971
- حج النبوة (ضمن مجموعة رسائل الجاحظ) نشرها السندسي 1933 .

ابن جني ، أبو الفتح عثمان .

- المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشواذ ، تح علي النجدي ناصف وغيره ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، 1966.
- سر صناعة الاعراب ، تح مصطفى السقا ، مطبعة الحلبي بمصر ، ط : 1 ، 1954.
- الخصائص ، تح علي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1952- 1956 .
- المنصف ، تح ابراهيم مصطفى وغيره ، مطبعة الحلبي بمصر ، ط: 1 ، 1954.

الجواليقي ، أبو منصور موهوب بن أحمد .

- المعرب من الكلام الأعجمي ، تح محمود محمد شاكر ، الاسفنت ، طهران ، 1960 .
- كتاب تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة ، تح عز الدين التنوخي ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، 1936 .
- شرح أدب الكاتب ، تقديم ، مصطفى صادق الرافعي ، مكتبة القدس ، القاهرة ، 1350 .

الجمحي ، ابن سلام .

- طبقات فحول الشعراء ، تح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1974.

الجرجاني ، عبد القاهر .

- دلائل الاعجاز ، تصح ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت ، 1978.
- أسرار البلاغة ، تص ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت ، 1981.
- الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) ، تح ، محمد خلف الله ، وسلام محمد زغلول ، دار المعارف بمصر ، ط : 2 ، 1968 .

الجرجاني ، القاضي علي بن عبد العزيز .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تح ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، وغيره ، مطبعة الحلبي ، ط : 1 ، 1945.
الجوهري ، أبو منصور .
- الصحاح ، تح ، أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1956.
ابن الجهم ، علي .
- ديوان ، تح خليل مردم بك ، لجنة التراث العربي ، بيروت ، ط : 2 ، 1959.
ابن الجزري ، شمس الدين أبو الخير محمد :
- النشر في القراءات العشر ، المطبعة التجارية الكبرى .. بدون تاريخ .
- منجد المقرئين ومرشد الطالبين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1980.
ابن الجزري ، محب الدين بن الأثير .
- النهاية غريب الحديث والأثر ، تح أحمد طاهر الزاوي ، دار احياء الكتب ، القاهرة ، ط : 1 ، 1963.
الجرجاني ، أبو الحسن علي بن محمد :
- التعريفات ، الدار التونسية للنشر ، 1971.

((ح))

حازم القرطاجني ، أبو الحسن :
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ط : 2 ، 1966.
الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي :
- درة الغواص ، تح هنري ثور بيك ، ليبسيك ، 1871.
الحموي ، شهاب الدين ياقوت :
- معجم البلدان ، ليبزيك .
- معجم الأدباء ، مطبعة دار المأمون ، 1938.

أبو حيان التوحيدي .

- الامتاع والمؤانسة ، تح أحمد أمين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت.

- البصائر والذخائر ، تح ابراهيم الكيلاني ، دمشق ، 1964.

أبو حيان النحوي ، ابن الأثير أبو عبد الله :

- البحر المحيط ، مطبعة السعادة بمصر ، 1328 هـ.

الحصري القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي :

- زهر الآداب وثمر الألباب ، تح زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 4 ، 1972.

((خ))

ابن خالويه :

- الحجة في القراءات السبع ، تح عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، ط : 4 ، 1981.

- اعراب 30 سورة من القرآن ، تصح عبد الرحيم محمود ، دار الكتب المصرية ، 1941.

الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد :

- مفاتيح العلوم ، مطبعة الشرق ، القاهرة ، ط : 1 ، 1342 هـ.

الخفاجي ، أبو محمد عبد الله :

- سر الفصاحة ، تح عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد صبيح ، القاهرة ، ط : 3 ، 1969.

الخفاجي ، شهاب الدين :

- شفاء الغليل ، تصح محمد بدر الدين النعسان ، مطبعة الأخوين ، مصر ، 1907.

ابن خلدون ، عبد الرحمن :

- المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط : 3 ، 1967 .

الخطابي ، أبو سليمان حمد :

- بيان اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل ...) ، تح محمد خلف الله ، وسلام محمد زغلول ، دار المعارف بمصر ، ط : 2 ، 1968.

الخليل بن أحمد الفراهيدي .
- العين ، تح مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1980 .

((د))

ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن .
- الاشتقاق ، تح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة السنة المحمدية ، 1958 .
- الجمهرة ، تح زين العابدين بن الموسوي ، حيدر آباد ، الدكن ، ط : 1 ، 1344 هـ .
ابن الدمينة :
- ديوان صنعة ثعلب ، تح أحمد راتب النفاخ ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، 1961 .
الداني ، أبو عمرو عثمان بن سعيد .
- التيسير في القراءات السبع ، تح أوتو يرتزل ، مطبعة الدولة ، استنبول ، 1930 .

((ر))

الراغب ، الأصفهاني .
- معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تح نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، 1972 .
الرازي ، الفخر .
- التفسير الكبير ، المطبعة البهية المصرية ، 1938 .
الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر :
- نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ، مطبعة الآداب بمصر ، 1317 هـ
الرازي ، محمد بن أبي بكر عبد القادر :
- مختار الصحاح ، رتبه محمود خاطر ، دار المعارف بمصر ، 1976 .
الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى .
- النكت في اعجاز القرآن ، (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)

ابن رشيق ، القيرواني ، أبو علي الحسن .
- العمدة ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط : 2 ، 1955.

((ز))

الزجاجي ، أبو القاسم .
- الايضاح في علل النحو ، تح مازن المبارك ، دار النفائس ، ط : 3 ، 1979.
الزجاج ، أبو القاسم بن اسحاق .
- الأمالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : 2 ، 1982.
- مجالس العلماء ، تح عبد السلام محمد هارون ، وزارة الارشاد ، 1962.
الزمخشري ، أبو القاسم محمود جار الله .
- تفسير الكشاف ، عن حقائق التنزيل ، دار الفكر ، ط : 1 ، 1977.
- المفصل في علم العربية ، مطبعة التقدم ، مصر ، ط : 1 ، 1323هـ.
- أساس البلاغة ، دار صادر للطباعة ، بيروت ، 1965.
الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن .
- طبقات النحويين واللغويين ، تح محمد ابراهيم أبو الفضل وغيره ، الخانجي ، بمصر ، ط : 1 ، 1954.
- لحن العوام ، تح رمضان عبد التواب ، المطبعة الكمالية ، ط : 1 ، 1964.
الزبيدي ، السيد محمد مرتضى .
- تاج العروس ، المطبعة الخيرية ، مصر ، ط : 1 ، 1306 هـ.
أبو زيد ، محمد بن أبي الخطاب القرشي .
- جمهرة أشعار العرب ، دار صادر للطباعة ، بيروت ، 1963.
الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله .
- البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم ، عيسى الحلبي ، ط : 1 ، 1957.

((س))

ابن السكيت ، يوسف يعقوب بن اسحاق :

- اصلاح المنطق ، تح محمود محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، ط : 2 ، 1952.
- الألفاظ ، تح الأب لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1897 م.

السجستاني ، أبو حاتم :

- فعلت وأفعلت ، تح خليل ابراهيم العطية ، جامعة البصرة، 1979

ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن اسماعيل .

- المخصص ، المكتب التجاري ، بيروت ، 1321.

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر .

- المزهر ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم ، وآخرين ، دار احياء الكتب العربية ، مصر ، ط : 2.
- همع الهوامع ، تصح ، محمد بدر الدين النعسان ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط : 1 ، 1327.

أ - الاتقان في علوم القرآن ، تح الشيخ أحمد سعد ، مطبعة الحلبي ، ط : 3 ، 1951.

ب - الاتقان ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، 1368 هـ.

- الاقتراح في علم أصول النحو ، حيدر آباد ، الدكن ، ط: 1 ، 1313.
- الخصائص الكبرى ، تح محمد خليل هراس ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، 1967.

السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبد الله :

- أخبار النحويين البصريين ، نشر كرنكو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1936.

((ص))

الصقلي ، ابن مكي .

- تثقيف اللسان ، وتلقيح الجنان ، تح عبد العزيز مطر ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ، 1966.

الصولي ، أبو بكر محمد بن يحي .
- أخبار أبي تمام ، نشره خليل محمود عساكر وآخرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط : 1 ، 1937.
- أخبار البحتري ، تح صالح الأشتر ، دار الفكر ، دمشق ، ط : 2 ، 1964 م.
- أدب الكاتب ، تح محمد بهجت الأثري ، المطبعة السلفية بمصر ، 1341 هـ.
الصاحب بن عباد .
- رسالة في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ، تح ابراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف ، مصر ، 1961.

((ط))

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، ط : 2 ، 1972.
ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن طاهر .
- بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1968 .
أبو الطيب ، أبو الواحد بن علي اللغوي .
- مراتب النحويين ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة نهضة مصر ، بالفجالة ، القاهرة ، 1955 .
- كتاب الابدال ، تح عز الدين التنوخي ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، 1960 .

((ع))

ابن عطيه ، عبد الحق بن أبي بكر .
- مقدمتان في علوم القرآن، تح أرثر جفري ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ، 1954.
أبو علي ، ابن سينا .
- منطق المشرقيين ، تقديم شكري النجار ، دار الحداثة ، بيروت ، ط : 1 ، 1982 .

العسكري ، أبو هلال :
- الفروق في اللغة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط : 3 ، 1979.
- ديوان المعاني ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، 1352 هـ.
علي بن حمـزة .
- التنبيهات على أغلاط العلماء ، تح ، عبد العزيز الراجكوتي ، دار المعارف ، مصر ، 1977.
العكبري ، أبو البقاء عبد الله .
- املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن ، تح ابراهيم عطوة عوض ، مصطفى الحلبي بمصر ، ط : 1 ، 1961.
العميدي ، أبو سعيد محمد بن أحمد :
- الابانة عن سرقات المتنبي ، تح ابراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ، 1961.
العباسي ، عبد الرحيم بن أحمد .
- معاهد التنصيص ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، 1947.
ابن عصفور الاشبيلي :
- ضرائر الشعر ، تح السيد ابراهيم محمد ، دار الأندلس ، بيروت ، ط : 2 ، 1982.

((ف))

الفارابي ، أبو نصر .
- كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ، تح محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ، 1968.
- الحروف ، تح محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ، 1969.
ابن فارس ، أبو الحسن أحمد .
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تح مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، 1963
- تمام فصيح الكلام (ضمن رسائل في النحو واللغة) ، تح مصطفى جواد ، دار الجمهورية ، بغداد ، 1969.

الفراء ، أبو زكرياء يحي بن زياد .
— معاني القرآن ، تح أحمد يوسف نجاتي ، وعلي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط : 1 ، 1955.
الفارسي ، أبو علي .
— أقسام الأخبار ، تح د . علي جابر المنصوري ، مجلة المورد ، مجلد : 7 ، العدد : 3 ، 1398 / 1978.
الفاكهي ، عبد الله .
— حدود النحو (ضمن ثلاث رسائل في الحدود) ، تح عبد اللطيف محمد ، دار النهضة العربية بمصر ، 1978 م .

((ق))

ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم .
— أدب الكاتب ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، ط : 4 ، 1382 ، 1963.
— الشعر والشعراء ، عالم الكتب ، ط : 3 ، 1984.
— عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مج 1 ، 1925 ، مج 2 ، 1930.
— القرطين ، (كتاب تأويل مشكل القرآن وغريبه) ، تصح ، عبد الحفيظ سعد عطية ، مطبعة الشرق ، ط : 1 ، 1937.
— تأويل مشكل القرآن ، تح السيد أحمد صقر ، دار احياء الكتب العربية ، 1954.
القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي :
— الأمالي وذيله ، مطبعة السعادة بمصر ، ط : 3 ، 1373 ، 1953.
القفطي ، جمال الدين أبو الحسن .
— أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تح أحمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط : 1 ، 1952.
القزويني ، الخطيب .
— الايضاح في علوم البلاغة ، تح محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، ط : 4 ، 1975.

- تلخيص المفتاح ، تحقيق أسعد علي ، دار السؤال بدمشـــق ، ط : 4 ، 1981.

القرطبي ، أبو عبد الله محمد الأنصاري .

- الجامع لأحكام القرآن ، تح ، أحمد عبد العليم البردوني ، دار الأندلس ، 1385 ، 1965.

((ل))

الكلبي ، محمد بن أحمد جزي ،

- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، تح ، لجنة من العلماء ، مطبعـة مصطفى محمد ، بمصر ، ط : 1 ، 1355 هـ.

((م))

المبرد ، أبو العباس :

- الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت ، 1982.

- المقتضب ، تح محمد عبد الخالق عضيمة ، مؤسسة دار التحريــر للطبع ، مصر ، 1963.

- الفاضل في اللغة والأدب ، تح عبد العزيز الميمني ، 1955.

ابن منظــــور :

- لسان العرب ، نشر دار صادر ، بيروت ، 1955.

ابن مالك ، جمال الدين الطائي .

- شرح التسهيل ، تح عبد الرحمن السيد ، مطابع سجل العرب ، ط : 1 ، 1974 .

- شواهد التوضيح والتصحيح ، تح ، محمد فؤاد عبد الباقي ، مكتبـة دار العروبة ، مصــر .

ابن المعتز ، عبد الله :

- طبقات الشعراء تح عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر ، ط : 2 ، 1968.

- رسائل في النقد والأدب ، تح محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة الحلبي ، مصر ، ط : 1 ، 1946.

المفضل بن سلمة أبو طالب .

أ - كتاب الفاخر ، تح المستشرق شالس أنبروس أستوري ، مطبعة بريل ، لندن ، 1915.

ب - كتاب الفاخر ، تح محمد علي النجار ، دار احياء الكتب بمصر ، 1960.

المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران .

أ - الموشح ، المطبعة السلفية ، 1924.

ب - الموشح ، تح علي محمد البجاوي ، دار النهضة ، مصر ، 1965.

ابن مجاهد ، أبو بكر ،

- كتاب السبعة القراءات ، تح الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، 1972.

((ن))

أبو نواس .

- ديوان أبي نواس ، دار صادر ، بيروت ، 1962.

((هـ))

الهمذاني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف .

- صفة جزيرة العرب ، تح محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، مطبعة السعادة بمصر ، ط : 2 ، 1953.

الهوريني ، نصر الدين .

- شرح ديباجة القاموس المحيط ، للفيروز أبادي .

((و))

ابن وهب ، اسحاق بن ابراهيم .

- نقد النثر (المنسوب الى قدامة بن جعفر) تح عبد الحميد العبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1980.

المراجـــــع

((أ))

أنيس ، فريحة .
- نظريات في اللغة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط : 1 ، 1973 .
- نحو عربية ميسرة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1955 .
آل ياسين ، محمد حسين :
- الدراسات اللغوية عند العرب الى نهاية القرن الثالث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط : 1 ، 1980 م .
ابراهيم ، أنيــس .
- دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 2 ، 1963 .
- من أسرار العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 3 ، 1966 .
- في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط : 4 ، 1973 .
الأنصاري ، أحمد مكي .
- يونس البصري ، حياته وآثاره ومذاهبه ، دار الاتحاد العربـــي للطباعة ، بالخرطوم ، 1973 . التيار القياسي ... جامعة القاهرة 1966
أحمد ، أمين .
- فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط : 11 ، 1975 .
أدي ، شيــر .
- الألفاظ الفارسية المعربة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1908 .
أحمد ، تيمور باشا .
- القياس والسماع ، مطابع دار الكتاب العربي ، بمصر ، ط 1 ، 1955 .
الأفغاني ، سعيد :
- في أصول النحو ، مطبعة الجامعة السورية ، 1951 .
ابراهيم ، مصطفى ، احياء النحو ، لجنة التأليف والترجمة ، 1931 م .

((ب))

بكر شيخ ، أميـن :
- التعبير الفني في القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط : 4 ، 1980 .

- أدب الحديث النبوي ، دار الشروق ، بيروت ، ط : 5 ، 1401 / 1981.

((ت))

تمام ، حسان ،

- اللغة بين المعيارية والوصفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1958.

((ج))

الجندي ، أحمد علم الدين .

- اللهجات العربية في التراث ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1978.

الجندي ، درويش .

- نظرية عبد القاهر في النظم ، مكتبة نهضة مصر ، بالفجالة ، 1960.

جواد ، علي ،

- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط : 1 ، 1968.

((ح))

حسن ، ظاظا ،

- كلام العرب (من قضايا اللغة العربية) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1976.

الحديثي ، خديجة :

- أبو حيان النحوي ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ط : 1 ، 1966

حسين ، عبد القادر :

- أثر النحاة في البحث البلاغي ، القاهرة 1975 م .

حسـن عـون :

- دراسات في اللغة والنحو العربي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1969.

حسين، محمد محمد :

- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية والاسلام ، القاهرة ، 1964 .

الحلواني ، محمد خير :

- أصول النحو العربي ، مطبعة الشرق لحلوح ، حلب ، سوريا ، 1979 .

((خ))

الخضر ،محمد الخضر حسين .

- دراسات في العربية وتاريخها ، دار الفتح ، دمشق ،ط: 2،1960.

((ر))

الرافعي ، مصطفى صادق .

- تاريخ آداب العربية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج .1 ، ط: 4 ، 1974 ،وج . 2،ط: 8 ، 1974 ،وج . 3 ، ط: 2 1974.

رضوان، محمد مصطفى .

- العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ، دار المعارف بمصر، 1971.

((ز))

زيـدان، جـرجـي .

- تاريخ آداب اللغة العربية ، دار مكتبة الحياة ، بيـروت ، ط: 2 ، 1978 .

((س))

السامـرائي، ابراهـيم .

- التطور اللغوي التاريخي ، دار الأندلس، بيروت، ط: 2 ، 1981 .

السيد، عبد الرحمن محمد .
- مدرسة البصرة النحوية ، دار المعارف بمصر ، ط : 1 ، 1968.
سلام، محمد زغلول :
- أثر القرآن في تطور النقد العربي ، دار المعارف ، 1952 .
سيد، قطب .
- كتب وشخصيات ، دار الشروق، بيروت.

((ش))

شوقي ، ضيف .
- العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ، ط:5 ، 1975.
- العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر ، ط:2 ، 1975.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف بمصر، ط:9، 1980.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف بمصر، ط:10، 1978.
- المدارس النحوية ، دار المعارف بمصر ، ط:2 ، 1972.
شاهين، عبد الصبور .
- في علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة ، ط:3 ، 1980.
الشرقاوي، عفت .
- بلاغة العطف في القرآن (دراسة أسلوبية) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981.
الشايب، أحمد .
- الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط:5 ، 1956.

((ص))

الصيادي، محمد المنجي .
- التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط:1 ، 1980.
صبحي، الصالح .
- دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط:10 ، 1983.

((ع))

عبد العال، سالم مكرم .

- القرآن وأثره في الدراسات النحوية ، دار المعارف بمصر، 1968.

علي أبـو المـكارم .

- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، القاهرة ، ط: 1، 1971

عبد الحـي ديـاب .

- فصول في النقد والأدب الحديث ، الدار القومية للطباعـة ، 1965.

عبد التواب، رمضـان .

- فصول في فقه العربية ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط1، 1973.

- لحن العامة والتطور اللغوي ، دار المعارف بمصر ، ط1 ، 1967.

عبد العزيـز مطـر .

- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، دار الكتـاب العربي للطباعة ، بالقاهرة ، 1967.

عفيـف دمشقيـة .

- المنطلقات التأسيسية والفنية الى النحو العربي ، معهد الانمـاء العربي ، بيروت ، ط:1 ، 1978.

العقاد ، عباس محمود .

- مقدمة الغرباء لميخائيل نعيمة ، مؤسسة نوفل ، بيـروت ، ط:13 1983.

- ابن الرومي ، حياته من شعره ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط:7 ، 1968.

عتر، نور الديـن .

- القرآن والحديث ، علم الحديث والدراسات الأدبية ، مطبعـة الانشاء ، دمشق، 1981 _ 1982.

((ف))

أبو الفتح محمد أحمد .

- مقدمة لدراسة فقه اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط:1 ، 1966.

فاروق، شوشة .
— لغتنا الجميلة ، دار العودة ، بيروت .

((ك))

الكرملي ، الأب أنستاس .
— نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، 1938 .
كمال، يوسف الحاج .
— في فلسفة اللغة ، دار النهار للنشر ، ط 2 ، 1978 .

((م))

المبارك، محمد .
— فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط : 4، 1970 .
المبارك، مازن .
— نحو وعي لغوي ، مؤسسة الرسالة ، 1979 .
مراد، كمال :
— دلالة الألفاظ العربية وتطورها ، معهد الدراسات العربية العالمية ، مطبعة نهضة مصر ، 1963 .
ميشال، زكريا .
— الألسنة (علم اللغة الحديث) مبادؤها وأعلامها ، بيروت ، 1980 .
مندور، مصطفى .
— اللغة بين العقل والمغامرة ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، مصر ، 1974 .

((ن))

نيلينو، كارلو .
— تاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف بمصر ، ط : 2 ، 1970 .

ناصف، مصطفى :

– نظرية المعنى في النقد العربي ، دار الأندلس ، ط: 2 ، 1981.

((ى))

اليسوعي ، الأب رفائيل نخلة .

– غرائب اللغة العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ط:2، 1960.

ياقوت، أحمد سليمان :

– ظاهرة الاعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط:2 ، 1983.

المراجع المترجمة :

بروكلمان ، كارل .

– تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، بمصر ، 1969.

لانسون، ومابيه .

– منهج البحث في الأدب واللغة ، تر ، محمد مندور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط:2 ، 1982.

فندريس، جوزيف .

– اللغة ، تر ، عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص ، مطبعة لجنة البيان العربي ، 1950.

فك، يوهان .

– العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، تر ، رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، بمصر ، 1980.

الدوريــــــات

- مجلة التراث اللغوي ، اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، العدد : 9 ، السنة : 3 ، محرم 1403 ، تشرين 1982
- مجلة الدوحة ، وزارة الاعلام ، بقطر ، العدد : 49 ، السنة : 4 ، صفر 1400 ، يناير 1930
- مجلة اللسان العربي ، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربـــــي ، (الأبحاث المتعلقة بالبحث)
- مجلة الفكر العربي ، معهد الانماء العربي للعلوم الانسانية ، بيروت ، العدد : 26 ، السنة : 4 ، مارس 1982
- مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ، المطبعة الأميرية بولاق ، القاهرة ، الجزء : [illegible] ، 1935
- [illegible] فؤاد الأول [illegible] المطبعة الأميرية ، بـــــولاق ، القاهرة ، الجزء : 4 ، 1939
- مجلة المورد ، وزارة الثقافة والفنون العراقية ، دار الجاحظ ، بغداد ، المجلد : 7 ، العدد : 3 ، 1978
- مجلة الأقلام ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الجاحظ ، بغــــــداد ، العدد : 4 ، السنة : 15 ، 1980
- مجلة اللسانيات ، معهد العلوم اللسانية والصوتية ، جامعة الجزائر ، المجلد : 1 ، الجزء : 1 ، 1971
- محاضرة ألقاها الحاج صالح عبد الرحمن ، في الندوة العربية لتدريس اللغة العربية بالجزائر ، 1984 . الأسس العلمية لتطوير تدريــــــس اللغة العربية .
- مجلة اللغة العربية بدمشق ، مجلة المجمع العلمي العربي سابقـــــا ، الجزء : 3 ، المجلد : 56 ، رمضان 1401 هـ ، تموز ، يوليو 1981 .

فهرس المحتويات

الموضوع : | الصفحة